ذُو الكِفْل أُمْ حَزْقِيَال

رؤية جديدة

عامر هادي الذرب



مكتبة جزيرة الورد

اســم الكتاب : ذو الكفل أم حزقيال – رؤية جديدة

المـــــؤلف : عامر هادي الذرب

رقــم الإيداع : 10586/ 2012

الطبعة الثالثة 2012



الإهداء

إلى فكر وروح العلامة

المرحوم الدكتور أحمد سوسة

مقدمة الطبعة الأولى

يقترب التاريخ من عالم الميثولوجيا في أغلب كتابات المؤرخين الأوائل ، كونه يعتمد على النقل الشفاهي في تثبيت المعلومة التاريخية ، وإيصالها بشكل تختلط فيه الحقيقة بالأسطورة بشكل يدعو إلى حيرة الباحثين والدارسين لجانب معين من التاريخ . فكيف بنا إذا كان هذا التاريخ فيه جانب يخص منطقة جغرافية إسلامية عريقة مدفون فيها نبي من أنبياء الله الصالحين بعد السبي البابلي ألا وهو نبي الله (ذو الكفل) .

ويتطرق السيد (عامر هادي الذرب) الذي يعرف جميع أهالي المنطقة ، وغيرهم الكثير ، عائلتهم الكريمة ومواقفها الشجاعة ضد كل مَنْ يسيء للتراث الإسلامي ، ولسمعة العرب المسلمين ، ويتطرق إلى الحقيقة الثانية التي يحاول فيها أنْ يثبت بالدليل والبرهان ، أنَّ النبي اليهودي (حزقيال) هو غير النبي (ذو الكفل) الذي ذكره القرآن الكريم والذي تكرر فيه مرتين ، كانت المرة الأولى في سورة)ص) وفي الآيتين 48 ، 49

﴿ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ ﴾ ، مثلما جاء ذكره في سورة الأنبياء وفي الآية رقم (85) على الشكل التالي : ﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ ، واسم ذا الكفل تكرر مرتين مقروناً باسم إسماعيل في الكتاب المنزل ، إضافة إلى عدم ذكره في التوراة .

وكنت قد عرفتُ السيد (عامر هادي الذرب) مناضلاً صلباً في الحركة الوطنية العراقية ، ودارساً لكتب التاريخ العربي الإسلامي ، وتاريخ الاستشراق ، يقرأ ويتفحص ثم يستنتج . والميزة الأولى ـ أقصد الانخراط في الحركة الوطنية العراقية ـ أكسبته الصبر والتأني والحكم على الأشياء بتروٍ ونظرة نافذة وبصيرة . كما جده وأبيه (رحمهما الله) .

وكان لغياب السيد (هادي الذرب) والد كاتب هذه الدراسة أثرٌ مهمٌ وتداعيات كبيرة وحكايات لا زالت تتردد على أفواه الرجال والنساء عن هيبته ومكانته وشجاعته ومواقفه المشهورة في حمايته للقيم والتقاليد الأصيلة ، ولقد قيل في غيابه : (كان أول الكبار وآخرهم).

إنَّ هذه الدراسة مرتبطة فصولها اِرتباطاً وثيقاً في بعضها البعض ، ذات أسلوب سلس شيق متين العبارة ، تجعل من القارئ لا يتأثر بها إلا بعد الاِنتهاء منها ، وهي مليئة بالشواهد والمصادر الموثوقة ، مما يزيد ثقة المتلقي بكاتبها ، وقسم منها يأتي رداً على أستاذ فاضل ـ كما ذكره الكاتب ـ في جريدة «المؤتمر» الصادرة في لندن ، العدد (93) لسنة 2000 عن منارة الكفل وصاحب مرقد الكفل .

وهذه المقالة والدراسة ـ أقصد دراسة الأستاذ عدنان الظاهر ـ فيها من الأخطاء التاريخية والاِجتماعية والتخرصات والتحامل على التاريخ القريب والبعيد الشيء الكثير والذي يتنافى مع أبسط شروط البحث الأكاديمي الرصين ، ومن التشويهات لمعالم تاريخية شاخصة أثارت اِستغراب واِستنكار أهالي المدينة (الكفل) ، ومع ذلك سجل السيد عامر هادي الذرب سابقة أخرى للكاتب المذكور أعلاه وهي نشر رده بين طيات هذه الدراسة اِمتثالاً للمروءة وحق الرد ولكي يطلع القارئ على الرأي الآخر .

ومن أجل فك الاِرتباط بين النبي العربي الإسماعيلي (ذو الكفل) ، ونبي اليهود (حزقيال) ، ولضرورة إعادة كتابة التاريخ تشكل هذه الدراسة وجهة نظر الكاتب بها أو الاِعتراض عليها .

إنَّ لليهود الخارجين من إبط الصهيونية العالمية بصمات واضحة في تشويه التاريخ الإسلامي وعلى مر العصور ، ويذكر الكاتب حادثتين وقعتا في العهد العثماني ، نذكر أولهما التي تخص منارة الكفل الإسلامية ومسجدها ، وتطاول اليهود ومحاولتهم طمس معالمها ، ولكن الحاج (ذرب) أفشل محاولتهم الخبيثة تلك ، ومنعهم من الوصول إلى أهدافهم المشبوهة ، وذلك بتقديم شكوى بالتفصيل إلى الباب العالي في الأستانة ، إذ أرسل الباب العالي وفداً لتقصي الحقائق ، ولكن اليهود أغروا الوفد بما يملكونه من مال ودهاء حيث قام الوفد المذكور بتصوير (المرقد) فقط ، وأهمل تصوير (منارة الكفل) ، ولكن اللعبة اِنكشفت والحمد لله بجهود (الحاج ذرب) رحمه الله ، الذي كان سادنا للمرقد ، ورئيس بلدية الكفل آنذاك ، وهو جد كاتب هذه الدراسة القيمة .

إنَّ جهد الكاتب ودأبه واضحين ، وهو كشف الزيف الذي لحق بهذا الصرح الإسلامي الكبير ، وتحرير صفحات كثيرة عن تاريخ مدينة الكفل العربية الإسلامية الناصع ، وفضح نوايا أذناب الصهيونية من العرب واليهود ، ومَنْ لف لفهم من المستشرقين والمتحاملين على كل ما هو عربي وإسلامي وجميل تحت سماء الله ، وخاصة أرض العراق العزيز .

وبعد . . . إنَّ هذه الدراسة تطفح بالروح الوطنية الوثابة ، وتستمد حيويتها من تراث عربي وهّاج وثر مليء بالإشارات والشواهد التي يستطيع أي كاتب أو باحث مثابر أنْ يجد الشذرات والمواقف بين طيات كتب التاريخ المرموقة ، ويستعين بها ليرد على الذين ذبحوا الحضارة العربية الإسلامية من الوريد إلى الوريد ، وحاولوا تجفيف منابعها .

هؤلاء الجُناة الذين سوف لن يغفر لهم التاريخ أبداً ، وأكيد سيظهر شُرفاء آخرون من الأجيال القادمة يرشقون أولئك بكلمات من سجيل ، لا تبقي لأسمائهم ولا تذر من أثر يذكر .

أتمنى من الله للكاتب دوام الموفقية والصحة من أجل الوقوف بوجه دينصورات الثقافة من كل الأجناس والألوان والجهات ، أنه سميع مجيب ، وهو ولي التوفيق

الكفل ـ 21 / 1 / 2010

عبد الحسين الحيدري

الأديب والشاعر

مقدمة الطبعة الثانية

صدور الكتاب الموثَّق والهام

الذي يحمل عبق تاريخ المنطقة :

في زمن شهد العراق فيه تغييرات درامية وعاصفة أنهى فيها الإِحتلال العسكري الأمريكي دولته الوطنية الحديثة والمعاصرة التي قامت على أثر الثورة الوطنية التحررية التي اِندلع لهيبها في الثلاثين من حزيران عام 1920 ، وتأسست أولى خطواتها العملية في العام 1921 ، جراء جهود ومثابرة قطاعات اِجتماعية واسعة من العراقيين في الشمال والوسط والجنوب : أي من الولايات الثلاث ، ولاية الموصل ، ولاية بغداد ، ولاية البصرة ، وبالتشاور والتعاون وحتى إطاعة أوامر المستعمرين البريطانيين في بعض الأحيان .

وما يهمنا الآن في كتابة هذا الإِستعراض النقدي للكتاب المعنون : ذو الكفل أم حزقيال، لتبيان الإيجابيات التي تجلّت فيه :وهي كثيرة ، والتأشير على السلبيات التي تخللت بعضَ سطوره القيمة ، وهي قليلة إنْ لم تكن معدومة . . . هو التعرض السريع للقضية الموضوعية المتعلقة بالبيئة الجغرافية والاِجتماعية والتاريخية التي أفرزت هذا الكتاب والتي تتعلق ـ كما أرى ـ بمدينة منشأ الكاتب التي شهد فيها مراتع صباه وترعْرع حداثته وصيرورة شبابه ، أي مدينة «الكفل» وجوارها ، لأنّ لهذه المدينة القديمة والأصيلة في الوجود التاريخي كان لها الدور الفاعل في مجريات تلك الثورة الباسلة المظفرة

[أي ثورة العشرين] ، فعلى أرضها شـهـدت المعارك الطاحنـة بـين أبنـاء البلـد ، مـن جهـة ، وأعدائهم من الغزاة المحتلين ، من جهة أخرى ، وعلى ثراهـا الطيـب سـالت دمـاء الشـهداء والجرحى مدرارة زكية نقية ، في سـبيل طرد الغـُزاة الكفار : المستعمرين البريطانيين .

كان التأثر والتجاوب ما بين «المثقفين العراقيين» ، ويتجسدون في تلك اللحظة التاريخيـة من الاِنعدام العام للـوعي الفكـري الحـديث : بـبعض علمـاء الـدين المسـلمين المتنـورين التحرريين ، بسبب الطبيعة المتخلفة للاِستعمار العثماني ، والسياسة التربوية المقطوعـة عـن العالم المتحضر التي اِتبّعها ، خصوصاً في الولايات الثلاث تلك المكونة لدولة العراق الحديثة لاحقا ، التي من بينها اِنعدام المدارس الحديثة بمراحلها المختلفة ، وسيطرة البعض المتأخر من رجال الدين المعممين المؤثرين على المجتمع العراقي ، ممن أناخ عـلى ظهـورهم الفقـر المعرفي الذي أفرزته سنوات الجمود والتأخر في العصور المظلمة . . . ، إضافة إلى الكم الكبير من المجاهدين الفلاحـين الـذين أشـهروا سـلاحهم الفـردي : النـاري والأبـيض لمطـاردة «السوجر الإنكليزي» المحتل ، وكان من بيـنهم أبنـاء مدينـة الكفـل ، كمـا قلنـا ، والعشـائر المجاورة ، وحاضرة الكفل ـ كما هو معلوم ـ يقطنها مجتمع فلاحي يعتمد الزراعة في عيشـه على الأغلب .

إنَّ مطالعة سريعة لما سطرته يدُ مؤرخ العراق الأول المرحوم عبد الرزاق الحسـني في كتابه : الثورة العراقية الكبرى الذي جمع خلالـه «أدق . . . العوامـل والأسـباب السياسـية والأدبية التي أدّت إلى نشوب الثورة . . . وعن ميادينها الحربيـة . . . وعـن الخسـائر التـي مني بها الطرفان ، ونحو ذلك من جليل المعلومات» . . .

أقول أنَّ هذا المؤرخ قد أورد على الصفحات 144 ـ 152 مـن ذلـك الكتـاب المعلومـات الغزيرة عن الاِشتباكات الميدانية التي كانت أبرزها معركة الرسـتمية / الرارنجيـة المشـهورة ، والقرية هي قصبة تابعة لمدينة الكفل ، والتي كان نتيجتها حسب اِعتراف الجنرال هالـدن : «إنّ رتل مانشستر خسر عشرين قتيلاً وستين جريحاً ، و318 مفقوداً ، وعدداً كبيراً من العجـلات ، والخيل ، والبغال ، وقد أسر الثوار من المفقودين 160 جندياً بينهم 79 إنكليزياً ومَنْ بقي فمـن الهنود ، كما غنموا مدفعاً من عيار 18 بوند ، فاِستعملوه في ضرب الباخرة «فاير فلاي» وإغراقها ، في شط الكوفة ، أما بقية المفقودين فقد ضاعت أشلاؤهم وتفرقت ، بينما لم يخسر الثوار أكثـر من بضعة عشر قتيلاً ، وبضعة عشر جريحاً ، وقد غنموا نحو 95 مدفعاً رشاشاً وكميـات كبيـرة من الرصاص والعتاد . ويضيف المؤرخ الحسني

و«نستطيع أنْ نقول أنَّ «واقعة الرستمية» مونَّت الثوار بكل ما يُحتاج إليه مـن عتـاد وذخيـرة لمدة طويلة» ، ص 148 ـ 149 من الكتاب المطبوع في عام 1384 هجرية ، والجدير بالذكر أنَّ هالدن قلل من عدد خسائره في الأفراد مما جعـل السـير أي ، تي ، ولسـن أنْ يؤكـد التـالي : «إنَّ تراجع رتل مانشـستر كلف الإنكليز مائة وثمانين قتيلاً ، وستين جريحاً ونحو 160 أسيراً ، مع خسائر فادحة في وسائط النقل من مركبات وحيوانات» ، نفس الكتاب ، الهامش الموجود عـلى الصفحة 148 .

جاءت التغييرات الدرامية العاصفة خلال تاريخ التاسع من نيسان عـام 2003 لتلغـي هـذه المنجزات التاريخية في جرة رصاص القصف وصواريخ التدمير والاستخدام الواسع للأسلحة غير التقليدية . وخطورة الغـزو الأمريكـي الصـهيوني البغـيض للعـراق العظـيم تنبـع أهـدافها السياسية ـ في بعض جوانبها ـ من مستنقع الرؤية الصهيونية ـ اليهودية المسجلة في خطة أودنـين حول مستقبل العراق التي أطلق عليها اِسم : إسرائيل في الثمانينات ، وهو ما تـرك تـأثيره الحـاد على مدينة الكفل بالذات ، سواء عبر شراء الأراضي أو سرقة بعض الآثار التاريخية الهامّة التـي تشكـِّل ذاكرة غالبية أبناء المدينة خصوصاً ، وغير ذلك ، بالإضافة إلى تأثيرها الشـديد عـلى كـل العراق الحديث والمعاصر ، الأمر الذي اِستفـَّز ذاكرة اِبن الكفـل : مؤلـِّف الكتـاب وراصـد أحداث المدينة والمندمج في تاريخها ، السيد عـامر هـادي الـذرب ، ودفعتـه التطـورات للـرد الموضوعي على بعض الذين يبالغون في أدوارهم المعرفية كونه على اِطـلاع متبحـر في شـؤون المدينة وتاريخها ، وهو المغرم في قراءة الكتب التاريخية والمحـتفظ بكـل مـا يتعلـق بالوثـائق الخاصة بالمدينة وفقاً لقدراته المالية وإمكانياته المادية وعلاقاته المعرفيـة بـالآخرين ، عـلاوة على ذاكرة مكتنزة بالمعارف ذات الشأن الهام في المواقع التاريخية، كون أسرته الأمينة على مرقد الكفل وسدنتها ، ناهيك عن أنَّ جده الحاج ذرب عباس كان أول مَنْ تصدى لليهـود وأخـرس ادعاءاتهم في الزمن العثماني ، وهي المعلومات التي أوردها عنها في هذا الكتاب الهام .

وإذا كان السيد الأديب والشاعر عبد الحسين الحيـدري قـد سـجل في مقدمتـه التـالي : «وكنت قد عرفت السيد (عامر هادي الذرب) مناضـلاً صـلباً في الحركـة الوطنيـة العراقيـة ، ودارساً لكتب التاريخ العربي الإسلامي ، وتاريخ الاستشراق يقرأ ويـتفحص ثـم يسـتنتج» ، لكنه قد أغفل ذكر جوانب هامة من حياته في المنفى التي تجاوزت الربـع قـرن ، فهـل اِفتقـر للمعلومات عنها أو أراد العبور عنها لسبب مـا ؟ وممـا لا شـك فيـه أنَّ متابعاتـه في كتـب التاريخ قد زادته وعياً ، وعليه ربما كانت تلك الخبرة المكتسبة منها قد أهلته للخـوض في المسائل الفكرية / التاريخية لشؤون منطقته المدينية .

لقد شبَّ الكاتب في المدينة التي كان يتحدثُ أهلـُها عن فعل أجداده المبهر في تعرضـهم للتطلعات اليهودية حول تحويل منطقة الكفل ، إلى منطقة خاصة بموروثهم الخـاص ، كـون النبي حزقيال مدفونًا في مدينة الكفل ، ولكن جده الكبير أحال أحلامهم إلى أضغاث أوهـام ، وهو ما نجده في تفاصيل الوقائع المضيئة في ثنايا الكتاب ، وربما أيضاً كان «للجينـات» التـي حملها عن أجداده وآبائه والمتوارثة فيه إضافة إلى معين ثقافي وافر وكبير ، دفعته لكي يخـوض لجة توضيح الحقائق التاريخية والاِجتماعية دفاعاً عن تراث المدينة وخصوصياتها بوجه أحد البروفيسارية الذين أطلق عليهم الأديب والشاعر الكبير عبد الحسين الحيدري : ديناصورات الثقافة ، من دون تهيب من الألقاب أو وجل من الأسـماء اللامعـة ، إذ أنَّ الحقيقـة التاريخيـة المجردة هي مقياس الرؤية الفكرية والنقدية وبوصلة شفرتها البتـّارة ونصلها الحاد الـذي لا يقاوم .

لقد تميزت هذه الدراسة التاريخية التي ضمتها كتابة السيد عامر هـادي الـذرب الـذي اِرتأيناه جديداً ووجيها بحكم رؤيته الناجمة عن المعايشة والمعرفة الثاقبة بأوضاع المنطقـة وسكانها ، وذلك من خلال :

أولاً : نجاحه في التوفيق بين الوقائع التي اِنطوت عليها جغرافيـة المكـان : مدينـة الكفـل ، والوعي التاريخي بأحداثها المتعاقبة منذ فجر التاريخ عبر الدراسة والمتابعـة والمعاينـة ، والتفاعل الإيجابي مع أبناء المنطقة ، والمتعلمين منهم خصوصاً ، ناهيك عن المثقفين في محافظة بابل ، نتبين ذلك في بحثه الدقيق والموثق والذي نجح عبره في متابعـة التطـورات والتقلبات ، سواء منها القديم أو الحديث أو المعاصر . ألا يدرك المرء عند قراءته للكتاب ـ على سبيل إيجاد الشاهد على هذا الاستخلاص ـ تلك اللمحة المبدعة في تتبع أسماء نهـر واحد يتفرع عن نهر الفرات : اِعتقد «أحد المثقفين الكبار» أنه يقع بـين سـوريا والعـراق ، فيما أوضح الكاتب أنه أحد تفرعات نهر الفرات ، (وهو نهر الكفل بالذات) ، ولكن اِسمه شهد تغييراً متواصلاً وتصحيفاً متتالياً : فمن نهر شبّر إلى نهر شبارو ومن ثم كبـارو ، وبعـد ذلك خابورة ، بينما ذهب غيره إلى إلقاء الأقوال جزافاً وعـلى غيـر هـدي تفكيـري ورشـد تحليلي ، وبناءً على قراءات مدرسية عامة !.

ثانياً : فيما يخص السرقات اليهودية من التراث العراقي ، تتبع الكاتب الذرب بصبر وأناة وبقراءة الأسفار اليهودية وما كُتب عنها ، ومقارنة كل ذلك بما توفر عنده من اِطلاع معرفي ومكون ثقافي ، فكشف عن السرقات الفكرية والمرويات التي تداولها المؤرخون اليهود ، على أنها من بنات أفكارهم وآرائهم ، فالطوفان ، ويوم السبت ، والنسب الإبراهيمي ، والوصايا العشر التي جاء نصها في شريعة حمورابي ، وأسطورة الخلق التي تمثلها صورة الغلاف القائلة : محاولة الحية إغواء حواء وشجرة النخيل بديلاً عن شجرة التفاح كما روت أساطير الأولين ، والتي لم يتطرق لها الباحث ولم يتناول دلالتها الفكرية والحضارية واِكتفى بعرضها على الملأ ، ربما خشية من ردود الفعل ـ كما أقدر ـ وهي جميعها من المعالم الأساسية للفكر العراقي والمقرونة بالوثائق ، قد سرقها أو تأثر بها التكوين الثقافي اليهودي بعد السبي البابلي حصراً وتحديداً ، وإقدام حزقيال الذي نشأ في مدينة الكفل على جعلها من الموروث الديني اليهودي ، هو الدليل الموثوق على ذلك ، فيما كانت هذه الأحداث والحوادث والوقائع متداولة عند العراقيين قبل أنْ يتبناها اليهود .

ثالثا : لم يتناول الكاتب بشيء من التفصيل ـ على أهمية هذا الموضوع ودقته ـ تأثر الدين اليهودي بالرؤية الثقافية والفلسفية الدينية الهلينية : الأفلاطونية ، إذ أنَّ هذه الرؤية الثقافية الفلسفية ، كما يذكر الكاتب عَرَضاً ، صار لها حضور في الساحة العراقية بعد الفتح المقدوني لبابل ، ومن خلال ذلك التأثر ، تم للدين اليهودي الاِنتقال من دين وضعي ودنيوي إلى دين سماوي أخروي ، أي أنَّ جرأته في الاِستنتاج والتقرير للحقائق التاريخية أوصلته أنَّ هذا الدين «كرؤية ثقافية وبعض ممارساته» هي رؤية عامة تم تجميعها من مصادر عدة ، وذلك لن يتأتي إلا لمن له اطلاع ثقافي واسع على المسائل التراثية .

رابعاً : نجح الكاتب السيد الذرب في أداء المهمة الأساسية التي خاض من أجلها النقاش مع الآخرين ، وهي إثبات أنَّ ذي الكفل الإسلامي : كنبي ، هو غير مَنْ حمل الاِسم ذاته ولكنه ينتمي لدينٍ غير الدين الإسلامي ، وإنَّ التاريخ ووقائعه المشرقة قد برهنت على التمايز بين شخصية ذي الكفل وشخصية حزقيال ، وأورد التفاصيل والشواهد لكي يؤكد أنَّ لكل منهما سلوكه ورؤيته وموقعه . وربما كان ذكره لقضية المطابع اليهودية ودورها في الحذف والإضافة دلالة على التزوير ، أولاً ، وإنَّ ما أورده الكاتب على لسان المؤرخ الإسلامي ياقوت الحموي ما يدل على تشكيكه بالروايات اليهودية ، ثانياً ، أبرز تلك المؤشرات على جرأة اِستنتاجه .

خامساً : الإِستنتاج الذي توصل إليه الباحث السيد عامر الذرب هو الذي يتمحور حول السرقات والسطو والتحريف اليهودي للكتب التاريخية الإسلامية شبه المسلَّم بها ، وهي تتجلى بشواهد عملية كثيرة تطرق إليها في ثنايا الكتاب : حول ما ذكره عن ياقوت الحموي ، كمثال على ما نقول ، كما تطرقنا إليه آنفًا .

لقد كان واضحاً ، وواضحاً جداً ، أنَّ الكاتب يتحدث من موقع المتفكر العارف بالتفاصيل والواثق والقدير ، والمتبصر ، بالموضوع المبحوث ، وقد نجم ذلك عن المعرفة التامة بجغرافية المكان ، اِعتماداً على المعايشة فيه والتماس المباشر مع أهاليه والمعرفة التامة مع أبنائه على مختلف مستوياتهم المعرفية وتتابع أجيالهم الزمنية .

ورغم أنَّ نواقص الكتاب ، في طبعته الأولى ، كانت كثيرة ، تبتديء من شكل كتابة الحرف ، وكثرة الأخطاء الطباعية الكثيرة ، وخلو بعض أجزائها من التواريخ ، والإخراج غير الجميل ، وتداخل بعض الموضوعات مع بعضها البعض ، وتكرار الأفكار والشواهد في الكتاب بحكم أنَّ موضوعاته كُتبت في فترات متباينة وفرضتها طبيعة النقاشات التي واكبت الأطروحات التي رأى فيها مغالطات تستحق الرد ، غير أنَّ المؤلف : السيد عامر هادي الذرب ، قد تمكن من تلافى بعض تلك النواقص من خلال البحوث التي شهدنا بعضها على مواقع الاِنترنيت ، فيما نأمل أنْ يتجاوز بعضها الآخر في الطبعة الثانية من هذا الكتاب الهام ، وعلى أية حال فإن الطبعة الثانية هذه نأمل لها أن تكون قد شملها التمام الكامل لها من حيث تلافي نواقصها .

وأخيراً، فإنَّ هذه الدراسة التي أضاف إليها الكاتب بحوثاً أخرى اِحتواها القسم الأول ، وبعضاً من المقدمة ، جاء في فترة زمنية هامة جداً ومرحلة تاريخية دقيقة ، وسدَّ فراغاً في المكتبة العلمية العراقية حتماً ، كونه يسلط فيه الأضواء على وقائع مفصلية في تجليات الصراع ما بين الوطن العراقي ، أولاً ، وأعدائه على اِختلاف نحلهم السياسية والفكرية والاِجتماعية ومكوناتهم العنصرية ، ثانياً ، لجدير بالقراءة والاِستيعاب العميقين ، لتحصين الذات الوطنية العراقية في مواجهة الغزاة الأجانب وأتباعهم ، والله من وراء القصد .

أواخر الشهر الثامن من عام 2010

باقر الصراف

مقدمة الطبعة الثالثة

كنت قد دعيت للمشاركة في المؤتمر الألفي الرابع لكلية التربية الأساسية لسنة 2011 في جامعة بابل . وقد وقع نظري على كتاب صدر توًا بعنوان «ذو الكفل أم حزقيال» لمؤلفه الأستاذ عامر هادي الذرب ، وبعد قراءتي لمداخلات وتعقيبات الأستاذ الذرب خيرت نفسي أن أشارك به في المؤتمر وقد نال الموضوع اهتمام واستحسان القائمون في المؤتمر .

صدر عن دار الفرات للثقافة والإعلام في الحلة كتابًا موسومًا (ذو الكفل أم حزقيال؟ رؤية جديدة) ، الطبعة الثانية وهو من تأليف الأستاذ المغترب عامر هادي الذرب يقع الكتاب في (220) صفحة من الحجم المتوسط ، وقسمه إلى ثلاثة أقسام واستعان بـ(30) مصدرًا سوى المواقع الإلكترونية (الإنترنت) وأرفق في نهايته صورًا جميلة لمنارتي الكفل (المقرنصة) والإسلامية ، وقبل الدخول في تفاصيل الأقسام الأربعة وما دوِّن فيها لابد لي من الإشادة بجهد المؤلف وسعيه الدؤوب في تسليط الضوء على تداعيات مدينة الكفل إجمالاً والمسجد ومرقد ذي الكفل بصورة خاصة فالمكتبة العربية بحاجة إلى بحوث كهذه ، لاسيما وأن المؤلف هو ابن تلك البلدة الصغيرة التي ترابط على حافة نهر الفرات منذ ما يزيد على أربعة آلاف سنة ومن بين الأسماء

العديدة التي أطلقت سابقًا : شوشة ، النخيلة ، القسونات ، بر ملاحة ، وكان هذا الاسم الأخير ملازمًا لها وبه عرفت لفترات طويلة ، وغيرها من الأسماء الأخرى التي من بينها التاجية نسبة إلى تاج الدين الآوي .

هذه الدراسة التي أضاف إليها الكاتب بحوثًا أخرى ورؤى جديدة تجعل القارئ في فضول تام ليستطلع خبايا الموضوع ، ومن المؤكد أنها جاءت في فترة زمنية هامة جدًا ومرحلة تاريخية دقيقة ، ليسد فراغًا في المكتبة العلمية العراقية والعربية حتمًا ، كونه يسلط الأضواء على وقائع مفصلية في تجليات الصراع ما بين الوطن العراقي ، أولاً ، وأعدائه على اختلاف نحلهم السياسية والفكرية والاجتماعية ومكوناتهم العنصرية ، ثانيًا: وهو جدير بالقراءة والاستيعاب العميقين، لتحصين الذات الوطنية العراقية في مواجهة الغزاة الأجانب وأتباعهم .

عند الخوض في الكتب التاريخية القديمة ، والتدقيق في المصادر الإسلامية ، نجد تضاربًا عجيبًا عند البعض من المؤرخين المسلمين ، وتبيانًا مريبًا عند البعض الآخر الذي لم يتفحص المعلومات ويوازن بينها ويقارن محتوياتها لفصل الحقيقة وتثبيتها ودحض الأوهام والأباطيل ، بخصوص النبي ذي الكفل رغم أنّ القرآن ذكره في آيتين ، والكتاب المقدس (التوراة) هو الكتاب المنزل والأوثق عند اليهود ، ويتناول بعض المؤرخين الأمور من منظار الحقيقة العينية الملموسة ، فتفرز الظاهرة ويميز تفصيلاتها ما بين النبي حزقيال ، من جهة ، والنبي ذو الكفل ، من جهة أخرى ، وذلك في قول : «أن حزقيال وإلياس وذا الكفل وأيوب كانوا بعد سليمان » النبي ، فيما نجد الفوضى تضرب أطنابها ويسود الاضطراب وتنتشر مفاهيم الضياع والتخبط عند آخرين ، بالإضافة إلى أن تلك السمات المتضاربة والمريبة قد طبعت بميسمها المتخبط موسوعة الأنبياء ، والموسوعة الإسلامية ، وقصص الأنبياء والرسل ، ومصادر أخرى ، تأخذ عنهم .

استهل الكتاب بمقدمتين تقدم بهما من عضد الكتاب فالأولى كانت بقلم الشاعر الذي أنجبته مدينة الكفل الأستاذ عبد الحسين الحيدري والثانية بقلم باقر الصراف وأعتقد أنه من الكتاب المغتربين .

فالحيدري يعرف الكاتب فيقول عنه : كنت قد عرفت السيد (عامر هادي الذرب) مناضلاً صلبًا في الحركة الوطنية العراقية ، ودارسًا لكتب التاريخ العربي الإسلامي ، وتاريخ الاستشراق يقرأ ويتفحص ثم يستنتج ، لقد شب الكاتب في المدينة التي كان يتحدث أهلها عن فعل أجداده المبهر في تعرضهم للتطلعات اليهودية حول تحويل منطقة الكفل خاصة بموروثهم كون النبي حزقيال مدفون فيها ، ولكن جده الكبير أحال أحلامهم إلى أضغاث أوهام ، وهو ما نجد تفاصيل الوقائع المضيئة في ثنايا الكتاب ، وربما أيضًا كان «للجينات» التي حملها عنهم والمتوارثة فيها إضافة إلى معين ثقافي وافر وكبير ، دفعته لكي يخوض لجة التوضيح .

في القسم الأول يستطرد الباحث في مقدمته التي عنوانها (ذو الكفل ليس حزقيال ..)، فيقول :

ذو الكفل النبي عند المسلمين، وهو من سلالة النبي إسماعيل بِكْر النبي إبراهيم، وإسماعيل هذا هو المَعين التاريخي الرابط للعرب المسلمين، والمغاير في كثير من الأحيان والسمات للمعين التاريخي الذي يجمع بين اليهود وبعض المسيحيين الذين يرتبطون بإسحاق بن إبراهيم، والمصادر الإسماعيلية لم تتعرض للتشويه والتزوير المتعمدين بذات المقدار الذي تعرض له الموروث التابع للديانتين، لاسيما ما حصل لكتاب التوراة : الكتاب المقدس عند الديانتين اليهودية والمسيحية، لذلك لم يكن للنبي ذي الكفل ذكرٌ في كتاب التوراة، إنما تم ذكره في القرآن الكريم، الكتاب المقدس عند المسلمين، الذي لم يتعرض للتزوير أو التشويه بنص إحدى الآيات القرآنية، والإهتمام الإستثنائي الذي حظي به عند جمعه في مرحلة مبكرة، في زمن الخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفان، وتضمنت الآيتان اللتان ذكرتا النبي ذو الكفل قول الله تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ۝٤٨ ﴾ ، سورة ص، الآية 48، أما الموقع الأخر لذكره قوله تعالى : ﴿ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝٨٥ ﴾ ، سورة الأنبياء، الآية 58.

الملاحظة هنا والجديرة بالإنتباه والتفكير هي مسألة إقران اِسم النبي ذي الكفل باِسم النبي إسماعيل في الآيتين أعلاه، والدلالة هنا تتعلق بطبيعة الرابطة البيلوجية بينهما، إذاً، فلا سبيلًا موضوعيًا يبرر الخلط بين ذي الكفل : النبي عند المسلمين، من ناحية، وحزقيال : النبي عند اليهود، من ناحية أخرى، ولكن – كما نعتقد – منبع الخلط بينهما، قد نجم عن كونهما مدفونين في مكان واحد ولهما مقام مشترك رغم أنَّ مرقدين متباينين يضمان قبرهما، الأمر الذي جعل البعض يقول : إنَّ ذي الكفل هو حزقيال ذاته، إنه خطأ تاريخي بيّن وبدلالة الكثير من الشواهد.

ورغم التباين الجذري، وعلى كل الصعد، بين الديانتين الإسلامية واليهودية في جوهر العقيدة وممارساتهما، فقد تم الإتفاق الضمني على أنْ يكون المرقد يحمل اِسم ذي الكفل الذي عجز أغلب المسلمين الأولين عن معرفة هويته، وتمييزه عن حزقيال : النبي عند اليهود، وذلك للأسباب الآتية :

أولاً : إنَّ التسمية الجديدة لحزقيال التي صار إليه من وجهة نظر البعض، باِسم ذي الكفل، قد أثلجت صدور المتدينين اليهود بسبب نابع من اِحترام المسلمين للأنبياء السابقين كلهم، ولحماية مرقد نبيهم كون المرقد يشغل مكان مقدس مشترك، إذ أنه [أي المكان وبالتالي المرقد] ليس خاصاً باليهود فقط، فيتجرأ البعض على المساس بحرمته لسبب ما.

ثانياً : أصبح المجال أمام اليهود مفتوحاً، ويتيح لهم بشكل يسير ويتسم بالسهولة للتجاوز على المساحة عبر القضم والضم والتوسع ومن خلال وسائل خبيثة تحاول تصوير الأمر على أنه إصلاح وبناء وترميم... إلى ما شاكل ذلك.

ثالثاً : ربما يكمن وراء نشر الروايات المضللة أو المزورة أو الموضوعة عقل منظم اِكتسب خبرات مضافة جراء التجارب والمحن التي مر بها اليهود من أسر وترحيل ونفي، فاِتسم على الدوام بالمكر والخديعة والدهاء يحاول من خلال هذا الطريق نشر مفسدة بما يزعم أنه مصلحة.

رابعاً : وأخيراً... فقد أصبح للمدينة حُلةً جديدة وإسم جديد يتمثل بمدينة الكفل نسبة لصاحب المرقد الذي سمي بـ«ذو الكفل»، وما ينطوي عليه ذلك التكوين المعماري الجديد، من رهبة ورغبة توفر ظروفاً أفضل لحماية المكان المشترك لمرقدي النبيين : ذو الكفل وحزقيال، بإنتظار تغيّر الأحوال والأزمان.

إنَّ الجديد الذي طرحه الباحث في هذه الدراسة هو محاولة فك الارتباط بين ذي الكفل النبي الإسماعيلي العربي ، من جهة ، وبين مزاعم القول حول النبي حزقيال اليهودي ، التي يتكاثر مروجوها في هذه الأيام من عمر الاحتلال الأمريكي الصهيوني للعراق والجديد الذي تحمله هذه الدراسة هو التوثيق لبعض الأسماء التاريخية القديمة لمدينة ذي الكفل كونها تخص هذه المدينة بالذات التي هي موضع اهتمامنا في هذه المحاولة قبل أي شيء آخر .

وفي بحثه يستشهد الباحث بالكتب السماوية الثلاث (القرآن والتوراة والإنجيل) محاولاً اقتناص المفردة التي تغنى بحثه ، ثم يفرد الباحث قسمًا عن دور العلامة المجاهد الإمام تاج الدين الآوي ولماذا تم تجاهله في التراث الإسلامي ، ويبين أسباب الحملة اليهودية التي أطاحت به وأردته قتيلاً في منطقة الحفرية قرب العزيزية جنوب بغداد ، ويستطرد في مكان آخر إلى واقعة الملا على الخيري مع الإدارة العثمانية وعلاقة الحاج ذرب عباس المالكي مع الخيري .

واختتم الذرب نشر تشابكه الفكري مع الأستاذ الدكتور عدنان الظاهر وإذ نحترم إبداء الرأي لكننا نرى أن ذلك لا موجب له فقد بدأ الكتاب بتحليل علمي ودقيق وانتهى بتشابك اتهامي لا مبرر له .. كتاب جدير بالقراءة والتأمل ومنه استعادة التاريخ ومداخلاته .نتمنى للأستاذ الذرب المزيد من الإصدارات والله من وراء القصد .

الأستاذ

عبد الرضا عوضي

«عند تطاول اليهود على منارة الكفل ، أمر الحاج ذرب بحبس رؤساء اليهود ، وأصدر تعليماته بأن يكون إرواؤهم من ماء البئر الموجود في صحن الجامع ـ الماء مج ـ عقاباً لهم على تطاولهم . . .

وبعد مرور فترة زمنية على اعتقالهم ، راح اليهود يتوسلون بالحاج ذرب للعفو عنهم ، مرددين التالي : اللّه يديمك يا ذرب ماي البير ما ينشرب .



يصح القول أنَّ التوراة أقرب ما يكون كتاباً بابلياً. إذ يتفق الباحثون على اقتباس التوراة للأمور التالية من الميراث العراقي القديم : (أسطورة خلق الكون والإنسان ـ جنة عدن والفردوس المفقود ـ الطوفان ونوح ـ قصة هابيل وقابيل ـ أصل الإنسان واللغات ـ طفولة سرجون وطفولة موسى ، العهد بين الرب والعبد ـ قوانين حمورابي والوصايا العشر ـ واقتبسوا تقاليد يوم السبت البابلي الذي كان يوم عطلة (سبوت وراحة) ـ نهاية الأسبوع عند العراقيين) . عن كتاب دراسات في التاريخ للأستاذ فريحة ، ص 171 .



وهكذا إنَّ بني إسرائيل وجدوا شرائع معدة ومهيئة فعملوا بها مسيرة حياتهم .

الأستاذ ووترمن ، عن كتاب العرب واليهود في التاريخ ، د . أحمد سوسة .



السبت في بابل : كان محظوراً على الناس أنْ يطبخوا يوم السبت وأنْ يغيروا ثيابهم وأنْ يقدموا ضحايا . كان محظوراً على الملك البابلي أن يكلم فيه الشعب وأنْ يركب فيه مركبة وأنْ يقوم بواجب عسكري أو مدني وأنْ يأخذ دواء .

كتاب نزهة العشاق في تاريخ يهود العراق ، ليوسف رزق اللّه غنيمة ، ص 63 .



□

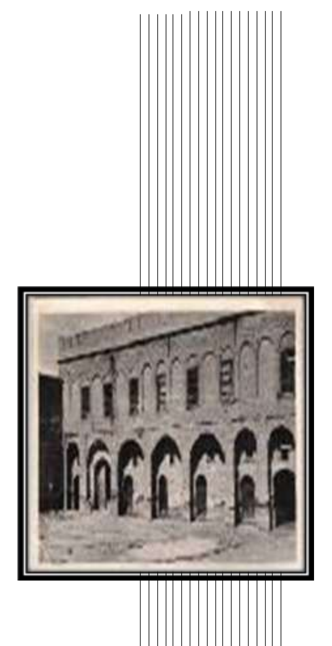
إنَّ المجمع المسكوني للفاتيكان الثاني (1962ـ1965) قد خفف بشدة في هذا التصلب وذلك بإدخال تحفظ على (أسفار العهد القديم) التي تحتوي على الشوائب وشيء من البطلان .

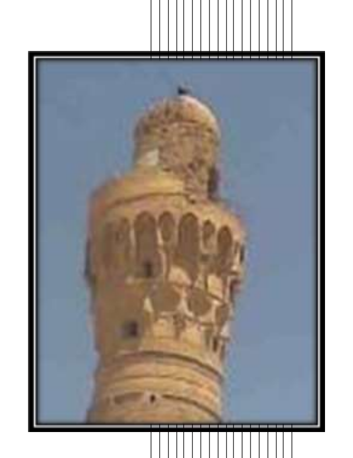
موريس بكاي ـ القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم .



(لقد أصبح الآن على وجه التأكيد أنَّ القصص العبرية المتعلقة بالخليقة والطوفان والجنة. . . إلخ ، إما أنْ تكون مأخوذة من السومريين مباشرة أو عن طريق الأكديين) .

أولبرايت ـ الشعب اليهودي قديماً وحديثاً ، (ج1 ، ص 29) .





القسم الأول



ذو الكفل ليس حزقيال ..
والتاريخ يشهد له

ذو الكفل النبي عند المسلمين ، وهو من سلالة النبي إسماعيل بِكْر النبي إبراهيم ، وإسماعيل هذا هو المَعين التاريخي الرابط للعرب المسلمين ، والمغاير في كثير من الأحيان والسمات للمَعين التاريخي الذي يجمع بين اليهود وبعض المسيحيين الذين يرتبطون بإسحاق بن إبراهيم ، والمصادر الإسماعيلية لم تتعرض للتشويه والتزوير المتعمدين بذات المقدار الذي تعرض له الموروث التابع للديانتين ، لاسيما ما حصل لكتاب التوراة : الكتاب المقدس عند الديانتين اليهودية والمسيحية ، لذلك لم يكن للنبي ذي الكفل ذكرٌ في كتاب التوراة ، إنما تم ذكره في القرآن الكريم ، الكتاب المقدس عند المسلمين ، الذي لم يتعرض للتزوير أو التشويه بنص إحدى الآيات القرآنية ، والاِهتمام الاِستثنائي الذي حظي به عند جمعه في مرحلة مبكرة ، في زمن الخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفان ، وتضمنت الآيتان اللتان ذكرتا النبي ذا الكفل قول الله تعالى التالي : ﴿ وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴿٤٨﴾ ﴾ ، [سورة ص ، الآية 48] ، أما الموقع الآخر لذكره فكان على الشكل التالي : ﴿ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ ، [سورة الأنبياء ، الآية 85] .

الملاحظة هنا والجديرة بالإِنتباه والتفكير هي مسألة إقران اِسم النبي ذي الكفل باِسم النبي إسماعيل في الآيتين أعلاه، والدلالة هنا تتعلق بطبيعة الرابطة البيولوجية بينهما، إذاً، فلا سبيل موضوعي يبرر الخلط بين ذي الكفل: النبي عند المسلمين، من ناحية، وحزقيال: النبي عند اليهود، من ناحية أخرى، ولكن ـ كما نعتقد ـ منبع الخلط بينهما خطأ تاريخي بَيِّنْ وبدلالة الكثير من الشواهد.

في تفسير القرطبي عن الترمذي يرد القول التالي: «ومما ينبغي التنبه له أنَّ ذا الكفل الذي ذكره القرآن، هو غير الكفل الذي ذُكر في الحديث الشريف، ونص الحديث الشريف، كما رواه الإمام أحمد منقولاً عن اِبن َعمر هو التالي :«كان الكفل من بني إسرائيل لا يتورع عن ذنب عمله، فأتته اِمرأة فأعطاها ستين ديناراً على أنْ يطأها، فلما قعد منها مقعد الرجل من اِمرأته، أرعدت وبكت، فقال لها، ما يبكيك؟ أكرهتك؟ قالت: لا، ولكن هذا عمل لم أعمله قط، وإنما حملتني عليه الحاجة . . . قال: فتفعلين هذا ولم تفعليه قط؟، ثم نزل عنها وقال لها: اِذهبي بالدنانير لك، ثم قال:

والله لا يعصي الكفلُ اللهَ أبداً، فمات في ليلته . . . فأصبح مكتوباً على باب قبره: غفر الله للكفل، من كل ذلك يستخلص الترمذي التالي وهو في معرض التأكيد: «فليس هو ذا الكفل المذكور في القرآن، وإنما لفظ الحديث الكفل من غير إضافة.

نستدل من هذا الحديث الشريف عند الوقوف أمام جملة من معانيه وملابساته: «كان الكفل من بني إسرائيل»، والحديث النبوي الشريف قد فرّق بين الكفل اليهودي وذي الكفل النبي المذكور في القرآن الكريم، وتأكيد الحديث النبوي الشريف على جملة: كان الكفل من بني إسرائيل، هو مبعث الخلط عند البعض وأساس الوهم لديه، لذا يمكن القول: إنَّ ورود هذا النص وعدم المتابعة في مختلف الروايات التاريخية وعدم الدقة في الشرح والتفسير، ناهيك عن القراءة المتعجلة التي بعضها تستند للفكر الاستشراقي، هو مكمن الخلط ودواعي الاِلتباس عند البعض الذي لم يميز بين ذي الكفل: النبي الإسماعيلي المذكور في القرآن الكريم، والنبي اليهودي حزقيال: نبي المنفى عند اليهود.

ورغم التباين الجذري ، وعلى كل الصُعُدْ ، بين الديانتين الإسلامية واليهودية في جوهر العقيدة وممارساتهما ، فقد تم الإِتفاق الضمني ، على أنْ يكون المرقد يحمل اِسم ذي الكفل الذي عجز أغلب المسلمين الأولين عن معرفة هويته ، وتمييزه عن حزقيال : النبي عند اليهود ، وذلك للأسباب الآتية :

أولاً : إنَّ التسمية الجديدة لحزقيال التي صارت إليه من وجهة نظر البعض ، بإسم ذي الكفل ، قد أثلجت صدور المتدينين اليهود بسبب نابع من اِحترام المسلمين للأنبياء السابقين كلهم ، ولحماية مرقد نبيهم كون المرقد يشغل مكان مقدس مشترك ، إذ أنه [أي المكان وبالتالي المرقد] ليس خاصاً .

ثانياً : أصبح المجال أمام اليهود مفتوحاً ، ويتيح لهم بشكل يسير ويتسم بسهولة التجاوز على المساحة عبر القضم والضم والتوسع ومن خلال وسائل خبيثة تحاول تصوير الأمر على أنه إصلاح .

ثالثاً : ربما يكمن وراء نشر الروايات المضلّلة أو المزورة أو الموضوعة عقل منظم اِكتسب خبرات مضافة جراء التجارب والمحن التي مر بها اليهود من أسر وترحيل ونفي ، فاِتسم على الدوام بالمكر .

رابعاً : وأخيراً . . . فقد أصبح للمدينة حُلةً جديدة واِسم جديد يتمثل بمدينة الكفل نسبة لصاحب المرقد الذي سمي بـ«ذي الكفل» ، وما ينطوي عليه ذلك التكوين المعماري الجديد ، من رهبة ورغبة توفران ظروفاً أفضل لحماية المكان المشترك لمرقدي النبيين : ذو الكفل وحزقيال ، باِنتظار تغير الأحوال والأزمان .

وحسب الرأي الحصيف الذي حاول تصحيح بعض المفاهيم ودحض بعض الآراء للباحث السيد محمد محمود هنيدي عند تقليب الحجج والرؤى الخاصة بهذا الصدد والمطروحة للملأ بغية نشر الأخطاء التاريخية وإشاعتها بين الناس ، فإنَّ رأيه يتسم بالوجاهة ، إذ يقول :«يعتقد بعض المسلمين أنَّ حزقيال هو ذو الكفل عندنا ، ولم يثبت لديَ ذلك» ، وفي أية حال ، فإنَّ تسمية المدينة بإسم الكفل تعد تسمية حديثة تقريباً ، وذلك قياساً إلى عمق المدينة التاريخي القديم ، والمنغرس في الماضي السحيق ، وعلينا إيراد بعض الأسماء التي تم تداولها في الماضي ، سواء في كتب التاريخ أو ما تناقله بعض الناس شفاهاً ، حسب قوة وجود «الحاكم» وسطوته وجبروته ، أو المقرونة بمركزه الديني ودوره المؤثر في محيطه أو تقديمه الخدمات الجليلة للسكان القاطنين فيها أو الدفاع عنها بوجه الغزاة .

ومن بين الأسماء العديدة التي أطـْلِقتْ سابقاً على المدينة هي الأسماء التالية : شوشة ، النخيلة ، القسونات ، بر ملاحة ، وكان هذا الإسم الأخير ملازماً لها وبه عـُرِفَتْ لفترات طويلة ، وغيرها من الأسماء الأخرى التي من بينها التاجية نسبة إلى السيد تاج الدين الآوي وإمارة مزيد في أربعينات القرن العشرين ، وإسمه الكامل مزيد هاتف الذرب [كان يردد تلك المعلومة / التسمية طيب الذكر ناظم كاظم العبد] ، ويقول الباحث السيد حسن الهنداوي التالي : لقد شاع الإسم الجديد : ذي الكفل «في أوائل العهد العثماني ، في حين ذكرها البلدانيون الرحالة بإسم «القسونات» ، وكان إسمها قبل الإسلام «بانِقيا» بكسر النون ، وسميت ـ كذلك ـ بـ«التاجية» نسبة إلى السيد تاج الدين الآوي ، الذي سنفرد له بحثاً خاصاً في أعقاب هذه الدراسة الذي حاول البعض نثر الغموض على سيرته العلمية / الدينية وتغييب مركزه السياسي وشطب دوره في بعض الفترات التاريخية .

عند الخوض في الكتب التاريخية القديمة ، والتدقيق في المصادر الإسلامية ، نجد تضارباً عجيباً عند البعض من المؤرخين المسلمين ، وتبايناً مريباً عند البعض الآخر الذي لم يتفحص المعلومات ويوازن بينها ويقارن محتوياتها لفصل الحقيقة وتثبيتها ودحض الأوهام والأباطيل ، بخصوص النبي ذي الكفل رغم أنَّ القرآن ذكره في آيتين ، كما قلنا سابقًا ، والكتاب المقدس هذا هو الكتاب المنزل والأوثق عندهم ، ولا نجد غير المسعودي : المؤرخ الجليل والنبيه يتناول الأمور من منظار الحقيقة العينية الملموسة ، فهو يفرز الظاهرة ويميز تفصيلاتها ما بين النبي حزقيال ، من جهة ، والنبي ذي الكفل ، من جهة أخرى ، وذلك في قوله التالي :

«إنَّ حزقيال والياس وذا الكفل وأيوب كانوا بعد سليمان» النبي ، فيما نجد الفوضى تضرب أطنابها ويسود الاِضطراب وتنتشر مفاهيم الضياع والتخبط عند كل من الثعالبي والترمذي واِبن كثير والكرماني والمجلسي ، بالإضافة إلى أن تلك السمات المتضاربة والمريبة قد طبعت بميسمها المتخبط موسوعة الأنبياء ، والموسوعة الإسلامية ، وقصص الأنبياء والرسل ، ومصادر أخرى ، تأخذ عنهم .

وتشير تلك المصادر إلى وجود خلافات في منظومة الروايات واِختلافات جوهرية حول اِسمه ، وسماته الشخصية ، وأيضاً في تقرير حقيقة نبوته من عدمها : [هل هو نبي أم رجل صالح ؟] ، علاوة على كل ذلك ، تسود أنواع من التكهنات الصارخة حول حقيقة اِسمه ، كما قيل بصدد النبي ذي الكفل ، فعلى سبيل المثال قيل أنَّ اِسمه هو : بشر بن أيوب جاء بعد حومل ، وقيل ذو الكفل هو نفسه ذو القرنين ، وقيل هو يهوذا بن يعقوب بن إسحاق : بِكر يعقوب ، وقيل اليسع عليه السلام قد اِستخلف ذا الكفل من بعده ، ويذكر الثعالبي في كتاب العرائس التالي « «قال بعضهم ذو الكفل بشر بن أيوب» ، كما رجح اِبن كثير في موسوعته التاريخية : البداية والنهاية ، إلى أنه نبي لأن اِسمه جاء مقروناً باِسم النبي إسماعيل في القرآن ، وقيل أنه سمي بذي الكفل لأنه تكفل اليهود بني قومه لدى القائد الملك نبو خذ نصر .

وجاء في بحار الأنوار للمجلسي ، وفي الجزئين الثالث عشر والرابع عشر ما فحواه «قال الفيروز آبادي : حزقيل أو حزقل كزبرج وزنيل اِسم نبي من الأنبياء وهو بالحاء المهملة والزاي المعجمة» ، وزعم المجلسي بأن ذا الكفل قد أحيا بقدرة الله سبعين ألف إنسان بعد أنْ كانوا قد توفوا بمرض الطاعون ، وهو خبر يتسم باللاعقلانية كما هي غالبية الأخبار التي يتداولها أو ينقلها «العلامة» المجلسي في بحاره الذي يحمل الغث والسمين بين طياته ، كما هو حال البحر الطبيعي .

إلا أنَّ هناك شبهَ إجماع يتسم بالشلل وعدم الدقة ، يفيد على أنَّ النبي ذا الكفل هو بشر بن أيوب ، والخبر هذا يأتي بشكل مكرر وعلى هذا النحو : «يقول أهل التاريخ هو بشر بن أيوب وسماه ذا الكفل ، وكان مقامه في الشام ، وأهل دمشق يتناقلون أنَّ له قبراً في جبل قاسيون» ، ولكن هذا الخبر متناقض مع كل الروايات الحصيفة التي مرَّ ذكرها ، التي قيل أنَّ ذا الكفل كان من الأنبياء ، فقد روى عبد العظيم الحسيني ذلك في كتاب «النبوة» ، أنه كتب إلى أبي جعفر الباقر : بن علي بن الحسين ، [ع] ، أسأله عن ذي الكفل وما اِسمه . . . ، إلخ ، فأجاب بالشكل التالي : «والظاهر أنه من الأنبياء ـ كما ذُكر آنفاً ـ لأنه جرى ذكره في سياق الحديث عن الأنبياء ، كإسماعيل وإدريس وذو النون وزكريا . . .» ، وقد وصفه الله ، كما وصف إسماعيل وإدريس ، بأنه من الصالحين ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ ، [سورة الأنبياء ، الآية رقم 86] ، وهذا هو الوصف الذي تكرر في القرآن المجيد ، الكتاب المقدس عند المسلمين ، في وصف بعض الأنبياء ، وبهذه العظمة وهذه النعوت المنصفة نختتم رؤيتنا حول نبي الله ذي الكفل عليه السلام .

وأجمل ما نزيد به اِختتامنا الحديث عن النبي ذي الكفل وبمناسبة الإستشهاد بالعلامة المجلسي ، هو إيراد رأي خاص لفقيد الإسلام المجتهد آية الله السيد محمد حسين فضل الله ، وهو المتبحر في دقائق الشؤون الإسلامية ومختلف أمورها الفكرية الشائكة ، نورده كونه يتجنب الخلط أو الحديث بروح المبالغة التي كانت عند البعض أو الإشارة إلى المكان / (المقام) ، علماً أنَّ هذا العالم الجليل الذي اِنتقل إلى جوار الملأ الأعلى قبل فترة وجيزة ، هو اِبن مدينة النجف الأشرف القريبة من مدينة الكفل ، قبل أنْ يكون لبنانياً ، بحكم ولادته ودراسته في المدارس العلمية الدينية هناك . . .

يقول السيد فضل الله عن ذي الكفل : « . . . قال البعض: إنه رجل صالح عاش حياته في صلاح من إيمانه بالله ، وتوحيده له ، ومن أخلاقه الحسنة التي كان ينفتح بها على ما يصلح أمور الناس في قضاء حاجاتهم وتخفيف آلامهم ، وتيسير أوضاعهم والإحسان إليهم والاِهتمام بقضاياهم وحل مشاكلهم ، إنه كان يصوم النهار ويقوم الليل في عبادته لله ، ويتسع صدره لمن يسيء إليه ، ويدرأ بالحسنة السيئة ، فلا يغضب ، ولا ينفعل ، ويعمل بالحق في كل مواقفه ـ ولكنه لم يكن نبياً حسب هذا الرأي ـ وهذا هو الذي قرَّبه لله ، فشكرَ له ورفع درجته ، حتى جعله في الدرجة الرفيعة عنده» .

وإذا تمعنا في ما يورده السيد المجتهد فضل الله من صفات وسمات تتعلق بالنبي ذي الكفل ، فإننا نرى تلك الصفات المطلوبة بمعايير السلوك الإسلامي المثالي ، كما هي صفات الرسول الأعظم ﷺ، وما جاء في نهج البلاغة للإمام علي بن أبي طالب ، من حث على ذلك السلوك القويم ، فهل كان السيد فضل الله يتخيل تلك السمات عند ذي الكفل ، أو هي حقاً من صفاته الثابتة ؟ .

الواحد العليم القهار هو الأفضل معرفة والمطلع على أسرار القلوب .

الإمام تاج الدين الآوي
لماذا تم تجاهله في التراث الإمامي

هو السـيد أبو الفضـل تـاج الـديـن الآوي الأفطـس . . . ينتهـي نسـبه إلى الإمـام زيـن العابدين علي بن الشهيد الحسين بن الإمام علي بن أبي طالب ، عليهم السلام ، كان العـالِم تاج الدين من الشخصيات الفاضلة الكريمة ، وعالم من مشاهير العلماء الأعلام المسلمين ، حازماً في قول الحـق المبـين ، قـوي الحجـة الدينيـة والعقليـة ، شـديد البيـان وصـريح الوضوح ، وُلِدَ وترعـرع في مدينـة الكفـل ، وذلـك في النصـف الأول مـن القـرن السـابع الهجري ، واِستشهد في العام 711 هجرية .

كان العالم الديني واعظا دينياً وعنصراً تنويرياً في مدينة الكفل ، كـرس دوره في مواجهـة الجهل ، ومحاربة التخلف والعادات السقيمة ، ودعا إلى نبْذ الفساد والاِنحراف بالتي هـي أحسن ، وذلك من خلال الخطابة المنبرية والأحاديث المباشرة والوعظ بضرورة السلوك القويم بين الناس ، والإرشاد لما ينبغي على الأتباع الصالحين ، لكـي يكسـب المـرء مـن خلال ذلك السلوك والسعادة في الدنيا والآخرة ، كان نهجه سلمياً خالصاً وسـلوكه خاليـاً من البدع والممارسات التي لم يقل بها الإسلام ، لذا سميت المدينة (مدينة الكفـل) خـلال فترة نشاطه بـ«شط التاجية» ، تيمنا بالإمام العالم تاج الدين ، واِعترافاً من أهل المدينة بسلوكه الصالح في تلك الفترة ، والإسلام بطبيعة الحال يحث على العمل الصالح ، بل الإمام علي بن أبي طالب ، [ع] ، كثف مفهوم الإسلام الحقيقي : بالعمل الصالح .

لقد طبقت شهرته الآفاق في المنطقة الوسطى من العراق ، للدرجة التي اِعتقد به السلطان المغولي أولجايتمو محمد المعروف بـ[خدابندة] ، فسلمه مهمة الإشراف على نقابة الممالك كلها وفي جميع مراكز السلطنة ، العراق ، فارس ، خراسان ، وتمكن العلامة السيد تاج الدين مستثمراً علاقته الجيدة مع أولى الأمر ، من التقريب بين العلامة الحلي ، من ناحية ، والسلطان المغولي ، من ناحية أخرى ، ولما كانت أسوار المسجد الجامع [النخيلة] لا زالت قائمة في تلك الفترة ، فقد توكل السيد تاج الدين في بناء منبر وتأسيس محراب في المسجد ، وذلك في المكان الذي كان يخطب منه الإمام علي بن أبي طالب [ع] أثناء حرب صفين ضد جيش معاوية بن أبي سفيان .

وقد اِلتزم السيد تاج الدين بالممارسات الإسلامية التي ورد النص فيها في القرآن الكريم ، فأقام صلاة الجمعة والجماعة رافضاً العزوف عن ممارسة هذا الواجب بذرائع مختلفة ، من قبيل لا يجوز إقامة صلاة الجماعة بغياب الإمام المعصوم ، وهو ما كان دارجاً عند بعض الفئات الإسلامية ، كما تمكن من إصدار قرار تم بموجبه منع اليهود من المرور عبر المسجد حفاظاً على طهارة المكان ، وأشار عليهم بضرورة اِستخدام الباب الغربي للمقام وهو المدخل الأساسي لمرقد النبي حزقيال .

الأمر الذي حرَّك الحقد اليهودي وأنشب الغل والضغينة في قلوب مَن أصيبوا بمرض التعصب ، فقاموا وبالتنسيق مع الوزير شهاب الدين الطبيب المعروف بـ[رشيد لبدين] المقرب جداً من اليهود وعبر أدواتهم الرخيصة من المقربين للسيد تاج الدين وبعض أقربائه . . . حرَّكهم كل ذلك لتنفيذ غاياتهم البشعة والمريضة ، واليهود هم في الظل يعملون وبالخفاء يتسترون كالعادة ، لذلك عملوا على التخطيط الدقيق لكي يُقتل السيد تاج الدين بأيادي علوية من ذات العائلة ، لكي تبدو للمراقب القريب أو البعيد أنها مجرد عملية تصفية حسابات تتعلق بالصراع العلوي على بعض المناصب ، والتنافس من أجل الحصول على بعض الوظائف ، ولكن الهدف الحقيقي الكامن وراء سلوكهم المخاتل ذاك ، هو تجنب غضب السلطان وتحاشياً من اِحتمال بطشه ضد قاتليه الحقيقيين .

لقد تحرّك الوزير المتهود لتنفيذ المخطط المرسوم عند دوائر المال اليهـودي ، وأخـذ يعرض على بعض السادة العلـويين منصـب النقابـة المشـار إليـه أعـلاه ، مشـترطاً البـدء بالتخلص حياتياً من وجود السيد تاج الدين وولديه ، مستغلاً «حقيقة» إسراف أحـد أولاد السيد تاج الدين من خلال اِستغلال السلطة ، ولكن الكثير مـن السـادة العلـويين رفضـوا القيام بهذه المهمة القذرة .

ولكن الأمر لا يخلو من ضعاف النفوس حتى في داخل هـذا النسـب العلـوي الشـريف ، أليس ما جرى من مواقف عم الرسول محمد ـ ص ـ : أبو لهب وزوجته حمالة الحطب خيـر، مثال على تكرار الحوادث المماثلة في التاريخ ؟ فكان هذا العنصر «العلوي» هو السيد جـلال الدين إبراهيم الذي قبل هذا العرض اليهودي ورضي أنْ يقْدِم على تنفيذ تلك الخطة الإجرامية التي رسموها للتخلص من عنصر الخير الكفلاوي ، الملتزم بجوهر الدين الإسلامي الحنيف ، وبمساعدة شرطة الوزير ، تم إخراج السيد تاج الدين وولديه :شرف الدين وشـمس الـدين من منطقة مدينة الكفل وإبعاده إلى منطقة نائية عنها تقع شرق دجلـة وعـلى وجـه التحديـد في واسط ، وأقدم المجرمون على تنفيذ بنود غدرهم الآثم ، فقتلوا ولديه أمامه ، مثلما يرتكب أي جبان جريمته بخسة الغدر ونذالة الموقف ، الأمر الذي يذكرنا بالبيت الشعري الـذي أبدعـه الشاعر أبو الطيب المتنبي الذي قال :

إذا ما خلا الجبان بأرضٍ   طلب الطعان وحده والنزالا

ثم قتلوا الأب بشناعة منقطعة النظير ومثلوا به ، في تعبير عن غل متأصل وتشفٍ عميـق ، وذلك بشروط يهودية وأيادٍ علوية النسب ، وبعيداً عن أية معايير أخلاقية .

وهذه المثلبة العلوية التي اِنتشرت بشكلٍ واسع آنذاك ، وتركت للشـهيد مـزاراً في منطقـة الكوت ، هي التي حالت دون أخذ حدث الإستشهاد التغطية الكبـرى لفقـدان رجـل عظـيم الشأن وكبير المقام عند عامة المسلمين ، جاهـد باللسـان والموقـف مـن أجـل نصـرة غـرة الإسلام والدفاع عن قيمه المبدئيـة ، وكـان حريـاً أنْ يُقـرَن اِستشـهاده بِاستشـهاد العـالمين الجليلين الحلاج والسهروردي ، ويقال عن السيد تـاج الـدين أن الفقيـد هـو ثالـث اِثنـين ، فيصبحون ثلاثة أعلام في التراث العربي الإسلامي : الحلاج والسهروردي وتاج الدين ! .

فمَنْ منا مَنْ لا يعرف ظروف وملابسات اِستشهاد الحلاج وقتله وحرقه وذر رماد جسده في نهر دجلة وسط بغداد ؟

وكذلك ، مَنْ هو المتابع للتراث العربي الإسلامي ، مَنْ لا يعرف عملية التآمر المحبوكة لقتل شيخ المتصوفة السهروردي ؟

لقد زعم الحكام الجائرون أنَّ قتلهما : الحلاج والسهروردي ، كان بسبب إحداثهم في الدين ما يخالف نصوصه ، وفق رأي جماعة الرايخ من «العلماء» المرتبطين بهوى الحكام والتاركين للسنن الإسلامية الحقيقية التي جوهرها العدل والحق والتوحيد .

والسؤال الشاخص يتمحور حول السبب الكامن وراء التعتيم المطبِق والتام على حادثة اِغتيال الشهيد تاج الدين ؟ أيكمن السبب في أنَّ عملية الغدر به وقتلهَ وولديه بتلك الصورة المفجعة ، كون اليهود وراءها ، وهم الذين تستروا عليها وغيبوها عن الوقائع التاريخية المجيدة التي شهدت له تمكنه الديني والمعرفي ؟ ! .

لقد تم اِغتيال السيد تاج الدين : الشخصية المحبوبة عند كل المسلمين بإرادة يهودية وتخطيط يهودي وتمويل يهودي ، أما الوسيلة التآمرية المجرمة التي تم اِختيارها للتنفيذ فقد لبست اللبوس العلوية المزيفة ، فقد أعماها الطمع ودفعها الحقد ، وكانت الخناجر التي تم طعنه فيها ، فقد كانت تعود ملكيتها لبعض الأسر العلوية التي شحنها الحقد وتمترس اللؤم في صدورها ، فكان فيض الحقد المتفجر من غير حدود ، وقبلت تلك النفوس الضعيفة الوضيعة تنفيذ عملية يهودية من بابها إلى محرابها ، فاِستحق أولئك الأدوات لعنة التاريخ على مدى الأعوام والأيام .

لو كان السيد تاج الدين قد ساهم في نشر بدع دينية أو مذهبية أو عمل على الترويج لنزوع طائفي مقيت من شأنه أنْ يؤدي إلى التفتيت الاِجتماعي والتمزق السكاني الفظيع ، والاِقتتال الدموي ما بين أبناء الدين الإسلامي الواحد ، لسما اِسمه في عالم العلماء الأجلاء ، وسطع نجمه في المجتمع العراقي كله ، وبالتالي دخل التاريخ من ألف باب وباب ، ولكن السيد المصلح الاِجتماعي والموحد للصفوف ، والمحارب لمن يحاول ذر قرون الفرقة ونشر البدع الكريهة . . . فاِستحق هذا الحقد اليهودي وذلك الغل عند البعض ، وما يزال هذا البعض يعمل على تناسيه ويعمل على تكريس الغفلة عن أعماله الموحدة في صلاة الجماعة المشتركة ـ على سبيل المثال ـ وينثر غبار التضليل حول ذكراه العطرة .

ورغم أنَّ هذا الحدث الجلل الذي أودى بحياة عالم ديني عظيم ، لم يمر مرور الكرام كما هي العادة لدى البعض ممن تأكل نفوسهم الأحقاد الطائفية ، وتستعر نيران كره الآخرين في قلوبهم المريضة ، فإنَّ السلطان المغولي غضب أشد الغضب على فقدان هذا العالم الجليل ، وتأثر بشكلٍ كبير بذلك المصاب وعزم على القصاص العادل من جميع القتلة : مخططين ومنفذين وشامتين ، ونكل باليهود خصوصاً لكونه قد اِكتشف أنهم يقفون وراء تلك المأساة التي تركت جرحاً عميقاً في عموم السلطنة ، وعزم على تخليد ذكراه بإقامة بناء المأذنة ليزدان المسجد بمنارته ومحرابه ومنبره ، وهو الأمر الذي جعل المنارة أثراً خالداً يذكِّر بالدماء الطاهرة للسيد تاج الدين التي جُبِلَت بهذا البناء الشامخ ، لقد تم اِغتيال السيد تاج الدين في العام 711 هجرية ، وتم الإِنتهاء من بناء المنارة وتشييدها عام 716 ، ولكنها ما تزال شامخة بفضل مَنْ تعهد رعايتها وصانها من تطاول اليهود ، ودافع عنها في الملمات التي حدثت في القرن الأسبق ، والذي برز فيها منافحاً عن المسجد الحاج ذرب بن عباس .

نعيد القول : إنَّ أسوار مسجد النخيلة لازالت عامرة والسيد تاج الدين أضاف المنبر والمحراب له ، والمسجد يحتوي على بئر كبير يقع بالقرب من الحائط الغربي ، وقد تم حفر البئر الكبير في ذلك المسجد لتلبية حاجات معسكر المصلين في حرب صفين ، وليس البئر هو مجرد بئر بمقاسات مدينة صغيرة كالكفل ، وإنما كان يتسع لإِستخدام الماء من قبل مقاتلي معسكر صفين ، والبئر قد بنيت بموقع محاذٍ تماماً لمرقد حزقيال النبي اليهودي .

لذلك يجب الإشارة إلى أنَّ المساحة الفعلية لمرقد النبي حزقيال لا تعدو المساحة التي تعلوها القبة المخروطية المشرفة على الباب الغربي للمرقد ، لجهة القدس ، أولاً . . . وعلى مقربة من مجرى نهر الفرات ، والمكان الذي ترسو عنده السفن الصغيرة ، وكذلك بالقرب من المنطقة التي يتدفق منها الزائرون الكرام .

وفيما يلي المخطط الحالي لمرقد النبي حزقيال ، وتبيان الكيفية التي تمَّ عبرها التوسع في البناء وكذلك ضم الجامع «النخيلة» لمجموع البناء والتوسع القادم .

وعلى كل حصيف ولبيب يتميز بالحرص الوطني والديني والأخلاقي أنْ يتمعن في المخطط التالي :



أما بخصوص البئر الكبير ذي المياه المالحة : (أي المجة وفق التعبير الكفلاوي) فقد تم ردمها في العقد السبعيني من القرن الماضي : القرن العشرين ، والذي أخذت المدينة اِسمها منه في بعض المراحل التاريخية والفترات الزمنية ، والاِسم هو بر ملاحة كما هو معروف أثر التصحيف له ، فقد تم إلحاقه بالمدينة بالاِستناد إلى الملوحة الحادة في مياه هذه البئر ، وجاء الاِسم [بر ملاحة] بعد إهمال المسجد بسبب توقف حرب صفين ، وإهمال السلطة الأموية للمنطقة ، ليتحول إلى مجرد خانات يقطنها المسافرون والزائرون المتنقلون ، ومكانا لراحة القوافل التي تتنقل باِستخدام الجمال ، ما بين الكوفة والحلة ، لاسيما وأنَّ منطقة الكفل قد تحولت إلى مركز استراحة لقاصدي وزوار مرقد الإمام علي بن أبي طالب ، [ع] ، بمدينة النجف الأشرف ، خلال منتصف القرن الثاني الهجري ، وما بعده كذلك .

وبر ملاحة الاِسم الأكثر اِلتصاقاً بالمدينة ، وذلك لشيوع اِستعماله عند الناس والمارة ، ولكونه أيضاً قد تكرر عند البلدانيين الذين اِهتموا بتسجيل الوقائع الجغرافية أثناء كتاباتهم في بحوثهم أو رصدهم للمشاهد خلال رحلاتهم المختلفة : ياقوت الحموي ، واِبن بطوطة وغيرهما . ولم يكن اِسم [بر ملاحة] بفتح الباء ، كما أشار إلى ذلك ياقوت الحموي في اِجتهادٍ له حول معنى بر ملاحة الذي نعتقد أنه جانب الصواب وخالف التفسير الحقيقي لصالح اِفتراضات غير صحيحة ، كون البئر وملوحة مياهه هو السبب الأساسي في التسمية .

إنّ البئر ـ مثلما قلنا سابقاً ـ تقع بالقرب من الحائط الغربي للمسجد [النخيلة] ، والتي أخِذَ منها الاِسم «الجديد» للمدينة بعد أنْ كان اِسم مدينة الكفل المعروف والمتداول به إبّان الفتح العربي الإسلامي ، وقبله أيضاً ، هو اِسم [بانقيا] بكسر النون ، كونها إحدى النواحي القريبة من الكوفة والتي تقع على شط الفرات «بانِقيا مدينة على شاطيء الفرات من نواحي الكوفة»، كما تذكر ذلك بعض المصادر التي من بينها : [مراصد الاِطلاع ، نهج البلاغة ، الجزء الرابع ، ص 98] ، وذلك قبل أنْ تأخذ المدينة اِسم منطقة النخيلة ، وبعد هذا الاِسم تُعْرَف باِسم [بئر ملاح] ، أو بر ملاح .

أما الحديث التوضيحي حول القبور الخمسة المجاورة للنبي حزقيـال ، والتـي تضـم أجداث يوسف الربان ، يوشع ، يوضا ، عزرا ، وبارخ ـ كما قيل ـ على أنهـم كتبـة التلمـود البابلي ، وفقاً لما جاء في معجم البلدان لياقوت الحموي ، فإننا نعتقد أنَّ هذه القبور محدثة ، وربما تكون خاوية ، ويكمن السبب الحقيقـي لوجودهـا والتفسـير المرفـق بهـا ، كونهـا وضعت فوق أسـاس المسـجد الجنوبي للجامع تماماً ، بغية القول أنَّ البنـاء كـان ـ ومـا يزال ـ يهودياً ، ومن المحتمل جداً أنْ يكون عمر هذه القبور مقارباً لفترة عمـر المنشـئات التي رافقت عمليات التوسيع في مدينة الكفل ، بغية بناء الخانات والسوق الخـاص فيهـا ، فهي إذاً : إدعاءات وأقوال العامة من اليهود وبعض سادتهم ممـن حـاولوا تزويـر التـاريخ وتغييب معالمه الأساسية والحقيقية :

ولنا دلالة معاصرة على هذا السلوك التزويري في مجال التاريخ ، إذ ذكرت جريدة الأيام الفلسطينية الصادرة بتاريخ 25 / 5 / 2012 التي أوضحت أنه جرى قبـل فتـرة وجيـزة ، بناء المزيد من القبور الوهمية حول المسجد الأقصى في الآونة الأخيرة ، لقبور شخصـيات وهمية ، لكي يقال عنهـا إنهـا شخصـيات تاريخيـة إقتـرن فعلهـا بتـاريخ اليهـود القـديم ، [ملاحظة : أضيفت هذه الدلالة لاحقاً في الطبعة الأخيرة للكتاب] .

أما بخصوص الحديث عن قبر بارخ والـذي يـذكر عنـه الباحـث يوسـف رزق غنيمـة «بِاعتباره قبراً لا يبعد عن قبر حزقيال إلا ميلاً واحداً» ، [نقلاً عن كتاب نزهة المشتاق . . . ص 245] ، فمن الواضح أنه متناقض مع ما سبق أعلاه ، لاسيما وأنَّ ياقوت الحموي قـد أورد نصاً غريباً لا يأتلف مع كتاباته المتبحرة السابقة ، والذي يقول فيه :«برملاحـة موقـع في أرض بابل بها قبر بارخ وقبر يوسف الربان وقبر يوشع وقبر عزرا ، وقبر حزقيال» ، فإنـه نص مرتبك وغريب عن أسلوب الرحالـة والمؤرخ الحموي ، إذ يقدم خلاله المهـم مـن صناع الأحداث على الأهم في التاريخ ، بحيث ذكر النبي حزقيال صاحب الشأن والمكـان تالياً عن أولئك الأسماء وهو ما يخالف الشأن والمكان المقرون بِاسمه في المقام الأخير ، وهذا الإيراد في الحقيقة مناقض تماماً لأسلوب الحموي في الكتابـة وطريقـة الرصـد عنـد نقله أخبار الرحلات وما صادفه من أحداث وأسـماء ومواقع ، ولم تكن طـريقته في الكتابة هكذا ، ولم يكن ذلك أسلوبه في الرصد ، وإلا لغابت معالم كثيرة ونُسيت أسماء مدن عديدة ، وجرى تجاهل تواريخ محددة لأمم مشهورة أو غير مشهورة .

إننا نعتقد أنَّ هذه النصوص التاريخية أو هذا النص التاريخي على وجه الدقة والتحديد ، هو نص دخيل ومدسوس على كتبنا التاريخية ، وذلك بغية إضفاء صفات القـدِم الزمنـي على بعض المواقع والحديث عنها بمنطق العلماء الآثـاريين ، فهـو نـص يهـودي موسـوم بالتزوير ، وجـرى كتابتـه لاحقـاً ، كـون المـراد منـه ، أرشـفة أحـداث تاريخيـة مزعومـة لأصحاب قبور على أنهم رموز حقيقية للدين اليهودي ، في حين أنَّ الكل يعلم أنهم دخلـوا في غياهب العدم وتم تسجيلهم في سجل النسيان التاريخي الذي شبك التراب على ذكراهم ، خصوصاً والنص المذكور ينتهي إلى ذكر دورهـم ، بـأنهم مجـرد كتبـة التلمـود البـابلي ، و«موثقة» بلسان مصادر إسلامية ، وهو ما يتيح القول والإستنتاج بأنَّ هناك دخول يهـودي على كتاباتنا التاريخية .

ومن السهل جداً أو ليس من المستبعد عند اليهـود ـ عـلى سـبيل المثـال ـ مـن طبـع موسوعة معجـم البلدان في دولـة مثل تونس أو مصـر أو لبنان ، مع إضافة فقرة أو فقـرتين أو عدة سطور إلى النص القديم ، بغية تنفيذ غايـاتهم «المعرفيـة» و«التاريخيـة» والحـديث عنها بالمنطق التوثيقي لاحقاً ، علماً أنَّ البعض من اليهود كان يمتلك المطـابع الكبيـرة في بعض الدول العربية والأجنبية ، وفي بغداد كانت أول مطبعة تعود ملكيتها لليهود وذلك في العام 1843 ميلادية ، علاوة على أنَّ الحاخام شلومو بنجور كان يمتلك مطبعته الخاصة ، وذلك في العام 1904 ميلادية .

حزقيال ذلك النبي المتفرد في انعزاليته مَن هو؟ ما هي آراؤه؟ سَفَر في سِفر حزقيال

«اِضربوا لا تشفق أعينكم ولا تعفوا الشيخ والشاب والعذراء والطفل والنساء ، أقتلوا للهلاك»

سِفر حزقيال – الإصحاح 96

هو حزقيال بن بوزي ، ويعّد في الديانة اليهودية أحد الأنبياء الأربعة الكبار ، وُلِد ـ كما يُعتقد ـ سنة 623 قبل الميلاد في أورشليم القدس ، وترعرع فيها حتى سن مبكرة من عمره ، وعاش في بيئة متدينة ، إذ كان أبوه :بوزي كاهناً من سلالة الصدوقيين . واِسم حزقيال يعني قوة الله أو القوي بالله ، عند تقطيع الاِسم ، فكلمة إيل تعني الإله .

والمعروف أنَّ حزقيال قد تم أسره في عام 586 [ق . م] في خضم حملات القائد العسكري نبوخذ نصر ، غير أنَّ بعض المصادر تؤكد أنه أَسِر عام 589 [ق . م] ، أي بعد أسر النبي دانيال بثمانِ سنين ، وكان حزقيال آنذاك يبلغ من العمر زهاء الثلاثين عاماً . أما عن نبوءته فقد كانت في السنة الخامسة التي أعقبت أسره ، وكان آنذاك مقيماً في مدينة بابل ، وعلى أحد ضفاف فروع نهر الفرات ، الفرع المعروف بنهر الخابور ، «نهر شبّر أو نهر شبارو أو نهر كبارو ، وعبر الترجمات المختلفة والمتعاقبة غدا الاِسم نهر الخابور ، ونتعرض لهذا الجذر والخلط في الأسماء في هذا الموضوع المحدد ، تمييزاً عن الاِسم المتداول حالياً في سورية والعراق باِسم نهر الخابور لاسم نهر الفرات في منطقة الشمال الشرقي السوري .

وعلى وجه الحصر كان حزقيال يعيش في مدينة «تل أبيب» البابلية : مدينة الكفل الحالية ، وهذا الاِسم : تل أبيب ، يرجع في تكوينه إلى العهد الآشوري : تل أبيبو ، ومعناه تل الفيضان ، وليس تل السنبلة كما يزعم اليهود في كتاباتهم ، وكان «النبي حزقيال يعيش في بابل وحيداً في مدينته تل أبيب العراقية بين عام 593 إلى 571 قبل الميلاد» ، وفق ما ذكره السيد بكاي ، ص 18 ، فيما يؤكد أحد المواقع الإلكترونية المعروف بإسم موقع حرّاس العقيدة ، بالقول التالي : «عاش حزقيال مع المسبيين على نهر الخابور ، وهو قناة في أرض بابل ، وربما كان في تل أبيب البابلية» .

واِستغرقت مدة نبوته قرابة 22 عاماً ، وقد عاصر النبي آرميا ، المعرف بآرميا الصادق ، نظراً لتميزه بصفات التقوى والخشوع والاِنفتاح على الأقوام الأخرى ، لاسيما سكان البلاد الأصليين ، وعُرف النبي آرميا بالنبي البَكّاء لكثرة مراثيه لقومه اليهود .

ولم يكن النبي حزقيال مكملاً لنبوءة النبي آرميا ، بل كانا على طرفي نقيض في التوجه والرأي ، فقد كان النبي آرميا الصادق داعياً للخير والرشاد والتسامي والتسامح . في حين كان النبي حزقيال قد أسرف في ملء تعاليمه بمفاهيم التعصب وبالغ في الوعد والوعيد ، وأوغل بالتوبيخ سعياً إلى أدلجة الدين اليهودي ، بحيث أدى به إلى جعله مجرد داعية تعاليم «قومية : أو بالأصح عنصرية» ضد الآخر ، الأمر الذي جعلَ كلَ مناوئيه يبغضونه ويخططون لقتله كونهم مستفيدين من أفكار حالة الاِندماج والاِنصهار في الحضارة البابلية ، إذ أوصله تعصبه إلى تقديم حياته ثمن تلك المغالاة العنصرية ، حيث أنَّ أفكار ورؤى حزقيال في التشدد والتعصب «القومي/ الديني» قد شاعت على أيدي بعض مريديه من أمثال دانيال ونحميا وعزرا الكاتب ، وهم الجيل الذي عمل حزقيال على إعداده تربوياً نحو الغاية الكبرى ، كما تَصوَرها حزقيال ، لاِستثمار التطورات القادمة في المرحلة التالية ، والمحتملة في المستقبل ، وهو ما حدث تالياً حين تم اِحتلال بابل على يد الفرس ، وقد كانت مفاهيم الخيال ومختلف الأساطير المنتشرة في التراث البابلي والسومري وسيلته لخلق تاريخ ومعتقدات وأمجاد وهمية ، وعمل على ربطها بالتاريخ اليهودي

.

ومن الأفكار الجديدة والمفاهيم التي بشّر بها النبي حزقيال مفهوم «شعب الله المختار» وكان ذلك أدق وأقسى حالة عنصرية طبعت التاريخ اليهودي ، وقد عانت من هذا المفهوم البشرية كلها ، ومن تجليات الأفعال الناجمة عنه ، وعن هذه الأفكار العنصرية البغيضة ، وإذا أخذنا بنظر الإعتبار موجبات تلك الفترة التي تميزت بالنفي والتشتيت المقصود الذي حصل لليهود الذين تم سبيهم ، ينبغي القول أنّ أفكار حزقيال ربما كانت موائِمة لطبيعة ملابسات تلك الفترة ، والمحن التي شهدها اليهود ، خصوصاً وأنه كان على دراية تامة ـ كما يبدو ـ لما حدث ليهود إسرائيل في شمال فلسطين على يد الملك الآشوري سرجون في العام 721 [ق . م] ، حيث تم أسر أعداد من اليهود بلغت أعدادهم ما بين 150 و 200 ألف يهودي ، وكذلك في حملة سنحاريب والحملة المماثلة لها التي قادها أسرحدون الذي أسر منسي : ملك اليهود ، وأرسله إلى بابل مكبلاً بالقيود في العام 672 [ق . م].

وهذه الأعداد الغفيرة من الأسرى من يهود إسرائيل قد تلاشوا من الوجود ، إذ ذهبت بهم الدواهي على حد قول اليهود ، أي أنهم ذابوا وتفتتوا بالإنصهار والإندماج في المجتمع الآشوري البابلي ، علماً أن هؤلاء الأسري الذين ذابوا قد شكلوا عشرة أسباط من أصل اِثني عشر سبطاً من أسباط بني إسرائيل ، {أو اِثنتا عشرة قبيلة وتبقت منهم قبيلتين : سبطين} .

لقد تمحورت أفكار النبي حزقيال في تدارك تكرار مصير اليهود السابقين في الإنصهار مرة أخرى ، إذ واجه حزقيال هذا المد العارم في الإقبال على الإنسلاخ من تكوينهم الإجتماعي والإندماج مع المجتمع الذي إستوعبهم ، بما فيه من المغريات التي قدمتها الحضارة البابلية للأسرى اليهود . . . واجهها بروح الإنطواء والتعصب والإبتعاد عن أي إرتباط بالمجتمع الأوسع ، ورَفْض كل المغريات المقدَّمة لليهود ، وهو ما عدّت دعوته تلك ، الأفكار الجنينية لولادة مفهوم الغيتو : أي سيادة مفاهيم الحقد وسيطرة ثقافة الكراهية . . . ثقافة كراهية العشيرة الشريرة ، على حد قول النبي آرميا الصادق .

لقد خلقَ حزقيال ل«لعشيرة الشريرة» البطولات و الأمجاد السالفة الوهمية ، وتمكن تراثه الفكري ـ بالتالي ـ من لملمة شعث اليهود التائهين في معتقداتهم الدينية والدنيوية حول غاية سياسية محددة ، الأمر الذي أدى بهم ـ على وجه العموم ـ إلى الحد من الإختلاط والإندماج والذوبان .

ويحتفظ اليهود بسر وجودهم وبقائهم ـ وعلى مدى الزمن الماضي ـ إلى أفكار حزقيال تلك ، كما تمكن أيضاً ، من إعداد شخصيات تؤمن بآرائه وتوجهاته الإنعزالية ، وانعكس ذلك في نتاجاتهم الفكرية اللاحقة ، وتبدى ذلك جلياً بكتاب التوراة الذي دونه عزرا الكاتب في كتابته للتوراة بروحية ونزوع سلفه حزقيال .

وفي هذا السياق ، إعترف حتى مريدو وأنصار الرؤية اليهودية السالفة ، بالتوجهات الغائية لحزقيال ، إذ يذكر الكاردينال باوريجين في موعظة له عن عصبوية حزقيال وعنصريته التالي : أنه يعمل على إغراق «العالَم برمته من أجل إنقاذ سفينة له» ، [نقلاً عن موريس بكاي ، ص 26] .

نبوءة حزقيال

لقد كان حزقيال في مدينته : تل أبيب البابلية ، وبالتحديد على ضفة نهر الخابور : أي {مدينة الكفل الحالية} ، عندما اِنفتحت له السماء ، كما تروي الأساطير ، لتلهمه التعليمات الجديدة ، وفي ذلك يقول : «وأنا بين المسبيين عند نهر الخابور أنَّ السماوات اِنفتحت فرأيت رؤى الله» ، [سفر حزقيال ، الإصحاح الأول] ، وكان ذلك بداية نبوءته التي حدثت في العام الخامس من أسره ، كما قلنا ، ويتكون سِفر حزقيال في التوراة من 48 إصحاحاً ، ويعد من الأسفار الأساسية والكبيرة في الكتاب المقدس ، والذي أثار لغطاً وجدلاً كبيرين بين كافة المتابعين للشأن اليهودي ، وذلك بسبب وجود التناقضات الأخلاقية الحادة والصارخة بين الأفكار التي تنطوي على قيم رفيعة السمو ، من ناحية ، والرخص والرذيلة والاِبتذال ، من الناحية الأخرى ، وأجد لزاماً عليَّ الإشارة ، إلى أنني تجنبت الخوض في اِستعراض مقولات الرذيلة ، كما وردت في إصحاحاته بسبب كامن في شدة إباحيتها وتهتكها .

ومما يجدر ذكره بهذا الخصوص ، أنه لا يتعلق الأمر بالنبي حزقيال ، فالتهتك والاِبتذال هو طابع توراتي يتكرر قي ثنيات الكتاب المقدس ونصوصه ، وإنما يتعلق السبب بالطبيعة الخاصة عند مَنْ كتب كتبه ونشر أفكاره . . . ويكمن عند كتبة التوراة في المراحل اللاحقة لحياة حزقيال : «أما سفر حزقيال ، وهو آخر نبي كبير ، ونبي المنفى أيضا ، فإنه لم يُدَوَن كتابه في شكله الحالي إلا بعد موته ، وقد دونه الكتبة وهم ورثته الروحيين» ، [موريس بكاي ، ص 24] ، الأمر الذي يدفعنا للاِستنتاج بأنَّ النبوءات التي وردت في الكتاب المقدَّس أتت بأثر رجعي ، أي بعد حصول الحدث ، وتم لاحقاَ ربط الأحداث والوقائع بأصحابها الأنبياء على شكل نبوءات .

فعلى سبيل المثال فإنّ حدث الأسر الذي شمل الملك صدقيا :وهو المعين من قبل الملك البابلي ، ولكنه تمرد على سلطة القائد البابلي ، متصوراً أنَّ المصريين سينجدوه فيما إذا عصى أوامر بابل . . . وكان ذلك الأسر على يد القائد نبوخذ نصر في العام 586 ، ق . م ، وتمَّ سمل عينيه وتسييره إلى بابل مكبلاً بالقيود ، تأتي النبوءة على الشكل التالي : «أتى به نبو خذ نصر إلى بابل : أرض الكلدانيين ، ولكن لا يراها» ، سفر حزقيال ، 12 ـ 13 ، وذلك في إشارة إلى سمل العيون وعدم مشاهدة مدينة بابل ، نتبين ذلك من خلال متابعتنا لعملية أسر حزقيال في الأسر الثالث الذي وقع في العام 589 ، أي قبل أسر الملك البابلي لصدقيا بثلاث سنين ، وعندها لم يكن حزقيال نبياً بعد ، هذا من جانب . . .

ومن الجانب الآخر ، يأتي ذكر حزقيال في بعض الأسفار بصيغة الغائب من قبيل : «صار كلام الرب إلى حزقيال الكاهن في أرض الكلدانيين عند نهر الخابور ، وكانت عليه هناك يد الرب» ، حزقيال ، سفر 1 : 3 ، ويتكرر مثال ذلك في السِفر 24 من أسفار حزقيال حيث ورد فيه التالي : «ويكون حزقيال لكم آية مثلما صنع تصنعون . إذا جاء هذا تعلمون أني أنا السيد الرب» ، وبذلك نكتشف درجة الإِرتباك في تتابع الوقائع والنبوءات المزعومة عنها .

.نسخ التوراة.

إنَّ كلمة التوراة تعني التعاليم أو الناموس ، وهي تشير إلى شريعة النبي موسى عليه السلام ، أي الأسفار الخمسة من الكتاب المقدس ، وهي :

1- سِفر التكوين .

2- سِفر الخروج .

3- سِفر اللاويين .

4- سِفر العدد .

5- سِفر التثنية .

بالإضافة إلى أسفار الأنبياء اليهود الأخرى ، وهي تتعلق بتاريخهم وأناشيدهم ، ليصل مجموع هذه الأسفار إلى 39 سِفراً التي تسمى : الكتاب المقدس عند أتباع المذهب البروتستانتي .

والتعاليم التي اِحتوتها الأسفار الخمسة هي التي تسمى عند عموم اليهود بـ : «الشريعة» ، والذين يعتقدون بأنها قد خلت من التحريف والتزوير ، كما هو مفترض ، ولكن الحقيقة العملية المريرة تكشف للعيان والمتابعين : أنّ التوراة قد تعرضت إلى الكثير من التحريف والتزوير ، ولكن كان هذا التحريف والتزوير غير واضح المعالم لغير ذوي الاِختصاص والشأن في هذا التراث ، ولم يحدث النسخ الواضح للشريعة إلا على يد حزقيال بن بوزي ، فالنصوص التي حددتها مفاهيم الشريعة الموسوية من قبيل ، «الرب طويل الروح كثير الإحسان يغفر الذنب والسيئة لكنه لا يبرّئ بل يجعل ذنب الآباء على الأبناء إلى الجيل الثالث والرابع» ، سِفر العدد : 14 : 18 ، وتكرر ذلك أيضاً في سِفر الخروج : 5 : 20 ، وكذلك في سِفر الخروج : 7 : 34 ، وفي سفر التثنية ورد نفس المعنى في النص الذي اِحتواه 5 : 9 .

أي أنْ يتحمل الأبناء نتائج أعمال الآباء المذنبين حتى الجيل الثالث والرابع ، علاوة على نص آخر ورد في سِفر التثنية 2 : 23 :«لا يدخل اِبن زنا في جماعة الرب حتى الجيل العاشر ، ومن الجدير بالملاحظة أنَّ النصوص أعلاه هي جزء من شريعة النبي موسى التوراتية والتي لا يمكن إلغاؤها أو نسخها ، ولكن النبي حزقيال تجرّأ على معارضتها والتصدي لأفكارها ، مورداً مثالاً واضحاً على تلك الجرأة ، بالقول في لغة اِستنكارية واضحة : «ما لكم أنتم تضربون الأمثال على أرض إسرائيل قائلين : الآباء أكلوا الحصرم وأسنان الأبناء ضرست» ، سفر حزقيال ، 2 : 18 .

وفي نص آخر يقول : وأنتم تقولون لماذا لا يحمل الاِبن من إثم الأب أما الاِبن فقد فعل حقاً وعدلاً حفظ جميع فرائضي وعمل بها فحياة يحيا» ، سفر حزقيال ، 18 : 19 ، ويعمِّق حزقيال رؤيته الإنتقادية تجاه ما ورد في شريعة موسى بالقول التالي : «النفس التي تخطيء هي تموت ، الاِبن لا يحمل من إثم الأب والأب لا يحمل من إثم الاِبن بِر البار عليه يكون وشر الشرير عليه يكون» ، سفر حزقيال ، 18 : 20 .

وبذلك يمكننا الاِستنتاج : أنّ النبي حزقيال قد جدد في الشريعة الموسوية : أي نسخ بعض ما ورد فيها ، وأضفى طابع تفكيره الخاص على أسفار شريعة موسى المقدسة .

ـ مشهد الشمس والإسراء ـ

لقد اِستخدم حزقيال كلمة الرب أو السيد الرب بكثافة لافتة للنظر ، حتى غدت ملازمة له في كتابة كل أسفاره ، ولم يكتفِ بذلك التكرار ، وإنما بالغ في استخدامها محولاً إياها إلى أسطورة ، إذ ـ كما قال ـ أنَّ الرب قد أسرى بعبده حزقيال مرتين ، من تل أبيب بابل : أي الكفل الحالية إلى أورشليم القدس ، ويؤكد ما ورد حول الموضوع في سفر حزقيال ما أوردناه أعلاه : «في نفس اليوم كانت عليَّ يد الرب وأتي بي إلى هناك ، في رؤى الله أتى بي إلى أرض إسرائيل ووضعني على جبلٍ عالٍ» ، الإصحاح الأربعون من سِفر حزقيال ، الآية 11 : 12 .

واعتماداً على المعاني الكامنة في هذه الروايات تمكن حزقيال من الدخول إلى عالم الأسطورة والإعجاز في قلوب وقناعات المؤمنين بأفكاره ورؤاه ، وليس كثيراً على النبي الذي نادى بأفكاره التعبوية والتحريضية من داخل أسوار بابل ، إبّان قوة وهيبة الملك البابلي نبوخذ نصر ، من جلب الأنظار إلى روح التحدي الكامنة فيها ، وبالتالي تجميع المريدين حوله .

ولم يكن حزقيال بحاجة إلى التلميع والغلو في صفاته أو المبالغة حول جبروته المعنوي ، كما هو حال الأنبياء الآخرين : دانيال ، ونحميا مثلاً اللذين كانا مجرد غلامين وساقيين وخـَدَم في قصر الملك البابلي : نبوخذ نصر ، للدرجة التي قالوا بصددهما : إنَّ نبوخذ نصر قد «خر على وجهه وسجد لدانيال» ، كما جاء في سِفر دانيال ، الإصحاح 2 ، الآية 16 ، علاوة على تصويره إنه خارق الإرادة والقوة من خلال مثال وضع دانيال في جب الأسود الجائعة ، ولكنه تمكن من النجاة منها اِعتماداً على قدراته النبوية الخارقة .

إنَّ مثل هذه المبالغات والخرافات لم يكن النبي حزقيال بحاجة إليها بحكم عظم شخصيته وقوة وصلابة إرادته ، وكان شخصاً حراً ولم يكن يوماً ساقياً أو غلاما أو خادماً في القصور الملكية إنَّ صلابة وشجاعة النبي حزقيال وإشهار آرائه للعلن ، وتحديه للآخرين ، ومساهمته الكبيرة في عمليات إنقاذ شعبه هي التي حركت أعدائه للتآمر عليه ، الأمر الذي جعل أفكاره تلك سبباً أساسياً في تحديد مصيره ومقتله المأساوي .

يتحدث التاريخ اليهودي أنَّ اليهود المسبيين قد قتلوه في بابل جرّاء جرأته القصوى وإقدامه على توبيخه لهم ، فأقدموا على سحله على الأحجار وظلوا يسحبون جسده حتى حُطمت رأسه .

لقد دخل اسم حزقيال بن بوزي عالم الأسطورة من أبوابها الواسعة للدرجة التي بولغ في قدراته من قِبل أتباع المذهب البروتستاني المسيحي ، الذين اِستمدوا من طريقة مقتله «عقيد الفداء الأولى» ، ولا ريب أنْ دخول النبي حزقيال أبواب المجد والخلود بسبب جرأته تلك ، حتى قيل فيه: أنَّ الشمس قد ردَّت إليه رغم معاكسة ذلك لنواميس الطبيعة :

«إنَّ في مدينة الحلة العراقية مكان يسمى مشهد الشمس» يقال رُدّتْ فيه الشمس لحزقيال النبي ، ويقال ليوشع بن نون ، وقيل للإمام على» ، نقلاً عن الحسني ، ص144 : كتاب الإشارات إلى معرفة الزيارات لأبي الحسن علي بن أبي بكر الهرري ، المتوفى في حلب عام 611 هجرية ، والمطبوع في دمشق سنة 1953 .

الضجة الإعلامية حول الكفل :ما لها وما عليها !
عندما يشكو الجلاد ضحيته، وقضايا أخر

.1.

مدينة الكفل الوادعة التي كانت مضرب الأمثال لوحدة العراقيين منذ عهود بعيدة ، غدت اليوم «كرة قدم» يتلاقفها بعض «السياسيين» ويمررونها إلى هذه المؤسسة أو تلك ، بذريعة «إنقاذها» من الهاوية التي ستقع فيها ، بسبب مأذنتها أو منارتها الآيلة للسقوط . الحكّام واللاعبون والنقاد الرياضيون الأبعدون أو الأقربون يدبجون المقالات ويكتبون التعليقات لمعالجة الجزء في ظل تناسي الكل ، ومدينة الكفل هي الجزء العزيز من العراق المحتل ، والكل اليوم هو العراق الأسير في أيدي القوات الأمريكية الأجنبية والمخابرات الفارسية الإيرانية وعملائهم المحليون .

أما الذين اِلتقطوا أنباء تلك المباراة وعرضوها بتلسكوباتهم الدعائية فتعددت زوايا رؤيتهم المغلفة بـ«الحرص السياسي» على مستقبل السياحة والآثار والتعايش وضرورة التطبيع مع العدو الصهيوني .

فيما المتفرجون من أبناء مدينة الكفل ، لا شأن لهم بما يجري ، من وجهة نظرهم .

منذ ستة أشهر خلت والصحافة الإسرائيلية بدءاً من جريدة «ها آرتز» وصحيفة «جيروزاليم بوست» وانتهاءً براديو إسرائيل وأجهزة دعايته وإعلامه المختلفة والمتنوعة ، يعزفون على اللحن الحزين الذي يترافق مع «المظلومية» التي تنصَّب حممها على اليهود العراقيين ، وبدورها الحركة الصهيونية لم تألُ جهداً في توفير حصتها المطلوبة من تلك الضجة الدعائية ، «فكلفت» ـ على ما يبدو ـ أحد أدواتها التي تقيم في الدولة الهولندية ،

والمعني بملف القضية العراقية ، والمعروف بإسم داود موسى سليم دانيال ، كما روجته أجهزة «إعلامية» بعنوان الأمين العام لمنظمة اليهود العراقيين المعروفة اِختصاراً بالكلمة العبرية «ناحوم» ، فأصدر نداءً مفعماً بالوجد والكمد وتنتظمه الروح الإنسانية الشفيفة ، يناشد من خلاله كل العراقيين ، وليس بعضهم بالتأكيد ، ويستصرخ ضمائرهم من أجل العمل على وقف عمليات تهديم قبر النبي حزقيال (حسقيل) في مدينة الكفل العراقية في محافظة بابل ، زاعماً فيه : إنَّ سلطات التراث القديم العراقية وبضغط من مما أسماه بإسلاميين متنفذين في العراق محت الكلمات العبرية« و أزالت »الزخارف العبرية« وتخطط »لبناء «منارة مسجد» فوق مرقد النبي حزقيال .

وفى المرقد نقوش عبرية وتابوت العهد الذي عرضت فيه نسخة من التوراة على مدى قرون . وهو من الأماكن المقدسة عند الطائفة اليهودية في العراق ، وتنتشر حوله الخانات التاريخية التي أهملت إهمالا واسعاً» ، إلخ .

وبغض النظر عن صحة أقوال دانيال ، أو ترويج موقعه الدعائي الكاذب ، فيما يجري اليوم فوق أرض العراق التي تستبيحه قوات أجنبية ومؤسسات أمنية من بينها «الموساد» الإسرائيلي ، فقد شاركت نداء ذلك «الصديق» القديم / الجديد ، حملته بعض المواقع الإلكترونية المعروفة الاِتجاه والولاء للقوى الطائفية والعنصرية الإثنية ، وباِستعجال تضامني لافت للنظر ، مضمونه ، لا بل نصه التام ، والتعاون على تنفيذ بنوده «إعلامياً» على الأقل ، ومن بين تلك المواقع كان موقع «الحوار المتمدن»و«مركز الدراسات والأبحاث العلمانية» ، والعديد من الأسماء المهتمة «بشؤون الأقليات المظلومة أو المضطهدة» في المرحلة الماضية خصوصاً ، أو في الحاضر الراهن بشكلٍ عام ، وهي مزاعم مضخمة حتماً .

المتابع لهذا الضجيج الإعلامي والذي يقترب من النشاط الدعائي الهادف ، ومن موقع المراقب السياسي الجاد والحريص على أمته العربية وحضارته الإسلامية ، والذي يقدم الدعم المادي والمعنوي الجادين ، لعموم التطورات الجارية فوق الأرض العربية ، كان يلحظ أنَّ جهود السيد داوود وغيره ،

تحاول إظهار «واقع مظلومية اليهود» بعد أحداث غزة بشكل مباشر ، والتي اِستخدم فيها الصهاينة الإسرائيليون مختلف ضروب الأسلحة الممنوعة دوّلياً ، أو المسموح بها من القوة العالمية المهيمنة : الولايات المتحدة الأمريكية ، ضد المدنيين الفلسطينيين ، من ناحية ، ومن الناحية الأخرى ، تزامنت الضجة الدعائية تلك مع البدء بعملية ترميم منارة الكفل المنغرسة في الآثار العراقية الكثيرة ، بزعم أنه محاولة لبناء منارة فوق مرقد النبي حزقيل ، في حين أنَّ المنارة قائمة منذ زمن بعيد ، الأمر الذي يكشف الأبعاد السياسية الخبيثة لتلك الضجة الدعائية .

ومن المعلوم في الفترة الزمنية الحالية من عمر الاِحتلال الأمريكي إنّ بإمكان أي يهودي يعيش في عالمنا المعاصر معرفة ما يجري داخل العراق وفي كواليسه وشؤون العراقيين عموماً ، بسبب وجود القوات الأمريكية المحتلة ، أولاً ، والعقل السياسي الذي يحرك هذه القوات ، وأكثرهم من الموالين للرؤية الصهيونية في سياق عضويتهم الناشطة في التركيبة الأيديولوجية للصليبيين المتصهينين ، ثانياً ، أكثر بكثير من معرفة ما يحدث داخل بيته الخاص ، فاِنتشار المجسات الموسادية داخل المجتمع العراقي ، وخصوصاً في شمال العراق ، ممن تقع سلطته تحت إمرة «الرئيس» مسعود البرازاني الذي درس أصول مهنته الأمنية / البارستنية في تل أبيب جيدًا .

العراقيون عرفوا منذ زمن بعيد بحبهم للتعايش المشترك مع الآخرين ، ولم تندلع المعارك وتنشب العداوات بين فئاتهم ، كبرت أم صغرت ، إلا عندما يتدخل العامل السياسي الأجنبي : بريطاني ، أمريكي ، إيراني ، إسرائيلي ، ويسود منطق «فرق تسد» في السلطة ولدى الحاكمين ، كون العراقيين يتعاملون ـ على العموم ـ باِحترام وتقدير مع المقدسات الأخرى التي يحملها الآخرون ، بل يشتركون في زيارتها ونخوتها في الملمات ، فكيف إذا كان المقدس مشترك الجوار ويجمعه المكان : [حزقيال عند اليهود ، ذو الكفل عند المسلمين] ، على سبيل المثال .

ينبغي تذكير الجميع ، وعلى الخصوص من بينهم السيد داوود موسى سليم دانيال ، ومَنْ يناصر رؤيته السياسية والأيديولوجية من العراقيين أو العرب ممن يناصرون الباطل العابر ضد الحق التاريخي ، بأنَّ كل ما حصل ويحصل للشعب العراقي في مرحلة الاِحتلال الأمريكي من قتل ودمار وسلب ونهب تكمن أسبابه في الرؤية السياسية التي تنفذها إسرائيل وأسيادها وأتباعها.

تلك وثائق فكرية مسطَّرة في رؤيتهم السياسية للعراق الذي يجب أنْ يكون عليه في المستقبل ، ومنذ عشرات الأعوام ، مُجزءاً محطماً ، لا حول له ولا قوة ، بغية الإنتقام من العراق الحالي بذريعة ماضي بابل وأفعال نبو خذ نصر ضد الأعداء ، ونشر الطائفية والعرقية المستجدة تأتي في هذا السياق ، بغية ملء الفراغ الذي غاب عنه الدور اليهودي في المراحل الفائتة : الحديثة غالباً والمعاصرة كلياً ، وتأكيد وجودهم السياسي في «العراق الجديد» .

والسؤال الذي ينبثق عن هذه السياسة الإسرائيلية الممنهجة ضد العرب والعراقيين ، هو التالي : ألم يعرف السيد دانيال : الأمين العام لمنظمة اليهود العراقيين : «ناحوم» أنَّ المساجد والجوامع الإسلامية في الوطن الفلسطيني المحتل من قبل الحركة الصهيونية وكيانها القائم على الإغتصاب ، قد غدت اليوم بارات لتعاطي الخمر ، وأصبحت أمكنة للمجون ، وتعمد مسؤولي هذا الكيان المعروفون بشغفهم المستمر والمتواصل في إزالة أي أثر يتعلق بتراث الآخرين الفلسطينيين والعرب المسلمين والمسيحيين ، وملكيتهم لكي يخفوا سرقاتهم ويغطوا على وقائع غاراتهم اللصوصية . . .

لقد تعمدوا ترك مآذن تلك المساجد ومنارات تلك الجوامع باقية شاخصة أمام مرأى الجميع ، أيمكن تفسير هذا السلوك اليهودي الصهيوني بغير شيوع نظرة التشفي بموروث الآخرين ، وكذلك إصرارهم على الإستخفاف والإستهتار في معتقدات الآخرين ! .

ألم يعلم السيد دانيال وهو اليهودي الذي يحاول التمترس بالإسم العراقي والولادة العراقية عن حصة إسرائيل من الآثار العراقية من تحف وجداريات ورسوم وأوابد ، وكلها يبرهن على تعارض فكري جذري ، مع الروايات التوراتية المزعومة التي تتمسك بحرفية نصوصها إسرائيل ؟ ! .

فالمواقع الأثرية التي تعرضت للسرقة كثيرة جداً ، ومن بينها عمليات قلع الأحجار المنقوشة الموجودة في مرقد الكفل ، وسرقة جداريات مكتوبة باللغة العبرية القديمة ، واِقتلاع الرسوم الأثرية ، وسرقة الشمعدان الأثري والحجر الكريم ، وطالما أصبح الحديث عن وقائع ماثلة ، لذا ينبغي ذكر التالي :إنَّ الحجر الكريم والذي يبلغ وزنه حوالي كيلوين ونصف الكيلو {2500 غرام} وهو حجر قيم ونفيس ، قد تم سرقته من قبل اِمرأة في أوائل الثمانينات من القرن الماضي: [القرن العشرين] ، وكانت ترتدي لباساً عربياً إسلامياً محتشماً ، فأطالت صلاتها داخل ضريح النبي ذي الكفل ، كما أوحى منظرها ، الذي تلبَسَ بمناظر الخشوع والتضرع والاِبتهال ، وبعد خروجها بفترة زمنية تفقد سادن المرقد الحاج كاظم الذرب الحجر الكريم ، ومكانه المعتاد داخل الخزانة الموجودة في الجانب الغربي من الضريح ، فوجد الخزانة مفتوحة ولكن الحجر اِختفى منها ، فقام على أثر ذلك بتبليغ بعض المسؤولين في مديرية الأوقاف العامة بذلك الحادث ، وبعد مضي مدة أسبوع من تلك السرقة للحجر الكريم ، أعلنت الإذاعة الإسرائيلية بتبجح لا يخلو من وقاحة صفيقة ، عن وصول الحجر الكريم إلى كيانها القائم على السرقة والاِغتصاب .

وفي غضون أيام بعد الاِحتلال الأمريكي البريطاني للعراق ، أو بعد الاِحتلال مباشرة ، تمت عملية سرقة جدارية محفوظة في إطار خشبي مستطيل يبلغ طوله 70 سم × 40 سم عرضاً ، وعليها الكتابة المخطوطة باللغة العبرية ، وذلك من الحائط الغربي للبهو الذي يسبق الدخول إلى مرقد ذي الكفل ويحاذي موقع تلك الجدارية لخزانة التوراة الخشبية التي تحتوى بعض مخطوطاتها على كتب من التلمود وكتب من التوراة .

ويعلم الجميع تلك القاعدة القضائية التحقيقية القائلة بضرورة الاستفسار عن الجهة التي ستستفيد من أي فعلٍ لصوصي ، أي تسأل عن المستفيد من حدوث أية جريمة ، وبطبيعة الحال ، فإنَّ مثل هذهِ السرقات تدل على أنَّ منفذيها والدافعين لهم هم من المجرمين المحترفين وبالقطع ، فعندما يجري سرقة جدارية أو حجر كريم أو الشمعدان الأثري من مرقد «النبي» حزقيال بالذات . . . ومن ثَـمَ سيعُرف حتماً ، إلى أية جهة سيكون مآل تلك السرقات ؟ ومَنْ هو المستفيد من نتائج أفعال تلك الجرائم ؟ وهل يزعم أحدٌ ما ، أنَّ وجهتها سيكون مستقرها النهائي : في جيبوتي مثلاً ! ، وليس في الكيان الصهيوني! .

أما بخصوص القضايا المثارة بصـدد الإصلاحات العديدة ، التي يثيرها الأمـين العـام لمنظـمة «ناحوم» ، وهي إصلاحات تطال النقوش والرسوم الزيتيـة النباتيـة التـي تـأثرت أوضاعها بفعل التعاقب الزمني ، وخضوعها لمؤثرات عوامل الرطوبة التي تسود المكـان فقد طليت بمادة الجص الأبيض وذلك في العمليات الترميمية التي جرت في العـام 1979 ، ومن المعلوم عند جميع المتابعين لشـؤون المرقد ذاك ، إنَّ الأصباغ والألـوان الزيتيـة لا يتجاوز عمرها زهاء الثمانين عاماً فقط ، وهي مرسومة على سقف وجدران البهو المـؤدي إلى ضريح النبي ذي الكفل ، أما في داخـل ذلـك الضـريح ، فـإنَّ ألـوان تلـك الرسـومات والنقوش وأصباغ تلك الرسومات ، فما تزال باقية ولكنها باهتـة وغيـر زاهيـة ، وفي حالـة يـُرثى لها من قبل أي مشاهد لها .

وفيمـا يخـص الوضـع الحـالي للشـمعدان (القنـديل) الـذي يتـدلى مـن سـقف القبـة المخروطية عبر سلسلة حديدية متينة الصنع وتنتهي بإطارٍ من الحديد يحتوي على قناديـل تضاء بمادة (زيت السيرج) الذي يسميه اليهود {دهن الشيرز} ، فقد تدخلت عوامل مرور السنوات لكي تخضعه لمؤثرات الصدأ الذي نحتت بعض أجزائه أو جعل بعـض مواقعـه مهشمة ، فهل المطلوب ترك كل ذلك أو معالجـة بعـض اِختلالـه ؟ وهـل الحـل الأمثـل يكمن بخبرة الكيان الصهيوني ، ومن خلال اِستيراد العمالة الإسرائيلية ذات الخبرة الدينية ، وما يعنيه كل ذلك من تطبيع معه وتعامل ؟ !.

▪2▪

ونبقى في الهموم العراقية وعلاقتهـا بإسـرائيل ومخططاتهـا السياسـية لصـياغة عقـول الآخرين ، فقد تمكنوا ـ وإلى أجل محدود ، كما نأمل ـ من جعل العقل العراقـي الرسـمي صفحة بيضاء يكتبون عليها ما يشاؤون من بـرامج وأفكـار وتطلعـات ، وفي هـذا السـياق نشرت صـحيفة «جيـرازوليم بوسـت» الخبـر التـالي : «تعتقـد مصـادر مختصـة بالتـاريخ والحضارة البابلية ، أنَّ هناك شبه خطة منظمة لإزالة واقعة السبي البابلي من حضـارة وادي الرافدين» مثلما أكدت الصحيفة أنها «تستغرب أنْ تقوم مؤسسة حكومية بإزالة معالم تعـود إلى فترة السبي البابلي الذي تم في عهد نبو خذ نصر» وقد عنونـت الصـحيفة ذلـك الخبـر بالكلمات التالية :«هناك مَنْ يسعى لإزالة آثار السبي البابلي».

في الحقيقة ودلالات الواقع لا يعرف المرء عند قراءته لذلك الخبر الذي روجت له إحدى الصحف العاملة على نشر وترويج الرؤية الصهيونية لجميع أحداث التاريخ وقولبتها على قد مقاس رؤيتهم الأيديولوجية والسياسية ، الهدف السياسي من هذا الفعل ، وخصوصاً أنه لم يقترن بأي توضيح أو نقد وبالتالي اِكتشاف الأهداف السياسية الكامنة وراء نشره . هل هي مقدمات لفتنة قادمة أم التمهيد لرؤى «البعض العراقي» المنخرط في الأطروحات الفكرية والسياسية المشبوهة والتي تتماهى مع رؤية العدو الصهيوني لشؤون وشجون العراق والمنطقة العربية ، وبالتالي إبداء اِجتهاد محدد في كيفية قراءة هذا النص الغريب والمستغرب في آن ! . . .

هل تكمن أسباب نشره وترويجه في طبيعة العمل المداهن للبعض المكلَّف من قبل ذوي السطوة السياسية والقوة العسكرية بتجريد العراق من صفحات تاريخه الأكثر نقاءً وتميزاً ونصاعة ؟ ! .

أم إبداء عمليات دعائية تهريجية وتهييجية من أجل إثارة قضايا قديمة بهدف الحصول على مغانم سياسية وتعويضات مادية ؟ ! .

أم أنَّ كلَ تلك الاِفتراضات قد جانبها الصواب ، والأمر كله ما يزال سراً في نفس يعقوب ، كما يقول المثل !.

الاِستغراب ناجم في الأساس حول كيفية إزالة وقائع تاريخية عبر وضع «خطة شبه منظمة» من قبل البعض الذي قد يكون «عراقياً» ، ولكنه أداة إرتزاق ومُسَّيرَة على أضواء أهداف محددة بالنسبة لراسمي وصنّاع القرارات السياسية والإستراتيجية ، أو على وجه التحديد والحصر ، هو من فِعِل جهة أجنبية واعية لأهمية دروس التاريخ ودورها في تحفيز «الذاكرة الوطنية والقومية والحضارية الدينية الشرقية» وما يترتب عليها من الفعل السياسي أو الأفعال السياسية ، من أجل أنْ يزال تاريخ مضيء وشامخ بأدوات عصره وكل العصور التي زامنت ذلك الحدث العظيم ، وتسامت فيه الإرادة الجسورة وتسلحت بالسطوة والقوة والنفوذ والعظمة ، وهي مفاهيم تاريخية تفتخر كل الأمم بها وتنشرها بين أجيال أبنائها دائماً وأبداً .

وهل هو تكتيك موارب مخاتل يهدف إلى التستر والتغطية على جريمة سياسية وأخلاقية تتمثل فيها بشاعة أخس الإجرام وقد تبدت فيها خطوات عملية ملموسة نجم عنها سرقة واسعة للآثار العراقية أعقبت الاِحتلال الإجرامي الغاشم للعراق في 9 / 4 / 2003 من قبل الأمريكيين والبريطانيين ، قامت بها إسرائيل وعملاؤها وأعوانها من صنائع المحتل وأدواته ، وعملت بدقة وعن سابق تصور وتصميم بأعمال قبيحة ، حققت فيها السرقة الشاملة للجداريات البابلية والآشورية ، وكون دلائلها المعرفية والتاريخية تشير إلى تناقضها وتعارضها مع كتاب «التوراة» المزور ، كونها الشاهد التاريخي الوحيد والمتبقي من تلك المرحلة التاريخية ، الذي يبرهن على التلاعب الفظيع الذي شمل كتاب التوراة والخرافات التي حشيت به ، كونها كـُتبت في المرحلة التاريخية التي أعقبت عمليات السبي البابلي الذي تكرر في الأعوام التالية : 597 ، و 586، ما قبل الميلاد . . .

لقد كتب كتاب «التوراة» بعد ذلك الاِنتصار العسكري العراقي بسنوات كثيرة . فهل غبار ذلك الخبر الذي روجت له صحيفة إسرائيلية كبيرة يهدف ، من بين ما يهدف ، نثر التضليل على عمليات سرقة النقوش والرسومات التي عفا عليها الزمن ، ولكنها بقيت شاخصة بقوة في العقل السياسي العراقي والشرقي ، بسبب قدمها وتعاقب العقود عليها ، والذي كان تاريخ تعليقها أو رسمها في بدايات العقد الثالث من القرن العشرين ، وخصوصاً أنَّ هناك صوراً فوتوغرافية كانت قد اِلتقطت لها في العام 1938 ، يبدو فيها البهو مطلياً بالجص الأبيض وخالياً من النقوش والرسومات ! ؟ .

وزيادة في الإيضاح نورد ما نشر في أحد الكتب التي صدرت في القاهرة عن الموقف الإسرائيلي من تلك المعركة المجيدة ونصبها التاريخي ، إذ يذكر التالي :«وإذا كان النصب البابلي الذي يزن عدة أطنان . . . ويصور ما عـُرف تاريخياً بالسبي البابلي . . . والذي يعتبره المتخصصون وعلماء الحضارة . . . والتراث الإنساني عامة ، قد تم نقله إلى إسرائيل . . . بعد الحملة التي قادها الموساد على المتحف الوطني العراقي عقب [ما يُسمى بـ]«سقوط بغداد» . . . بدعم من القوات الغازية . . . وخونة العراق . . . فإنه الدليل الواضح على اِعتماد الحركة الصهيونية وكيانها القائم على الجريمة والمصادرة . . . اعتمادها للمنهج الهولاكي . . . منهج هولاكو مدمر الحضارات» ، [راجع كتاب صدام حسين بطل في زمن الهوان ، تأليف محمود بكري ود . محمد الباجس ، الطبعة الأولى عام 2007 ، الناشر : الأسبوع للصحافة والطباعة والنشر ، ص 183» .

ألم يقرأ السيد السيد دانيال ، الأمين العام لمنظمة اليهود العراقيين ذلك ؟ والسؤال موجَّه بطبيعة الحال لكل مَنْ يرى رؤيته السياسية ، تفاصيل تلك العملية اللصوصية الإرهابية ، فلمَ لم يتحرك «ضميره الحضاري» ويعلن احتجاجه على التصرفات الإسرائيلية ، ويكتفي بصب جام غضبه على العراق والعراقيين ؟ وإذا كان ذلك التصرف نابعًا من موروث حقده التاريخي على العراق العظيم ، فما بال بعض العراقيين الذين تبلَد إحساسهم وأعلنوا عن تعاطفهم الفوري مع «شقيق» رؤيتهم السياسية ، السيد دانيال ؟ ! ، وبعد كل ذلك ، ألا تبدو المسألة التي أرقّت مفكري الجريدة ربما تكون الوسيلة المختارة لشكوى قادمة ضد «الهولكوست» العراقي خلال تصديهم لليهود في التاريخ القديم ؟ .

حقيقة ما يحصل في مدينة الكفل

يدعيّ السيد بإسم داود موسى سليم دانيال : الأمين العام لمنظمة اليهود العراقيين المعروفة اِختصاراً بالكلمة العبرية «ناحوم» والذي يبدو أنه غير أمين بالمرة ، أنّ متنفذين إسلاميين يخططون «لبناء منارة مسجد» فوق مرقد النبي حزقيال ، فهل صحيح ما يروجه هذا الدانيال ؟ وهل المنارة غائبة عن المشهد الماثل أمام كل المتابعين حتى يجري تصوير الأمر وكأنه محاولة لبناء منارة فوق ضريح نبي يهودي ؟ .

بإمكاننا التأكيد على أنَّ منارة الكفل كانت موجودة منذ العام 705 وما تزال شاخصة شامخة ، ودخلت القاموس الشعري العراقي وعالم الأمثال المحلية ، ولكن الصراع القديم بين العرب المسلمين ، من جهة ، واليهود ، من جهة أخرى ، والذي أثاره قدماء اليهود برشواتهم المالية المقدمة لمندوبي الباب العالي في المرحلة العثمانية ، ما يزال يتجدد على أيدي أزلام الحركة الصهيونية المعاصرين ، وأتباعهم من المتثاقفين من المنتمين إلى إحدى المدارس السياسية ، ومن خلال العودة إلى الصفحات التاريخية التي سُجلت وقائعها بأمانة ونشرتها الكتب التاريخية الحديثة والقديمة ، لقد شهد العام 1887 وقائع ذلك الصراع تحت الاِسم / المفهوم المعروف بإسم «مثل منارة الجفل» ، الذي نشبت فيها عملية التزوير ودحض عملية التزوير ، والذي سميت آنذاك بـ«قضية تطاول اليهود» حين ظهر للعلن خلاف الحاج ذرب بن عباس مع قادة اليهود حول جامع النخيلة . . .

إذ حاول أولئك القادة اليهود عبر التخفي وراء مزاعم التوسيع لمرقد حزقيال والتشييد لبعض المباني تحقيق هدف طمس المعالم الأثرية لأسس جامع النخيلة بما فيه طمس معالم أي أثر إسلامي في ذلك الجامع وخصوصاً : المنبر والمحراب ، ولكن الحاج ذرب تقدم بشكوى خاصة للحكومة العثمانية التي تتخذ من العاصمة اِسطنبول مقراً لها ، جراء معرفته بفساد الجهاز الإداري الموجود في العراق الذي كان ينفذ تعليمات الإمبراطورية العثمانية ، الأمر الذي حدا بالحكومة العثمانية لتخصيص لجان تأخذ على عاتقها البحث بتلك الشكوى ، ولكن المسؤولين اليهود قدموا الرشوة المالية لتلك اللجان حين قدمت للعراق من العاصمة الإمبراطورية العثمانية .

وقبل أنْ تذهب إلى مدينة الكفل ، فما كان من تلك اللجان إلا وقد أنكرت وجود المنارة ، فربح اليهود بذلك تلك القضية رسمياً في السجلات الإمبراطورية العثمانية ، وعلى أثر ذلك تم بناء الخانات التي ستأوي الزائرين ، وعندما وصل الأمر التنفيذي والمباشر بالهدم ، بناءً على تلك الرشوة المالية ، وجرى الإعلان عن البدء بهدم المنارة خلال أيام قريبة قادمة ، اِنتفض العرب المسلمون جماعياً وأدى ثمار فعلهم إلى منع تهديم المنارة من قبل اليهود ، وتمكنوا بالتالي من إيقاف المشروع التوسعي اليهودي الخاص بالمدينة التي أرادوا تحويلها إلى مستعمرة يهودية خالية من الآثار الإسلامية .

لقد بقيت المنارة عالية وشامخة إلى حدّ هذا اليوم تعلن في الآن نفسه عن وجود المنبر والمحراب ، وهو الأمر المطلوب معه اليوم بذل الجهود الجادة والضرورية من أجل البحث عن الأسس العمرانية لجامع النخيلة ، التي لا تتعارض حتماً مع الوجود العمراني للنبي حزقيال ، النبي اليهودي ، بينما النبي العربي الإسلامي ، كما هو في اِعتقادنا ، النبي ذو الكفل .

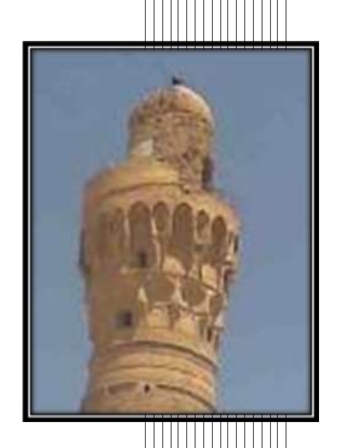
وبمبادرة حميدة من قبل السيد صالح الحيدري رئيس ديوان الوقف الشيعي ، ومن خلال التعاون مع مديرية الآثار العامة ، فقد بوشر بالتنقيب والبحث في بعض الحفر الصغيرة من أجل التوصل إلى معرفة الأسس العمرانية لجامع النخيلة ، ومنذ العام 2007 ، ولا شك أنَّ الجهات اليهودية سواء أكانت في إسرائيل أو المنتشرة بين قوات الاِحتلال أو الموجودة مع الأحزاب الكردية في شمال العراق ، كانت على علم ودراية تامة ومتابعة دقيقة حول كل الجهد المبذول في هذا النطاق ، وتعلم عبر المتابعة ، أيضاً ، لما وصلت إليه عمليات المتابعة بالحفر والتنقيب في المنطقة .

قبل ستة أشهر تم نصب المصاطب الخشبية بهدف إستخدامها عند ترميم وصيانة المنارة الآيلة للسقوط بسبب تقادم السنوات على بنائها ، ويبدو أنَّ اليهود الصهاينة كانوا قد تلقوا وعداً ما لإنجاز حلمهم على هذا صعيد ، وخصوصاً في محو الآثار الإسلامية ، ولكن العمل الجاد للترميم قد جعل حساباتهم لا تنطبق على موجود بيادر بضائعهم الكاسدة ، بسبب قوة التراث العربي الإسلامي في المجتمع وبروز وعي مواطني مدينة الكفل العملي ، فقد ثارت ثائرة اليهود بمناسبة بدء العمل الجاد في ترميم هذا الأثر الإسلامي ، فتعالت أصوات اليهود بالضجيج المعتاد لديهم تجاه كل مسألة تمُّس مطامعهم، فملؤوا الأجواء الإعلامية والدعائية بأنواع الاِحتجاج ورفع عقيرة أصوات الاِستغاثة ، الأمر الذي أعاد مضمون الخلاف إلى سابق العهد الذي نشأ فيه النزاع بين اليهود، من جهة ، والعرب المسلمين في أواخر القرن التاسع عشر ، من الجهة الأخرى ، واليوم مع كل الأسف الشديد ينضم البعض العراقي ويجرد قلمه من أجل مناصرة الموقف اليهودي الصهيوني ، فما هي إلا لحظات مضت على صدور تصريح دانيل حتى سارعت بعض الأقلام «العراقية» وعلى عجل لافت للنظر ، لتقديم فروض التأييد له . . .

بل وصل بها مطاف الولاء للقوى المعادية لشعبنا ، إلى قيامهم بتحريف التصريح الواضح للسيد صالح الحيدري عبر الزعم : بأنه قال: إنَّ لا علاقة لليهود بهذا المكان ، الذي يضم مرقد النبي ذي الكفل والنبي حزقيل ، في حين أنَّ الحيدري قد قال «بأنَّ الأنبياء والأولياء في المناطق «الشيعية» يتولاها الوقف «الشيعي» ، علماً أنَّ هذين المسميين: الوقف الشيعي والوقف السني هما من بنات أفكار الاِحتلال ومن أولويات العمل الأمريكي المجرم والمحتل للأرض العراقية وذلك : من أجل نشر بذور الشر بين أبناء المجتمع العراقي الواحد ، والعمل على إحداث الفرقة والاِنقسام بين العراقيين .

وعلى العموم فإنَّ الاِختلافات في أي عمل ستبرز للعلن ، هذا هو اِتجاه موضوعي وطبيعي ، وعليه فإنَّ هذا الاختلاف هو اختلاف حضاري هادئ ، ولعله أول اختلاف حضاري في أروقة المؤسسات الرسمية لما بعد الاِحتلال ، بين «مديرية الأوقاف الشيعية» و«دائرة الآثار العراقية» ، ولكن الأهم من كل تلك الاِختلافات هو تجاوز تأثيرات هذا الخلاف ـ الذي يبدو مفتعلاً ـ وذا وجه سلبي . . .





القسم الثاني



الردَّة اليهودية في بابل

هذا البحث التاريخي لفترة زمنية ما قبل الميلاد غالباً ، وفي منطقة محددة هي مدينة الكفل : المدينة التي ولِدتُ فيها وترعرعت تحت أفياء نخيلها المعطاءة الكريمة ، مكان جغرافي يخص منطقة من مناطق العراق ، تحتل في ذهني وتفكيري الموقع الأحب على النفس وهي في موقع الشغاف من القلب ، وهو بحثٌ لا يستهدف الخوض التفصيلي حول التحريف الذي شهدته بعض الديانات السماوية ، أو الإضافات التي طرأت عليه ، بقدر إيراد الاِستشهاد ببعض أفكاره والإشارة إلى بعض محتوياته النصية ، التي حددت «مفاهيمه المغلقة» منذ توطنهم في هذه المنطقة قسراً أو رغبة ، ولكن ما ينبغي القول في هذا البحث ، أنه يستهدف الاِستعانة بهذه النصوص من أجل معرفة حجم التحولات الفكرية والاِجتماعية وتداعياتها عليها .

وما شكلته من دوافع وأسباب دفعت بموجبها دين سماوي ـ كما هو مفترض ـ ليتحول إلى دين قومي يخص مجموعة معينة ومحددة من الناس أي تحوله إلى دين قومي عنصري ـ بالمعنى العرقي ـ ومن أجل صيرورة هذا التوجه العنصري ماديًا على أرض الواقع ، فإنَّ ذلك التوجه يقتضي اِستخدام المفاهيم التي تحثُ على ارتكاب الشر ، إذ ليس من الضير من اِستخدام منظومة الأفكار الدينية من أجل غاية محددة ، والزعم بالتالي : بتفويض مطلق من «الإله اليهودي» لدعم هذه الفكرة ، ولكن هذا الإله خالي القدرة

ومفرَّغ القوة على المستويات المختلفة ما خلا تكريس قدراتـه لخدمـة أهـداف اليهـود الشريرة ، ويحارب معهم كونهم «الشعب المختار من قبله » ، اِنطلاقاً من تشبعهم بمفاهيم الحقد والكره اللا محدود والنزوع إلى الغرائز الشـريرة لكل أعداء «العشـيرة الشـريرة» ، وفقاً للوصف الذي أطلقه نبيهم الصادق : «آرميا» ، [1] ، إذ جاء فيه «كان عزرا أحد هـؤلاء الذين رأوا وجوب المحافظة على العشيرة الشريرة»

ولم يكن هذا الاِنقلاب «الفكري» الأول على صعيد مفهوم التوحيد عند معتقدات «الشعب اليهودي» ، إذ كان هذا «الشعب» كثير الحراك ، جم التمـرد ، مولـع بالعصـيان ، والعـودة إلى الوثنية الأولى «الطوطميـة» أو عبـادة «العجـل» ، ولكنـه وأمـام وطـأة الظـروف السياسـية أو الاِجتماعية المستجدة ، سرعان ما يثوب إلى رشده بعد الخسائر الكبيرة التي ينزلها الخصـوم فيه جرّاء ثورات الشغب تلك والتي أدت إلى مقتل وغياب أنبيائهم الأولين، فقد غاب أو قـُتل هارون وقـُتلت أخته مريم في ظروف غامضة ، لم تشـر الأخبار بخصوص تلك «الثورات» إلى الأسباب الحقيقية لمقتلهما ، إذ كان اليهود في تلك الَفترة أقرب إلى هارون من النبـي موسـى أثناء التيه في صحراء سيناء ، وتكرر الأمر مع النبي موسى الذي غاب أو قـُتل قبل أنْ يطأ أرض فلسطين ، ولم يكن للنبي موسى قبر محدد أو مرقد معلوم قط ، كما لابد من الإشارة أيضـاً إلى أنَّ النبي حزقيال مات مقتولا .

(□)راجع كتاب بروتوكولات حكماء صهيون ، ص 379 ومن المعلوم أنَّ هذا الكتاب يقر أنَّ السبي البـابلي قـد تحـول إلى نعمـة نقلتهم إلى الطريق التي صيرتهم يهوداً اِنعزاليين ليلاحقـوا عقيدة {شـعب الله المختار} ، كمـا يقـول نـويهض عـلى الصـفحة 296 ، وحول ما ترتب على الرؤية الاِنعزالية لليهود وعملهم ضد الشعوب المقيمين بينهم يقـول السـيد نـويهض في الحاشـية التي وردت في الصفحة 367 : «وكان الملك قسطنطين الأكبر يلقبهم في المنشور القيصري بــ{الشـعب المكـروه} » ، تجـدر الإشارة إلى أنَّ النص الأصلي للبروتوكولات كانت قد تم العثور عليها في روسيا القيصرية.

ويقتلون الأنبياء بغير حق

لقد حافظ اليهود لأكثر من ألفي سنة على أفكارهم ومعتقداتهم فضلاً عن أفكار وأساطير الشعوب والحضارات المنقرضة ، في هوية وأجندة يهودية ضمها كتاب «التوراة» المقدس لديهم ، وبات مصدراً مهماً ومفتوحاً أمام الباحثين لمحاولات معرفة أحوال الشعوب التي عاشت في الظروف الغابرة ، وساد هذا الأمر حتى مطلع القرن ما قبل الماضي ـ أي القرن التاسع عشر ـ عندما دخل علم الآثار وعلم الإنثروبولوجيا في مناهج الكتابات البحثية ، إذ لم يعرف الشعب اليهودي مسائل التدوين الثقافي وحتى التوراة بقيت تتناقل شفاهاً حتى مرحلة ما بعد السبي البابلي ، وذلك هو السبب الأساسي في اِختلاف النصوص في هذا الكتاب «المُنزَل والمقدَّس» .

لقد كانت في بلاد الرافدين ، وهي العراق الحالي ، نهضة معرفية متطورة بمقاييس تلك العصور ، تتجسد في مظاهر العلوم والمدارس والمعاهد والكتابة ، فجرى اِنفتاح اليهود الأسرى على المعرفة تلك ، وكانت مدرسة حزقيال «بن بوزي» ثمرة أساسية لتلك المعرفة ، فجرى على ضوئها قيامه بحملة واسعة من التأنيب والتأليب ومحاولات بث أفكار الإيقاظ في مواجهة عقلية الاِختلاط التي اِنغمر فيها اليهود المستجلبون عبر الأسر ، وبالتالي محاولة الاِندماج السريع في المجتمع البابلي المفتوح والمتحضر ، والتخلص من عقلية الاِنغلاق والتحجر ، ويكفي حزقيال مبادرته الإيقاظية أنه حارب بشكلٍ عنيد وواجه الاِندماج قبل أكثر من ألفي عام ، ولم يندمج اليهود بغيرهم من الأمم والشعوبً بعده أبداً ، وظهرت في أعقاب مبادرته تلك ظاهرة «الغيتوات اليهودية» ، أينما حلوا أو سكنوا بين ظهراني الشعوب الأخرى .

أما رصد وضع اليهود في العراق فهم نشؤوا في بيئة مجتمعية مغايرة ، إذ أنهم عاشوا في عاصمة وبلد الاِندماج والاِختلاط الذي شهده المجتمع البابلي ، نظراً لتنامي المكونات الاِجتماعية المختلفة إلى حدٍ ما في ذلك البلد وعاصمته البابلية / العالمية . وفي مرحلة تاريخية لاحقة شهدت العاصمة العراقية . . . عاصمة الرشيد تنوعاً أخصب من الناحية القومية التكوينية ، وذلك في بوتقة الحضارة العربية الإسلامية ، فعاش اليهود في خضم الحركة التسامحية التي ميزت الدين الإسلامي مع المكونات الدينية السماوية الأخرى ، وفي بيئة عراقية منفتحة على الشعوب الأخرى بحكم الطابع الفكري الحضاري التي اِجتمعت فيه المدارس الفقهية والفكرية المتنوعة ، أولاً .

وطابع العمل التجاري الذي كانت تمور نشاطاته في أسواق بغداد ، وتموج فيه حركة البائعين والشارين المتحلقين في محلاتها التجارية ، ثانياً .

لذلك يمكن القول أنَّ عموم الشعب اليهودي لم يواجه حتى التاريخ الزمني الذي تصل سنواته حتى القرن الخامس عشر ميلادي . . . لم يواجه أية نكبات جماعية أصابته بالتشرد والاِنطواء على ذاته مثلما لم يجد نفسه أمام النكبات الحادة ، وهو الأمر الذي جعل أغلبية الشعب اليهودي أنْ يختار بلدان العالم الإسلامي مكاناً للسكن فيها ، لاسيما البلدان العربية ، عندما فُرضت عليهم تلك الهجرة القسرية من أسبانيا جراء العنصرية العرقية الأوروبية والتعصب الديني . . . شأنهم شأن العرب المسلمين في الأندلس ، وكذلك هجرتهم ربما من باقي بعض البلدان الأوربية ، كون هذه البلدان الإسلامية والعربية هي الملاذ المناسب والآمن .

والعراق كواحد من الأقطار العربية لم يكن بالنسبة لأولئك اليهود الملاذ المرتجى ، بقدر ما كان موطن ثقافتهم وربوع جنتهم المتخيلة : «جنة عدن» ، بل عاصمتهم الثقافية ، كان عملهم التجاري فيها حراً ومن دون رقابة مقرونة بالتمييز ، وكانت مؤسساتهم الدينية وكُنُسهم قائمة ومستقلة يمارسون فيها الطقوس الدينية اليهودية المتنوعة وفق رغائبهم الخاصة ، وفي مراحل ما بعد تأسيس الدولة :المملكة العراقية كان منهم المشترِك في الحكومة العراقية الوليدة كوزير ، والعضو في البرلمان كمندوب ، وغيرهما ، ولم يشهد العراق أو يسجل خلال مرحلته العثمانية حوادث سلبية تذكر ما خلا حادثتين تكادان متزامنتين في أواخر ذلك العهد الذي سيطر العثمانيون الأتراك فيه على العراق ، وطبقوا خلال تلك الفترة الزمنية قوانينهم الطورانية المتزمتة ، على المجتمع العراقي . . .

في القرن التاسع عشر ، كانت إحدى الحادثتين تلك ، الحادثة المعروفة بتطاول اليهود على منارة الكفل الإسلامية وذلك في العام 1887 ، الأخرى كان تاريخها في العام 1889 وهو حادث دفن «الربان عبد الله سوميخ» بالقرب من مرقد العالم الديني والشخصية المتصوفة المشهورة ، الشيخ معروف الكرخي ، وعن الحادثة الأخيرة يورد الأستاذ الدكتور علي الوردي تفاصيل عنها ، والتي من شأنها أنْ تبين مدى اِستهتار اليهود في حال تمتعهم بأية قوة معنوية أو مادية متمايزة عن الآخرين ، ففي كتابه المعروف باسم اللمحات الاِجتماعية الصادر عن منشورات مكتبة الحيدرية ، وعلى الصفحة الرابعة والأربعين من الجزء الثالث ، يذكر الباحث الاِجتماعي الدكتور علي الوردي التالي :

«ظهرت الكوليرا في العراق وكانت شديدة [. . . ومن] ضمن الموتى عبد الله إبراهيم سوميخ ، وكان رئيس الحاخاميين وله عند اليهود منزلة رفيعة ، ولم يشأ اليهود أنْ يدفنوه في مقبرتهم العامة الواقعة في الجهة الشرقية من بغداد ، وحصلوا على إذن من الوالي مصطفى باشا ليدفنوه عند مرقد النبي يوشع الواقع في جانب الكرخ قريباً من مرقد الشيخ جنيد ، ولكنهم عندما وصلوا إلى المرقد وأرادوا فتح بابه عارضهم السادن وتجمع الناس ، ثم جاء رئيس بلدية الكرخ عبد الله الزيبق مع بعض مأموريه ليقف إلى جانب السادن ، وهجم اليهود على الباب فكسروه ثم دفنوا الجثة داخل سور المرقد . وقيل أنهم ضربوا أثناء ذلك عبد الله الزيبق وشتموه» .

وعلى العموم فان هاتين الحادثتين لم تكونا ضد اليهود كيهود ، وإنما رداً عليهم وعلى تصرفاتهم ضد الآخرين ؛ كونهم المبتدئين في إحداث مفاعيلها وما أفرزت تاليا من ردود فعل مجتمعيه عليهم.

أما في القرن العشرين وفي أعقاب اِنتفاضة الشعب والجيش ضد البريطانيين في أربعينيات القرن الماضي من القرن العشرين ، فقد عزا المرحوم السيد عبد الرزاق الحسني الأحداث التي وقعت بحق اليهود إلى الدور السياسي البريطاني ، أولاً ، وإلى بيان لجنة الأمن الداخلي التي أصدرت منشوراً عدّه :«أكبر خطأ اِرتكبته لجنة الأمن الداخلي ، ثانياً ، إذ دلَّ على أنَّ اللجنة كانت تجهل حالة البلد السياسية والاِجتماعية وحتى القومية العربية ، وحالة التوتر التي كانت تسود البلد ، كما أنها كانت زاهدة بحركات اليهود الاِستفزازية في فلسطين وغيرها من أقطار أمة العرب ، وإنْ اِتضح بعد مدة أنَّ المستعمرين الإنكليز هم الذين اِفتعلوا هذه الحوادث ، وأشاروا بضرورة إصدار هذا البيان لستر اِحتلالهم لبغداد ، ولإلهاء الغوغاء بالسلب والنهب ، كما جرى في العشار يوم 7 مايس 1941 . [2] .

(□)عن كتاب تاريخ الوزارات العراقية ، الجزء الخامس ، ص 290 ـ 295 ، إذ يورد المؤلف التفاصيل الكاملة لحوادث تلك الأيام.

وهذا ما عزز القوة المادية والنفوذ المعنوي والمواطنة الكاملة في العراق الحديث والمعاصر الذي تنامت فيه وشائج الأقليات الأخوية ، في الدرجة الأساسية الأولى ، ويكفي لمعرفة الموقف السياسي المعلن لليهود العراقيين من المخططات البريطانية تجاه اليهود والمسألة اليهودية ، هو موقفهم من السياسة البريطانية التي أجملها «وعد بلفور» والذي ورد على لسان السير «أرنولد ولسون» وكيل الحاكم الملكي العام في العراق خلال شهادته التي جاءت في كتابة المعنون «عواطف الولاء : بلاد الرافدين» والتي قال فيها التالي :

«إنه حين بلِّغ بصدور وعد بلفور : وزير الخارجية البريطانية ، لإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين ، رأى أنْ يدعو إلى مكتبه بعض وجهاء اليهود وتجّارهم لـ«يبشرِهم» بالخبر ، لكنه رآهم واجمين ، وقالوا له : إنَّ فلسطين مركز روحي لنا ونحن نساعد المعابد ورجال الدين فيه مالياً ، لكن وطننا في هذه البلاد التي عشنا في ربوعها منذ آلاف السنين وعملنا فيها وتمتعنا بخيراتها ، فإذا رأيتم أنْ تساعدوا هذه البلاد وتحيُوا اِقتصادها وتساندوا تجارتها وماليتها فإننا نشارك في هذا الرخاء» ، [3] .

(□)راجع كتاب السيد مير بصري المعنون يهود العراق في القرن العشرين ، ص 217.

الأعياد عند اليهود

ويقول البروفسور ووترمن في هذا الصدد : «لقد أصبح من المسلَّم به الآن أن جميع الأعياد اليهودية ما عدا عيد الفصح كانت في الأصل من الطقوس الدينية في كنعان وان شرح تطبيقها ومراعاتها يكوِّن مجموعة من الشرائع لنا كل الحق أن نعتبرها أساس من عهود ما قبل إسرائيل» .

الأعياد تمثل جانبا من الحياة الإِجتماعية لأي مجتمع ، كونها تقليداً أفرزته التطورات التاريخية في المجتمعات التي اِقترنت أفعالها وممارساتها بالرؤية الأيديولوجية الخاصة بذلك المجتمع ، مثلها مثل أية ظاهرة راسخة تتلقاها الأجيال الناشئة الجديدة عن الأجيال السالفة القديمة ، وتضيف لها ما هو جديد ومكتسب من تقاليد أو تحذف منها ما شاخ وتجاوزته الأجيال الطالعة ، ولكن هذه التقاليد المرتبطة بذكرى معينة ومناسبة محددة تبقى متفجرة في الذاكرة الجماعية للمكونات الإِجتماعية تمارسها كلما اِقترب تاريخ حدوثها .

والمكون اليهودي للأعياد تلك ، لا يختلف في نشوء تلك التقاليد التي تفرزها ، عن المجتمعات الأخرى ، بل أنهم يتمسكون بهذه التقاليد بحرفية أكبر من أقرانهم من التكوينات الإِجتماعية المغايرة ، كون أيديولوجيتهم الدينية تتسرب في أوعيتهم الفكرية التكوينية ، نظراً لكونهم يكونون مجتمعاً مغلقاً يأبى التغيير أو التغير ما أمكنه ذلك ، لذلك تعد الأعياد مهمة في نثر المنظومات الإسمنتية بين تلافيف العمل القائم في المجتمع اليهودي المغلق ، أما أهم تلك الأعياد فهي :

1 – العيد المسمى في المنظومة الإيديولوجية الدينية اليهودية : عيد «يوم الغفران» ويصادف هذا اليوم وفقاً للتقويم العبري في الأيام العشرة الأولى من شهر تشرين الأول من كل عام ، وينتهي في اليوم العاشر الذي يسمى بيوم «الغفران» وتُسمى هذه الأيام لدى كل اليهود بـ«أيام الخشوع» ، ويعد يوم «الغفران» هو اليوم الأقدس من بين كل أيام العيد العشرة ، وخلال هذه الأيام يصوم اليهود رجالاً ونساءً حوالي خمسٍ وعشرين ساعة ، ويبدأ صومهم منذ الساعة التاسعة مساءَ اليوم التاسع وينتهي ذلك الصوم في الساعة العاشرة من مساء اليوم العاشر ، وشْكل الإفطار الواجب تناوله ، يقترن ببزوغ النجم في هذا اليوم ، فتلتم العائلة حول مائدة الإفطار التي تحتوي على ما لذ وطاب من أنواع المأكولات والمشروبات ، وفقاً للمستوى العائلي الإِجتماعي والمالي .

2 ـ الأعياد الثلاثة الكبرى: وهي ثلاثة أعياد لكل منها مسماه وشكله من الإِحتفال الخاص به ، وهو منصوص عليه في كتابهم المقدس : «التوراة» ، ويرجع هذا العيد وهو من «الأعياد الكبرى» إلى التعاليم الخاصة بالنبي موسى بن عمران التي سجلها في كتاب التوراة ، أما العيد الأول منها فيسمى عيد الفصح الذي يقتصر فيه طعام الأكل على نوعٍ واحد من صنوف الطعام ، وهو «الخبز الفطير» وذلك اِنسجاماً مع الفعل الذي مارسه أجدادهم اليهود عند خروجهم من مصر إلى سيناء ، ويستغرق هذا العيد لديهم سبعة أيام ، اِعتباراً من الخامس عشر من شهر نيسان في كل عام .

فيما يسمى العيد الثاني بـ«عيد الأسابيع» وهو العيد الذي يقترن وقوعه بيوم نزول كتاب «التوراة المقدس» على النبي موسى ، والأمد الزمني لهذا العيد يومين ، ويصادف تاريخ مجيئه يوم السادس والسابع من شهر حزيران من كل عام.

أما العيد الثالث فيطلق عليه اليهود تسمية «عيد المضال» وهو عيد يتعلق بيوم البدء بالحصاد والفترة الذي يستغرقها هذا العيد هو ثمانية أيام.

3 ـ عيد الأنوار «الحنكورة».

4– عيد البوريم «القرعة» وهذا العيد ، كما يروي اليهود ، مقرون بذكرى خلاصهم من هامان العربي ، وموعد حدوثه في اليوم الرابع عشر من شهر آذار من كل عام ، [4] .

(4) «الأعياد والعبادة عند اليهود ، عن كتاب نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق ، ص 345 ـ 346 ».

العبادة عند اليهود

العبادات في أي دين هو اِلتزام لا واعي في المنظومة الأيديولوجية لذلك الدين في تعليماته الأساسية الذي ينبغي له التكرار من أجل ترسيخ تلك التعليمات والمفاهيم التي أفرزتها الرؤية الدينية في أذهان الملتزمين بذلك الدين من الذين يمارسون طقوس العبادة على ضوء ذلك الإيمان الديني ، ويتساوى ذلك الطقس العبادي فيما إذا كان الدين سماوياً أو وضعياً . . . بدائياً أو متطوراً ، قديماً أو حديثاً ، خاشعاً متعبداً متزلفاً من أجل رضا إله ذلك الدين .

ولا يختلف اليهود في ذلك التقليد عن غيرهم من البشر «المؤمنين» بأية منظومة أيديولوجية تربط السماء بالأرض وتتلازم فيها الدنيا الراهنة : الفانية بالآخرة الباقية الخالدة ، كما تقرر ذلك الرؤى الدينية السماوية ، ولكل مجموعة بشرية ملتزمة بتلك المنظومة الدينية مفاهيمها الخاصة حول التصورات الفكرية المجردة حول النهايات الدنيوية بالاستناد إلى المفاهيم السماوية ، واليهود على العموم لهم عباداتهم الخاصة التي تنص على التالي :

تأتي في مقدمة عباداتهم الدينية والفرائض اليومية المفروضة على كل مَنْ يلتزم بتطبيق تلك الفرائض : الصلاة والصوم ، والصلاة تمارس من قبل المؤمنين بالدين اليهودي في ثلاثة أوقات خلال اليوم الواحد وذلك في الصباح والظهر والمساء ، ولكن ما هو مميز في هذه الممارسة الدينية اليومية عند اليهود هو جمع صلاتي «الظهر والمساء» لتأديتها في وقتٍ واحد ، إذ أنهما تقامان معاً عند المساء بعيد مغيب الشمس .

فلماذا كان هذا الجمع في الصلاة لدى قومٍ مشهود لهم بالتزمت الديني والممارسة المتعصبة دون إيجاد أي تغيير ؟ وهل تسربَ هذا التقليد اليهودي إلى بعض الطوائف الإسلامية التي تركت النص القرآني الذي دعا المؤمنين بالدين الإسلامي إلى الصلوات الخمس في أوقاتها ، والتي شدد الرسول محمد بن عبد الله ﷺ وخلفائه الراشدين [رض] على تنفيذ بنود تلك التعليمات بدقة ؟ .

أما الصيام كفريضة دينية عند اليهود فقد تعددت مناسباته ، واِختلفت عدد أيامه ، وكان صوم يوم الغفران هو الشعيرة الدينية الأولى عند أبناء الطائفة اليهودية ، وتبتديء في يوم العاشر من تشرين الأول ـ وفقا للتقويم العبري ـ وخلال هذا اليوم كله يقضيه الشخص اليهودي بالصيام التام : سواء أكان من الرجال أو النساء ، ولمدة 25 ساعة بالتمام والكمال ، وتقترن لحظة الإفطار بظهور النجم خلال اليوم التالي . وفي التاسع من شهر آب ـ ودائماً حسب التقويم اليهودي ـ يقضي اليهود كلهم يومهم في الصوم ، ومناسبة هذا الصيام ، كما تقول رواياتهم ، هو خراب بيت المقدس وسقوط دولة يهوذا على يد القائد العراقي البابلي نبوخذ نصر .

الاِنتقال من دين وضعي إلى دين سماوي

لابد من الإشارة في هذا السياق إلى طبيعة هذا الدين ، اِبتداءً ، كانت في الأساس ديانة وضعية وأرضية ، أي أنها خالية من أي بُعدٍ سماوي ، لذلك عُدَّ العقاب والثواب على الأرض تحديداً ، وإنَّ الإيمان بالحياة في هذه الدنيا فقط ، ولم يؤمن اليهود بالحياة الأخرى ، ولم يكونوا يعرفون يوم البعث ويوم الحساب قط ، حتى كان اِحتلال بابل سنة 334 قبل الميلاد على يد القائد العسكري العالمي الشاب الإسكندر المقدوني ، ومن خلال العاصمة الكبيرة للمملكة البابلية ـ أي من بابل بالذات ـ تأثرت منطقة الشرق بشكل عام بالفكر الغنوصي الهيليني ، وكذلك تأثرت بالفلسفة اليونانية .

وقد تأثرت الديانة اليهودية ، من بين مدارس الشرق الفكرية أيضاً ، بالفكر الهيلني وبذلك يمكن القول أنها تحولت من عقيدة وضعية دنيوية ، إلى عقيدة توحيدية سماوية ، كان ذلك التأثر يشكل أحد النواحي الأساسية في الفكر الديني اليهودي ، أما التأثر الآخر ـ وهو الثاني ، فقد أخذ اليهود الفكر العرفاني الإسلامي الإشراقي في كل مراحله التكوينية والإبداعية ، خاصة تأثرهم بفلسفة اِبن عربي ، وباتوا يؤمنون بالذات الإلهية العليا التي تتجلى من خلال العوامل العشرة ، وذلك في مذهب القبالا (أي مدرسة التصوف عند اليهود) وكتابهم الزوهار .

إذا كانت أسـطورة التكوين ، ومسـألة الطوفان ، وقضية موسى ، والنسـب الإبراهيمي ، ويوم السبت ، والوصايا العشر عند الملك حمـورابي ، وعـودة المخلـص ، وخطيئـة آدم وحواء مستمدة من التاريخ البابلي ، بشهادة الآثار العراقية والنصوص التاريخية ، والتوحيد عندهم قد نجم عن التأثر بالفلسفة الإغريقية ، والتصوف مقتبس مـن الرؤيـة الإسـلامية : فمـاذا بقـي لليهـود إذاً ؟ ولعـل في «عشـقهم العـدواني» لبابـل : أي للمصـدر الروحـي والحضاري والثقافي والديني ، عند اليهود وبالترابط مع سـجيتهم المعهودة في الاِسـتيلاء على تراث الغير ، واِستحواذهم على محتوياته الفكرية ، حيث تركوا بصماتهم عـلى كتـابهم المقدس : التوراة ، فماذا بقي عندهم يا تـُرى ؟ .

لنقرأ بعضاً من ذلك «العشق العدواني» بحق ساكني بابل :

«يا اِبنة بابل الراحلة إلى الخراب ، طوبى لمـن يجازيـك مـا كافأتينـا بـه ، طـوبى لمـن يمسك أطفالك ويضرب بهم الصخرة» ، المزمور 8–9.

المسيح المنتظر عند اليهود

فكـرة الخلـود راودت البشـرية منذ العهـود القديمـة ، وجـرى تصـور ذلـك الخلـود بأشـكال مختلفة ، ولعل فكرة أو مفهوم «النبي الخضر» الـذي يقطـن بجـوار المـاء لـدى شعوب الشرق هو مثال ملموس عند مجموع الأمم ، ولا يختلف الدين اليهودي أو اليهود عن غيرهم من الشعوب الأخـرى في الإلتـزام بتلـك «الأسـطورة» المتخيلـة ، ففـي إطـار سعيهم للخلاص من «جور حاضرهم» المفروض عليهم مـن قبـل الآخـرين ، فقـد آمـن اليهود بـ«الموشياح» : أي المسيح المنتظر الذي سيأتي في النهايات الأخيـرة مـن التـاريخ البشري ليملأ الأرض عدلاً وسلاماً ، ومن المدهش حقاً أنْ يكون بعض أنبياء اليهـود قـد «بشروا» بمجيء هذا المسيح منذ أكثر من ألفي وخمسمائة عام قبل الميلاد اِنصـرمت عـلى التاريخ البشري .

إذ يقول النبي أشعيا «ما أجمل على الجبـال قـدمي المبشـر ، المخبـر بالسـلام ، المبشـر بالخير ، المخير بالخلاص» والذي أضاف في نبوءته تلك إنَّ «الذئب والحمل يرعيان معاً ، والأسد يأكل التبن كالبقر ، أما الحية فالتراب طعامها ، لا يؤذون ولا يهلكون» ، (عن نزهة المشتاق ، مصدر سبق ذكره) ، ولكن الباحث السيد عبد المجيد همو يتساءل عن الأساس المعرفي لهذه الفكرة بأنها تنتمي إلى «العهد الفارسـي المتـأخر مـن خـلال القـول التـالي »: وفكرة المخلـِّص كما عرفنا جاءت بعد اِتصال بني إسرائيل بـالفرس ، ولهـذا ؛ أرى أنَّ هـذا السِفر لم يسجل إلا في العهد الفارسي« والسفر المقصود بالحديث هو سِفر «النبي الصغير» : ميخا [5].

---

(5)اليهودية بعد عزرا وكيف أقرت ، دار الأوائل ، ص 53 ـ 54 .

ومن الجدير ذكره أنَّ عزرا هو الذي أسس اليوم الخاص باليهود وهو يوم السبت ، وفي ذلك يؤكد العلامة عجاج نويهض في الصفحة 389 من كتاب «بروتوكلات حكماء صهيون» على التالي :«وطلب عزرا ألا يُعمل شيء في يوم السبت ورأى في السوق معاملات أخذ وعطاء فأبطلها» . وتذهب القصة السومرية إلى أن بلاد (دلمون) كانت جزيرة تتمتع بقدسية خاصة وكانت فيها آلهة تعَبَدَ لها أهلُ العراق ، وقد وصفت كونها (أرض الخلود التي لا يوجد فيها مرض أو موت أو حزن ، ولا ينعق فيها غراب ، ولا ترفع الطيور أصواتها بعضها فوق بعض ، ولا تفترس أسودها ، ولا يأكل ذئبٌ فيها حملا.) [6].

(□)عن كتاب العرب واليهود في التاريخ د. أحمد سوسة ، ص197 .

»أليس هذه بابل العظيمة التي بنيتها لبيت الملك بقوة اقتداري ولجلال مجدي«

نبوخذ نصر.. سفر دانيال4:30

مدينة بابل التاريخية . . . عاصمة البابليين في الزمان القديم ، كانت المدينة الأشهر عالمياً في زمن الإمبراطوريات السالفة والأعظم بين المدن القائمة آنذاك ، كانت المدينة التي شهدت نشأة الكون بالمعنى المجازي ، وأعطته دفقها الإنساني العالمي ، وأعطى إمبراطورها العظيم حمورابي شريعته . . . شريعتها القانونية التي أصبحت إرثاً إنسانياً فاضت أنواره على كل النصوص الإلهية والبشرية ، فغدت حاضرة الدنيا المتوهجة بالنور والقوة والعظمة والتنظيم وحدائقها المعجزة للدرجة التي عدها المؤرخون إحدى أهم عجائب الدنيا السبع .

مثلما صار شموخ مجدها متفجراً بالضياء نحو عنان السماء والزاهر بالفيض الحيوي الذي فاض على القريبين والبعيدين ، وتجمعت لها من الخصائص التاريخية النبيلة ما لم يتجمع لمدينة من قبلها أبداً : شرائعها القانونية ، حدائقها الغنّاء ، أبراجها العالية ، ومدارسها المليئة بالمعرفة والحكمة ، أساطيرها المحيرة للألباب والعقول ، سحرها الموسوم في المعادلات الرياضية الغالبة للتجريد العقلي ، الأرقام الحسابية وزواياها المدببة المخطوطة على الرُقم الطينية والرمال العراقية ، الرصد المتفحص والتفكير المتدبر في الظواهر الفلكية ، والإمعان المدقق في الكواكب لبذل الجهود لمعرفة ملابسات المستقبل .

هذه المدينة العظيمة دنس تربتها الطيبة المقدسة العامرة الغزاةُ من التكوينين البشريين :اليهودي الصهيوني ، والفارسي العنصري في غفلةٍ من الزمن ، ومن تجاوز قبيح على معالم تاريخ فذّ وأسطوري ، وخلال سنواتٍ لم تتعد الخمسة عقود قاد فيها الحكم عراقيون بواسل تمكن الغزاة من الشرق الفارسي وعبر دعم عثة يهودية لم تنطفئ نيران حقدها التاريخي . . . تمكنوا من إجتياحها : أي بعد نصف قرن دمرها كلياً الغزاة ، اِنطفأت أنوارها الفياضة المشعة على البشرية . . . إشعاع شمس المعرفة الباعثة للدفء في أوصال الفصول الشتائية الباردة والجرداء ، وذبلت زهرة المدائن الكونية في الشجرة الإنسانية التي كانت وافرة الظل وعظيمة العطاء .

كان محيط هذه المدينة العظيمة : بابل ـ كما تقول الوثائق التاريخية ـ 55 ميلاً وربع الميل ، وكان هذا المحيط يشرف على خندق عميق يجري فيه الماء طوال العام وفق منسوب لا يستطيع الفارس من الخوض في لجتّه ، وخلف هذا الخندق العميق سورُ عظيم يتشكل من الآجر المصنوع لهذا الغرض بما يجعله قوياً وعصياً على الاِنهدام جرّاء العوامل المناخية أو التخريب المتعمد بقوة البشر ، كان اِرتفاع هذا السور حوالي المائتي ذراع في اِستباق أمني للحفاظ على أبناء المجتمع البابلي وصيانة الدولة من هجمات الأعداء المحتملة ، فيما كان عرضه الخمسين ذراعاً يعطي الحراس المناط بهم الحفاظ على المدينة حرية حركتهم وتحركهم بمعية أسلحتهم وخيولهم المسروجة الموضوعة على أهبة الاِستعداد لمواجهة الطوارئ وإنذار الجيش المتفرغ لحماية المدينة والدفاع عن شرفها ،[7] .

فيما أكد الدكتور كالدواي بعد تفحصٍ للدلائل التاريخية على أنَّ عرض ذلك السور تراوح بين 17 و22 متراً ، [8] ، وهو ما يعطي للمدافعين حرية الحركة في لحظة المواجهة للخصوم المفترضين ، متسائلاً في عين الوقت : فأي جيشٍ معادٍ يستطيع الإقدام على اِختراق هذه الأسوار المحصنّة إنْ لم تُسلَّم من الداخل ؟ وما ينطوي عليه ذلك التساؤل من تحذير مُسبق حول إمكانية وجود الخيانة في الداخل البابلي ، وضرورة الاِستعداد لمواجهة ظروف هذا الاِحتمال ! .

(□) هذا ما يقوله المؤرخ اليوناني هيرودوتس (1 : 78 و 79) عن كتاب نزهة المشتاق ، مصدر سبق ذكره ، ص30 .

(□) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

نهر شبر – شباروا – كباروا – خابورا (العبيرو) أو (الهبيرو) أو (الخبيرو) فيما يخص المصطلح العبري

إنَّ ما يعنينا في هذا البحث والجهد الذي نبذله بهذا الصدد هو ما يتعلق بذلك النهر وعلاقته بالواقع الجغرافي الذي يمر فيه هذا النهر . . . نعني بها مدينة الكفل وعلاقتها بالنهر المتفرع فيها والاِسم القديم الذي يحمله ، ونهر «الخابور» اِسم يشير إلى نهر أو المنطقة التي يجري فوق أراضيها ذلك النهر ، وهو ليس نهر الخابور الذي يقع في القطر العربي السوري قطعاً ، بل هو فرعٌ معروف تاريخياً يستطيع أي باحث التوقف عند تفاصيله إذا ما أراد البحث العميق والجاد فيه أو الاِطلاع على التفاصيل الخاصة به ، وليس الكتابة بعقلية الأديب المغرم بالإنشاء.

إننا نعني بنهر الخابور هو النهر القديم الذي كان حاضراً في توصيف ذلك النهر وتحديد اِسمه الذي نعتقد أنه كان ناجماً عن التحوير الخاص باِسم «نهر كبارو» أو «نهر شبارو» ، وعلى أية حال فإنَّ التحوير اللغوي ينتقل ما بين اللغة الفصحى واللهجة العامية ، وربما كان تحويراً قبيحاً ، ولكن من المؤكد فإنَّ الجذر اللغوي المشترك يظل بارزاً للعين الفاحصة المدققة ، والمثال العراقي الذي سنتحدث عنه تالياً ربما يلخِّص ما نريد التوصل إليه ، فالعلاقة ما بين «إكضب» العامية و«أِقبض» الفصحى ليست تنطوي على المعنى المشترك لكلا الكلمتين فقط ، وإنما أيضاً على مواضع الاِستبدال المشترك للحروف المكونة للكلمتين كذلك ، مع بعض التغيير لها وفقاً للهجات الدارجة واِستخدامهما في بعض المناطق العراقية المتنوعة ، إذ ما هو مستخدم في اللهجات الموصلية أو في ريف الرمادي ـ مثلاً ـ هو غير ما هو متداول في مدينة الناصرية

أو العمارة وريفهما ، وكلاهما يختلفان في الإستخدام اليومي عند أهالي البصرة أو سكان بغداد أو المنطقة العراقية الوسطى ، رغم وحدانية اللغة العربية الفصحى التي حفظها القرآن الكريم من التغيير والتحوير والتحول والإستبدال ، وجعلها وسيلة التفاهم الأساسية بين كل العرب في مشارق الأرض ومغاربها .

وسوف نعرض ما توصلنا إليه من «حقائق» على هذا الصعيد ، بناءً على الغوص المعمَّق في المصادر المتاحة لنا ـ المترجمة أو غير المترجمة ـ حول الموضوع من أجل تثبيت «المنطقة الجغرافية» التي شكلت الإطار المكاني لـ«نبوءات» حزقيال ونحاول تقديم المعلومات التي توصلنا إليها بغية إدراجها أمام القارئ الكريم من دون إقرانها بأي تعليق نقدي عليها ، تاركين الحكم والإستنتاج والإستخلاص لكل مَنْ يطلِّع على هذه المعلومات .

وفي هذا السياق نشير باديء ذي بدء إلى بعض الإلتباسات المتعلقة بالنصوص اللغوية والمتعلقة بالتحوير : «إنَّ حداقل هو نهر دجلة» وبما أنَّ هذا النهر تميز بوفرة المياه التي كانت موارة وسريعة الجريان في تلك الفترة ، فإنَّ الملك حمورابي قد أطلق على نفسه اِسماً مقارباً لإسم النهر هو «مرافل» كما يبدو من الكلمتين المتقاربتين لغوياً والمتشابهتين تركيبياً .

وفي هذا الصدد يستخلص السر هنري رولنص أنَّ كثرة تداول الكلمات والتباعد الجغرافي للذين يستعملونها قد أدت بالعامة ، وهو يقصد المجتمع بشكل عام ، إلى تحوير أو تحريف كلمة «كندوش» أو «كردونباس» إلى تعبيرات أخرى ، وقد أَفضى كل ذلك التحريف أو التحوير وبازدياد توالي السنوات وتعاقب القرون إلى كلمة «عدن» وإلى مدينة «كلنة» ، وعلى ضوء ذلك اِفترض رولنصن أنَّ كلنة تلك تقابل اِسم «نبور» ، الموقع الأثري المعرف في وسط العراق ، وفي محافظة القادسية على وجه التحديد .

وبالنسبة إلى كلمة «راسن» الدالة على اِسم للمدينة التي أشار إليها بالإسم «بوشارت» فيما قال عنها نولدكة على أنها «لارسا» ، وكل تلك المعلومات منقولة عن الباحثين المشار إليهما مقتطعة من كتاب «نزهة المشتاق ليوسف رزق الله» .

وعند القراءة المدققة في سفر حزقيال : الإصحاح الثالث ، العدد الخامس عشر ، نتوقف عند الآية التي يقول فيهاَ حزقيال : «فجئت المسبيين عند تل أبيب الساكنين عند نهر كبار» وحول تل أبيب يتحدث المصدر بالقول أنَّ موقعها التاريخي ما يزال مجهولاً ، على أنه يزيد بالقول عنها بالتالي : «إنَّ معنى تل أبيب في العبرية» يساوى عبر الترجمة الحرفية هو «تل السنبلة» فيما يقول فردريك دلج محاولاً الاِجتهاد في تلك الوقائع «إذا أخذنا هذا الاِسم بابلياً فلفظه الصحيح يجب أنْ يكون «تل أبوب أو تل أبوبي» ، خصوصاً أن لفظ «بوبو» يعني في اللغة الآشورية هو الطوفان ،فيكون المقابل اللغوي «لتل أبوب» هو تل الطوفان وهو تل عمه الخراب منذ قديم الزمان ، ومن التعبيرات الآشورية القديمة التي وردت في إحدى الرُقم الطينية تخبرنا عن التالي «وقد خربت المدينة كتل أبوبي» أو جعلت المدينة كتل أبوبي« على طريقة التعبير المتداول عند العراقيين أو العرب والقائل «بعد خراب البصرة» .

وفي أية حال أنَّ التسمية هنا هي تسمية آشورية وكانت مستعملة حتى قبل السبي ، فمن أين ليهود السبي تمكنهم من إطلاق أسماء محددة على مدن في بابل ؟ .

على أننا سنعرض هنا بعض آراء المتضلعين في مجال دراسة «التوراة» بخصوص ما توصلوا إليه بصدد أنهار بابل ، وهو الموضوع الأساس الذي يحظى باِهتمامنا راهنا ، فالعالم البحاثة «دلتش» : «يرتئي أنَّ جنة عدن كانت تقع في سهل بابل ، وكان تسقى من مياه نهر الفرات العذب ، ويوجد نهر فيشون ونهر البالاكوباس» ونهر «فيشون» كان اِسماً يطلق على المنخفض الموجود بقرب كربلاء الحالية ، والمعروف بأبي دبس ، فيما كان يطلق اِسم جيحون على نهر الهندية الحالي ، وعلى رأي العالم ويلكوكس هو نهر كبير يشير بصورة متطابقة ، وفقاً للآثار والدراسات التنقيبية ، إلى التعبير المذكور في سفر حزقيال وكذلك نهر «أهوا» الوارد ذكره في سفر عزرا ، والبالاكوباس الذي ركب فيه الاِسكندر الكبير في بعض غزواته والذي سيسمى بنهر الكوفة في العهد العربي الإسلامي».

وتناول ذلك الموضوع المتعلق بالنهر سِفر الملوك الثاني (18:11) بالخبر التالي : «وسبى ملك آشور إسرائيل [أي اليهود] الى آشور ووضعهم في حلم و«خابورة» وهو نهر ـ كما يقول النص يسمى بنهر ـ جزان وفي مدن ماذي» فيما يذكر سِفر حزقيال الحديث المنسوب عنه وإليه قوله «كان في السنة الثلاثين في الشهر الرابع وفي يومه الخامس من الشهر وأنا بين المسبيين عند نهر كبارو أي خابورة : «إنَّ السماوات اِنفتحت فرأيت رؤى الله » .

أما في كتاب معجم البلدان فلا يمكن تلمس المعلومات السابقة نظراً لتسجيل تفصيلات واسعة من شأنها إضاعة البوصلة التي نخصص بحثنا حول الوصول إليه عبر القول التالي «من أعمال سقي الفرات ستة طساسيج : طسوج عين التمر والفلوجتان العليا والسفلى وطسوج بابل والبهقباذ الأوسط أربعة طساسيج : سورا وباروسما والجبة والبداة وطسوج نهر الملك ، والبهقباذ الأسفل خمسة طساسيج : الكوفة وفرات باد قلي والسيليحين وطسوج الحيرة وطسوج تستر وطسوج هرمزجرد».

وهنا نلحظ من دراستنا التدقيقية لهذا النص الوارد في مصنف معجم البلدان عدم ورود أي ذكر لنهر كبارو أو نهر كبار أو حتى ذكر النهر المعروف بـ«نهر شبر» ، والملاحظ أنه لا توجد أية إشارة إلى مدينة الكفل أو نهر الكفل ، أو قد تكون الإشارة إلى تلك المدينة وذلك النهر بشكلٍ غير مباشر من خلال التطرق إلى نهر «بورسيبا» : التي هي برس الآن ، وقد كتبها مؤلفُ معجم البلدان بصيغة «بورسما» ، والمعتقد أنَّ المقصود به هو نهر الكفل «كبارو» من سقي الفرات من جهة برس الآن .

أما نهر الفرات الحالي القادم من سدة الهندية بعد بناء السد عام 1913 وقبل ذلك التاريخ كان نهر الكفل يأتي من نهر الفرات في الحلة من جهة برس .

وفي نفس الموضوع يقول الأستاذ يوسف رزق الله غنيمة ، [9] ، «وبقي الإسرائيليون ـ المقصود بهم اليهود ـ في وادي الخابور زمناً طويلاً حتى بعد الفتح الإسلامي» وهنا تأتي الإشارة بشكل واضح إلى وادٍ يسمى بوادي الخابور . . . وبعبارة أخرى فإنَّ الوادي في هذه المرة مقروناً بإسم نهر الخابور أي الذي يسقيه نهر «الخابور» وهو ما يعني وجود نهر يسقيها وهو نهر الخابور كما يدل على الإستنتاج المنطقي لعموم النص الوارد في كتاب الأستاذ غنيمة ، والذي يشير النص ذاته إلى وجود نهر الخابور الحالي المعروف في أكثر من مكان للتدليل على ضرورة عدم خلط هذا الإسم مع الأسماء الأخرى :

«الخابور نهر لا يزال يعرف بإسمه هذا حتى اليوم وفي المؤلفات اليونانية كان اليونانيون يطلقون عليه إسم خابوراس وهو من سواعد الفرات في كورة جوزان الواقعة بين طوسان ونصيبين» ولتوضيح اللبس الذي قد يثيره ورود الإسم نصيبين نسارع للقول وبالإستناد إلى بعض المعلومات التاريخية أنَّ هناك نصيبين أخرى تقع بالقرب من مدينة بابل التاريخية ، فيما يذكر السيد غنيمة في الصفحة 102 ما يلي «في بابل وبرتا وتغر وسلوقية وطيسفون ونصيبين التي كانت في بابل وهي غير نصيبين المشهورة ونهر دعة وبورسيبا ويمياديتة وسورا . . . إلخ» .

وفي سياق هذا البحث ينبغي إيراد النصوص التي إحتواها سِفر حزقيال النبي حول ورود إسم نهر الخابور :

«وإذا بمجد الرب واقف هناك كالمجد الذي رأيته عند نهر خابورة» سِفر حزقيال 17 الآية 21 . وفي سِفره ذاك وفي 10 / 11 الآية 16 يقول حزقيال «هذا هو الحيوان الذي رأيته عند نهر خابورة» وفي ذات السِفر وفي الآية 20 يقول حزقيال «هذا الحيوان الذي رأيته تحت إله إسرائيل عند نهر خابورة» . وفي الآية الأولى من كتاب الإصحاح الأول يقول حزقيال «كان في السنة الثلاثين في الشهر الرابع وأنا بين المسبيين عند نهر خابورة أنَّ السماوات إنفتحت ورأيت رؤى الله» .

(9) عن كتاب نزهة المشتاق ، مصدر سبق ذكره ، على الصفحة 44 .

وأخيراً سوف نعرض المعلومة التالية التي اِنطوى عليها النص المقتطع من كتاب الزبور الذي ستتطرق إليه لاحقاً والذي يشير بوضوح وبشكل قاطع إلى ما نريد التوصل إليه عبر وضع اليد على الهدف الحقيقي الذي نرمي إليه من هذا البحث ، والذي نعتقد أنه ذات النهر الذي رأى حزقيال عند ضفافه «رؤياه العنصرية» حول عموم أيديولوجيته المسقبلية المنغلقة والمتعصبة ضد كل ما هو غير يهودي ، وهو «نهر كبار» من أنهار بابل، إذ جاء في كتاب الزبور {137 : 1} ما يلي : «على أنهار بابل هناك جلسنا» وأول مَنْ أشار إلى ذلك العلاّمة نلدكة وأيده في رأيه البحاثة «هلبرخت» إذ عثر مرتين على «تاروكبارو» في الرُقم الطينية المكتشفة في منطقة بابل ، إذ يؤكد هذا العالِم على أنَّ ذلك النهر يقع في أرض الكلدانيين وعلى ضفته دُفِن حزقيال .

بورسيبا (برس)..
بابل الثانية

إن بابل كأس ذهب بيد الرب تسكر كل الأرض من خمرها شربت الأمم .

(التوراة - ارميا 7 : 51)

لقد غزا الآراميون بلاد الرافدين : العراق القديم ، فأسسوا فيه عدة دويلات منها دويلة (بيت عديني) ومركزها في بورسيبا وابرز ملوكهم (أداد - بلاداان وهو من سلالة بابل الرابعة وحكم بين سنه 1067-1047 ق . م) ، أما الحديث عن المدينة المعروفة بالوثائق التاريخية بإسم بورسيبا ، فهو الحديث الذي يخص مدينة «برس الحالية» التي غدت اليوم أثراً بعد عين في حين أنها كانت مشهورة بجمالها ومنعتها وخضرتها الوارفة ، وتعد اليوم آثارها وأوابدها مجرد بقايا ، تشهد على الهيكل الذي سمى بهيكل الإله «نبو».

ويكفي الإشارة إلى عظمتها التكوينية والمعمارية أنها كانت تقاس بمدينة بابل العظيمة في ذلك الزمان الغارق في القدم ، إذ كانت تسمى في عهد آشور بانيبال الذي حكم العراق منذ سنة 686 ق م وإلى 626 ق م ، إذ كانت تسمى «بابل الثانية» ، وكانت هذه المدينة تبعد عن مدينة بابل مسافة خمسة أميال جنوب غرب ، وهي ذات المسافة التي تفصل بين بورسيبا ومدينة الكفل الحالية ، وفي ذلك يقول مؤلف كتاب نزهة المشتاق [10] ، التالي :

«أما بابل فكانت على عدوة الفرات الشرقية وأما بورسيبا فتقع على عدوة الفرات الغربية وفيها برج أزيد» الذي يقف طوداً شامخاً لمراقبة الكواكب ورصد حركتها وتقرير ما يترتب على تلك المراقبة من معلومات ، وذلك من خلال تمترسهم فوق المرتفع في ذلك البرج .

(□□) عن كتابه المعنون بنزهة المشتاق ، على الصفحة 66 .

ويأخذنا البحث الجاد الذي يحاول اِكتشاف المجهول من المقدمات التاريخية ، ومن خلال التدقيق بالمعلومات والمعطيات التاريخية والآثارية والتنقيبية ، للإطلال على أنهار بابل القديمة التي هي من الكثرة في مجال التفرعات بحيث لا يمكن مسك أطرافها أو معرفتها كلها في بحث مركز حول قضية محددة ، ولكننا سنتوجه إلى ما يخص مدينة «الكفل» ، وما يعني وقوعها على ضفة النهر لهذا الفرات المعطاء الذي تتميز مياهه بالعذوبة ويؤثر غرينه على خصوبة الأرض ، ولعل ما جاء في كتاب «التوراة» حول هذا النهر المقدس لهم وفق نظرتهم هو الذي سيسهم في إنارة المتاهة التاريخية لوجود هذا الفرع ويسلط الضوء على وجود بعض فروعه التي تتشابه وأسماء الفروع الأخرى .

وهو الذي أهال شيئاً من الاِلتباس والغموض على عقول البعض ممن يدعِّي حكمة البحث الديني التاريخي ويعيِّر الآخرين بسبب وقوعهم في إطلاق الاِفتراضات التي ربما كانت صحيحة من وجهة نظرهم ، ولكنها ليست مدعَّمة بالشواهد التاريخية ، وذلك بسبب أساسي يتعلق بالترجمة اللغوية للنصوص القديمة وتنقلها كمعلومات في أكثر من لغة وعلى أيدي العديد من الباحثين ممن هم لا ينتمون للمنطقة ، ولا يعرفون بشكل مباشر آثارها ولا يدركون لغتها القديمة ، وكل ذلك أسهم ولا شك في وصول تلك الأسماء الدّالة على أحد فروع نهر الفرات بشكل مغاير لبنيتها اللغوية ، وجعلها متمحورة في أغلب الأحيان على خلل ما ، جراء الترجمة والنقل ، ومحرفة جراء التقادم الزمني وتعاقب القرون .

حزقيال يواجه الاندماج بالتعصب والانغلاق

إنَّ النبي اليهودي الذي تزامن ظهوره أو مجيئه مع نتائج عمليات النفي المتكرر لليهود جراء الحروب وتطلع الحكـّام للسيطرة على المناطق المجاورة ، ودعوة البعض البهـودي المتنور للاِندماج والاِختلاط مع المجتمع االذي يعيش اليهود بين أكنافهم، إستفزته مثل هذه الدعوات التي ستذيب معالم تمايز اليهود عن غيرهم ، لقد إحتوت آراؤه اَلتي أصدرها على أنها تعاليم دينية مقدسة ، على دعوات أيديولوجية شكلت المثال الملمـوس عـلى ظـاهرتي الاِنغلاق والتعصب اللتين ظهرتا في التاريخ ، وما تزالان تلقيان بتأثيراتهما السلبيةعلى جميع الشعوب غير اليهودية التي هي على تماس معيشي مع اليهود سواء مستوطنين أو مقيمـين ، وفيما يلي قراءة مختارة من النصوص التي تركها تراث حزقيال للأجيال اليهودية اللاحقة :

ـ ففي سِـفره المعروف بالإصحاح الثالث ، ومن الآية الرابعة وحتى الآية التاسعة جـاء ما يأتي : «فقال لي يا اِبن آدم اِذهب اِمضِ إلى بيـت إسـرائيل وكلمهـم بكلامـي لأنـك غيـر مرسل إلى غامض اللغة ثقيل اللسان بل إلى بيت إسرائيل ، لا إلى شعوب كثيرة غامضة اللغة ثقيلة اللسان لستَ تفهم كلامهم ، فلو أرسلتك إلى هؤلاء لسمعوا لك .

لكن بيت إسرائيل لا يشاء أنْ يسمع لك لأنهم لا يشاؤون أنْ يسمعوا لي . لأنَّ كل بيت إسرائيل صِلاب الجباه وقساة القلوب . هاأنذا قد جعلت وجهك صلباً مثل وجوههم وجبهتك صلبة مثل جباههم . قد جعلت جبهتك كالماس أصلب من الصوان فلا تخفهم ولا ترتعب من وجوههم لأنهم بيت متمرد» ، علماً أنَّ السيد سيكل سيل وهو مؤلف كتاب [المرشد إلى الكتاب المقدس . . . يقول التالي] كما يورد ذلك القول السيد عجاج نويهض [11] ، :«ثم أنَّ الله لم يجعل وحيه وقفاً على أمة إسرائيل فقط ، فقد كلم الله مثلاً في ايوب في سِفرٍ من أسفار العهد القديم» ، الأمر الذي يشيع تناقضاً ما بين العهد القديم وكتاب التلمود الذي أسس له حزقيال .

ـ ويجمل بأقواله التصورات العرقية عن اليهود الذين هم شعب الله المختار وفقاً لمزاعمه بالأقوال التالية التي اِحتواها الإصحاح الخامس من سِفر حزقيال ، الآية الخامسة ـ السادسة :«هكذا قال السيد الرب . هذه أورشليم . في وسط الشعوب قد أقمتها وحواليها الأراضي . خالفت أحكامي بأشر الأمم وفرائضي بأشر من الأراضي التي حواليها . لأنَّ أحكامي رفضوها وفرائضي لم يسلكوا فيها . وفي الإصحاح السادس من السِفر ذاته يقول في الآية 11 ـ 12 . . . يقول التالي :«وهكذا قال السيد الرب . اِضرب بيدك وأخبط برجلك وقل آه على كل رجاسات بيت إسرائيل الشريرة حتى يسقطوا بالسيف وبالجوع وبالوباء .

ـ وفي الإصحاح السادس والثلاثين من سِفر حزقيال توضح الآية الثامنة والعشرين ما يلي : «وتسكنون الأرض التي أعطيتُ آباءكم وتكونون لي شعباً وأنا أكون لكم إلها» ، وهذه الآية التي تتكون من عشر كلمات ونيف هي المثال الملموس على عقلية شعب الله المختار كونها شكلت مضمون العقد الذي تم إبرامه بين الإله وشعبه المزعوم : «شعب الله المختار» ، وحاشا الله أنْ لا يساوي بين البشر ، ولكن هذه المنحة التي قُدمت لليهود هي بمثابة «الترضية» لإصرارهم على الاِلتزام بالقيم اليهودية وتعاليمها ورواياتها ، وبالتالي تبرز هذه الترضية أو المنحة درجة العلاقة المتينة وفق مزاعمهم التي يحتاجها اليهود للربط بين النبي إبراهيم «شراء المغارة» وأرض «الميعاد» أي فلسطين وهي أمور مستجدة بالتأكيد على الأحداث التي تزامن حدوثها في «أثناء وبعد السبي» البابلي .

---

(11) كما ينقل ذلك صاحب كتاب نزهة المشتاق . . . ، ص 46 .

ـ وفي الإصحاح الخامس والعشرين من سِفر حزقيال وفي الآية 16 ـ 17 ورد التالي : «لذلك هكذا قال السيد الرب.هاأنذا أمد يدي على الفلسطينيين وأستأصل الكريتيين وأهلك بقية ساحل البحر وأجري عليهم نقمات عظيمة بتأديب سخطٍ فيعلمون إني أنا الرب إذ أجعل نقمتي عليهم» .

وفي الآية 13 ـ 14 من السِفر ذاته ونفس الإصحاح يؤكد حزقيال :«لذلك هكذا قال السيد الرب وأمد يدي على أدوم وأقطع منها الإنسان والحيوان وأصيرها خراباً التي من وإلى دران يسقطون بالسيف وأجعل نقمتي في أدوم بيد شعبي إسرائيل فيفعلون بأدوم كغضبي وكسخطي فيعرفون نقمتي» .

وفي الإصحاح الثالث عشر من هذا السِفر ، اِبتداءً من الآية الأولى وحتى الآية الخامسة ، يصُّب حزقيال غضبه على أنبياء بني إسرائيل وهو ما يدل على «ثورته التصحيحية» على كل ما سبق حيث يقول :«وكان كلام الرب إليَّ قائلاً ، يا اِبن آدم تنبأ على أنبياء بني إسرائيل الذين يتنبؤون وقل للذين هم أنبياء من تلقاء ذواتهم اِسمعوا كلمة الرب ، هكذا قال السيد الرب . ويل للأنبياء الحمقى الذاهبين وراء روحهم ولم يروا شيئاً . أنبياؤك يا إسرائيل صاروا كالثعالب في الخرب».

ـ وجاء في الإصحاح السادس عشر ـ والنص المُستشهَد به ، والذي هو مقتطع من الآية السادسة وحتى الآية 15 ما يلي :«فمررت بك ورأيتك مدوسة بدمك فقلت لك بدمك عيشي ، وجعلتك ربوة كنبات الحقل ، فربوت وكبرت وبلغت زينة الأزيان . نهد ثدياك ونبت شعرك وكنت عريانة وعارية . فمررت بك وزمنك زمن الحب ، فبسطت ذيلي عليك وسترت عورتك وحلفت لك ودخلت معك في عهد يقول السيد الرب فصرت لي . فحممتك بالماء وغسلت عنك دماءك ومسحتك بالزيت . وألبستك مطرزة ونعلتك بالتخس وأزرتك بالكتان وكسوتك بزاً . وحليتك بالحلي فوضعت اسوارة في يديك وطوقاً في عنقك . ووضعت خزامة في أنفك وأقراطاً في أذنيك وتاج جمالٍ في رأسك .

فتحليت بالذهب والفضة ولباسك الكتان والبز والمطرز . وأكلت السميذ والعسل والزيت وجملت جداً جداً فصلحت لمملكة وخرج لك اِسم في الأمم لجمالك لأنه كان كاملاً ببهائي الذي جعلته يقول السيد الرب . فاِتكلت على جمالك وزينت على اِسمك وسكبت زناك على كل عابر فكان له».

ولم يرَ الأستاذ موريس بكاي بُداً من التعليق على تلك النزعة الأخلاقية التي جاءت في مجمل أسفار العهد القديم وذلك في الصفحة 34 سوى القول أنها تهويمات ذاتية وجمل فكرية لا ترتبط بزمان معين ولا تقترن بمكان محدد وذلك من خلال القول التالي : «الواقع أنَّ هذه الكتب تحتوي على حكايات أخلاقية النزعة محشوة بالأخطاء التاريخية وبأمور مستبعدة تاريخياً»

ـ يا ابنة بابل الراحلة إلى الخراب ، طوبى لمن يجازيك ما كافآتينا به ، طوبى لمن يمسك أطفالك ويضرب بهم الصخرة . (التوراة ، المزامير 9: 368) .

ـ ويصل التمييز بين البشر إلى حدوده القصوى عندما يجعل اليهود فوق مستوى الآخرين من البشر مهما كان نوعهم وجنسهم ، وهو طعنٌ مباشر في العدالة الإلهية التي خلقت كل البشر على أرضية المساواة التامة ، قبل أي اِعتبار آخر ، ويورد السيد العلامة بولس حنا مسعد وعلى الصفحة 52 من كتابه الذي اِحتوى نقداً لكتاب التلمود النص التالي :«إنَّ اليهود أحب إلى الله من الملائكة ، فالذي يصفع اليهودي كمن يصفع العناية الإلهية سواء بسواء ، وهذا ما يفسر لنا اِستحقاق الوثني وغير اليهودي الموت إذا ضرب يهودياً» ، وهو اِتجاه معاكس لما جاءت به الشرائع السماوية التي ترى ضرورة أنْ يكون الإنسان ودوداً متسامحاً في حالة عدم الرد بالمثل على أية إساءة قد توجه إليه ، كما هو معروف في قول السيد المسيح ، [ع] ، إذا ضُرِب خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر ، على سبيل المثال وليس الحصر .

من المعروف عند كل متابع أنَّ الدين السماوي خصوصاً هو موجه لكل البشرية ، كون مصدر هذا الدين هو الله الواحد الأحد ، خالق البشرية كلها على تعدد ألوانها واِختلاف ألسنتها : أي لغاتها وتنوع إقامتها الجغرافية . . . سواء أكانت تعيش في السهول أو الجبال أو الصحارى أو في المناطق السكنية الأخرى ، وعموم الرؤية الدينية : كنصوص تبحث في نقل البشر من عبادة الخلق أو المخلوق إلى عبادة الخالق ، بما ينهي الحاجة إلى الأفراد الآخرين في أي مجال ، ولكن تلك المنظومة الفكرية قد تعرضت موادها وآياتها إلى التغيير والتبديل وفقاً للأهواء والمصالح والمواقع التي يحتلها الحاكمون المتسلطون على البشر ، والرؤية الدينية هي الحلم الدائم للبشر : كوعد لإقامة الجنة الخالدة التي يحيا في ظلها الإنسان سعيداً بشكل أبدي يغترف من الخيرات ، ويجني من المتع المتنوعة ما يبغي ويتطلع إليه ، وقد حملت الكتب السماوية توصيفات حول الجنة الموعودة ما هو معروف عند كل أبناء المنطقة هذه : لقاء عبادة الواحد الخالق والاِلتزام بأوامره الأخلاقية ونواهيه عن السلوكيات الشريرة .

ولكنْ ، كما يبدو ، فإنَّ الأديان عند البعض قد تعرضت للتشويه الفكري والأخلاقي فأخرجها من طابعها الإنساني والكلي والشمولي الرحيب إلى مقولات متعصبة تحتكر المآلات الإنسانية في عرق معين ، وإلى تحديدات فكرية تصب في صالح مجموعة خاصة من البشر .

أسطورة شعب الله المختار

والدين اليهودي بما صار إليه اليوم نموذجاً تطبيقياً على ما تقدم ، فهو يحوي من التناقضات الهائلة حتى على مستوى النصوص ذاتها ، وهو ما يختلف جذرياً وجوهريا عن الأديان السماوية الأخرى : الإسلام والمسيحية إلى حدٍ ما ، وهو الأمر الذي يفرض علينا التعاطي مع هذا الدين عبر الملتزمين بنصوصه ، أو هكذا يزعمون ، على اِفتراض أنَّ النصوص الأصلية قد جرى التلاعب فيها . ويؤكد ذالك الدكتور أحمد شلبي في كتابه مقارنة الأديان ص 229 : (إنّ اليهود بعد أن اِنحرفت اعتقاداتهم وطباعهم تخلصوا من أسفار موسى الحقيقية ، لأنها كانت تختلف عما أرادوا من طباع وخلق ، وكتبوا سواها بما يتناسب مع ما يريدون من تاريخ وعقيدة) .

إذاً ، ينبغي علينا القول ، بادئ ذي بدء ، إنَّ الدين اليهودي عند طائفة اليهود لم يقتصر على عبادة الله الواحد الأحد ، الذي يرفض الظلم بشكل مطلق ، ولم تكن سريرة الأفراد المنضوين تحت راياته هو التهجد في محراب التوحيد اِستجابة للتعاليم الإلهية الحقّة ، بالقدر الذي غدا لديهم سلعة مطواعة عندهم ، يقدمونها في الخير الذي يصيبهم عبر الشر الذي يصيب الآخرين من الأمم الأخرى والأعراق التي تختلف عنهم والطوائف المتمايزة عن تكوينهم الفكري والأرومة العنصرية .

لقد أصبح كلٌ من «الإله» و«الشريعة الدينية الموسوية» بمثابة الخادم الأمين لعرقهم المتفرد والمتميز عن كل البشر ، والتعصب لأفعاله على كل المستويات التي قد تصيب الآخرين بالسوء والضرر ، تبريراً وتسويقاً لأفعال اليهود المضادة لبني البشر الذي خصهم الله بالمساواة المطلقة على أرضية الرؤية الإنسانية ، للدرجة التي أفرز هذا التعصب والتبرير نهجاً تطبيقياً وثقافة فكرية عامة تسعى لأدلجة عامة ينبغي لها أن تسود عقول كل اليهود في العالم بغض النظر عن المكان والزمان ، بعد أنْ كانت هذه الثقافة الفكرية تخص فئة محددة من اليهود تنحصر بالأحبار والفريسيين .

ولكن مع مجيء الأسرى إلى الدولة البابلية التي كانت فيها ميادين العلوم مفتوحة للجميع بالمقارنة مع تقاليدهم السابقة ، فقد اِستفاد منها البعض الأسير بفتح مدارس لهم وإقامة المعاهد الدينية التي أخذت على عاتقها زرق عقول المتعصبين من اليهود بمنظومات فكرية / تربوية بما يجعلهم من «طينة خاصة».

إنّ هذه المدارس والمعاهد جرى الحفاظ عليها طوال التاريخ البشري والتي كان فيها اليهود تكويناً اجتماعيا : فاعلاً أو غير فاعل ، ولم تتوقف حتى في أحلك الظروف فصارت «عزلة الذات على نفسها» ـ إن صح التعبير ـ تقليداً راسخاً وسراً مكيناً لا يمكن اِختراقه أبداً بسبب «الأرومة الواحدة» المنحدرة من الأمومة المتفردة التي هي الأساس في التكوين اليهودي من حيث الاِنتساب للدين وتعليماته ، والعرق البايلوجي .

ومن المعلوم ، أنَّ الأم هي التي تزرع في ذهن الاِبن أو البنت منظومة القيم في لحظات حبوه وطفولته الأولى وخلال طفولته الثانية : الناضجة ، ومراهقته قبل أن يخرج إلى المجتمع الأوسع ويكتسب المعارف الأخرى عنه ، وإذا علمنا أنَّ اليهود كانوا يعيشون في «غيتوات» خاصة ، فإنَّ هذا الفرد الذي شب عن طوق العزلة التربوية التي اِرتبط معها بالأم ، فإنه سيواجه مجتمعاً يهودياً خالصاً ، وما تعلمه من تقاليد يتقدمها ضرورة الاِحتراس المسبق من الجماعات المحيطة به التي جرى تصنيفها على أنها ، المعادية لعرقه بسبب أصوله اليهودية .

لقد كانت المهمة الأساسية لهذه المدارس والمعاهد على المستوى التربوي هي متابعة التنشئة للفرد اليهودي وحقنه برؤية الأنا وتعبئته بالروح المعادية للآخر : غير اليهودي : يتساوى في ذلك كل الأصناف الأخرى من البشر ، وتنظيم حركتهم وفق خطوط عملية متناسقة إنْ أمكن على أرضية التأليب الكامل والضغينة الشاملة وجمعها وتوظيبها في الغرائز البشرية الراسخة في «الدماء اليهودية النقية» ودمجها في القناعات الفكرية من أجل الصناعة المكينة لـ«العرق المميز» وصولاً إلى التسلح العام بمقولة «الشعب المختار» التي تتنافي مع مسؤولية الله الواحد عن جميع مخلوقاته البشرية ، بل تخالف حتى «المقولات التوراتية» ذاتها ، كما يُستشف ذلك من نصوص كتاب «التوراة» ذاته .

إنَّ أسطورة ـ أو بالأحرى خرافة ـ «شعب الله المختار» تخالف حتى التعليمات التوراتية ذاتها ، التي تؤكد على كينونة البدء البشري الموحد ، وليس بينهم أي اِختلاف في التمييز والتفضيل ، أي أنَّ الكلَ متساوون في الحقوق والواجبات بتعبير هذه الأيام ، فكتاب التوراة ـ مثلاً ـ يذكر أنَّ الجنس البشري في العالم كان واحداً واللغة كانت مشتركة وواحدة ، وفي ذلك يقول كتاب التوراة :«وكانت الأرض لساناً واحداً ولغة واحدة ، الإصحاح الحادي عشر ـ الآية رقم واحد» ، ولما كان النبي آدم : هو الأب الأول للبشرية عند اليهود كما جاء في ذلك الكتاب ، فقد اِختلف العلماء في كيفية التأصيل للغات والخلفيات المكونة للجنس البشري ، ومتى كان الاِستعمال الأول للغة المشتركة والمختلفة عند بني البشر خصوصاً ؟ وعلامَ يدُّل تنوعها ؟ وكيف كان نموها ؟ وما هي الظروف التاريخية لاِفتراق الواحدة عن الأخرى سواء بطبيعة أصوات الحروف أو تركيب الكلمات ؟ .

وللإجابة على تلك المشكلات الفكرية والحياتية ، اِنقسم الرأي اليهودي بصدد تلك المعضلات إلى أربعة آراء ضمتها أربعة مذاهب لعل أبرزها :«المذهب الأول وهم أتباع رأي التوراة القائل بوحدة أصل اللغات والأجناس» ،[12] ولما كان اليهود الذين جاؤوا إلى العراق على أثر سبيهم قد اِختلطوا بمجتمع متطور بالنسبة لواقعهم الفكري والمعرفي ، فقد ألفوا الحياة والبيئة البابلية للدرجة التي اِندمج أغلبهم فيها من حيث التكوين العائلي والعمل اليومي والعيش في تركيبة المجتمع القائم ، فالمؤلف السابق يؤكد في الصفحة السابعة والستين من كتابه على ما يلي :

«وكانت زيجاتهم من أقوام غير اليهود كونهم تغلغلوا في مفاصل الحياة البابلية وتمكنوا من الاِندماج في مجتمعهم الجديد ورفض قسم كبير منهم العودة» إلى المكان الذي سبوا منه .

(□□) من كتاب إسرائيل وعقيدة الأرض الموعودة ، ص 358 .

إنَّ هذا الإحجام عن العودة للمناطق التي أسِرَ منها اليهود ، وتفضيلهم حياة الإندماج الطوعي في المجتمع البابلي من خلال خيار العيش بين أفراد المجتمع من دون تمييز بينهم وبين السكان الأصليين ، وإختيار الزيجات البابليات من غير اليهوديات بغية تكوين الأسرة أطار صواب بعض اليهود وجعلهم يشعرون بإمكانية كسبهم إلى العيش في ظل «عقلية الغيتوات» .

وهو ما حفَّز حزقيال لمواجهة المهمة الآخذة في التكون الإجتماعي : الإندماج وتكوين الأسر المختلطة ، تحركه عوامل الخوف من إمكانية صيرورة ذلك الواقع حالة عامة من الصعب التغلب عليها مستقبلاً من عودة «القطيع اليهودي» إلى جادة «الأيديولوجية المنغلقة المتعصبة» .

ومما يضاعف المهمة العسيرة الواقعة على عاتق النبي حزقيال القاضية بتنفيذ مهمة مواجهة ظاهر الإندماج والإحجام عن العودة والرعب من مستقبل الذوبان للشعب اليهودي في المحيط المجتمعي البابلي الجديد ، والعيش بين أكنافه من دون «حلم وطموح العودة» الذي يعني بالنسبة إليه الخطر الماثل على تعاليم «الدين اليهودي» المتزمتة ، خاصة وأنَّ فرصة الإستفادة من المنجز الثقافي البابلي متوفرة ، ولكن الإرادة اليهودية الأيديولوجية هي المفتقدة ، كما تصور ذلك حزقيال .

لقد كان «النبي» الجديد حزقيال يتصور أو بالأحرى يعتقد إعتقاداً جازماً أنَّ المنظومة الدينية اليهودية ، من تعاليم وتقاليد وخلافهما ، مهددة بالإنقراض وباتت نهاياته مشرفة على الإحتمال بالذوبات المتوقع أو يكاد ، فأخذ مهمة النفخ بنيران التعصب والإنغلاق الخامدة إلى حين ، وتأجيجها مرة أخرى في صدور المأسورين من خلال الزعم بأنَّ ما جرى لهم مجرد عقاب إلهي لهم سينتهي عندما يطيعون تعاليمه ، وكانت همته العملية لا تفتر وحماسته اليومية لا تنقطع وعصبويته تتجدد لحظة بعد أخرى ، فكانت نبوءاته الواعدة وخطاباته النارية التي تهدد بالإنتقام الإلهي لكل مَنْ يترك دينه ويحاول التعايش مع الآخرين .

وقد تمكن حزقيال وبرفقته كل من دانيال ونحميا وعزرا الكاتب من شحن عموم اليهود بالبغضاء والحقد على جميع أبناء المجتمع البابلي ، وبذل الجهود للاِنصراف إلى «تربية الذات» على أسس التعاليم الإيديولوجية اليهودية لصيرورتهم قوة مستقبلية تمهد للعودة من الأسر ، أو عقلية الموائمة مع الحياة اليومية البابلية مع الحفاظ على الذات مستقلة منغلقة على ذاتها .

على أنَّ هذه «الولادة الأيديولوجية الجديدة» شكلت الاِنعطاف الأبرز في طابع الظرف الجديد لما بعد أسر اليهود على أيدي القوة العراقية الآسرة ، بتعبير آخر هو : ما تعارفت عليه الكتابات والأدبيات باسم «اِنعطاف السبي وما بعده» والتي تمت على يد النبي حزقيال خصوصاً وعلى أيدي ورثته الروحيين : دانيال ونحميا وعزرا الكاتب . (إنَّ هذه التوراة التي بين أيدينا ، وهي مصدر العقيدة للدين اليهودي الحالي ، تعتبر موسى خائن ،غضب الرب عليه وأمر بموته جزاء خيانته ، فكيف بعد ذلك ، يمكن أن ينسب هذا الدين اليهودي الحالي إلى موسى ؟) ، [13] .

وهذا المنحى الجديد في التفكير والتصور عما هو سائد عند اليهود الأسرى أو عند بعضهم لابد من تأسيسه على دعائم من المقولات الجديدة بالنسبة للأجيال الصاعدة ، مثلما ينبغي عليه أنْ يرتكز على حوادث تاريخية مُعترفة من الواقع ومنتقاة كأمثلة حسية لخدمة التفكير الجديد والتصور الهادف ، وبالتالي عليهما إخلاء المكان من الطابع القبلي الذي كان يغلّف الرؤية اليهودية ، ويبني مكانها تصورات تعتمد مزجها بالمكتسبات الحضارية البابلية التي كانت تتفاعل في المجتمع البابلي آنذاك . ويؤكد أولبرايت في كتابه : (الشعب اليهودي قديماً وحديثاً) ، (ج1 ، 29) : (فقد أصبح الآن على وجه التأكيد أنَّ القصص العبرية المتعلقة بالخليقة والطوفان والجنة ... الخ ، أما أنَّ تكون مأخوذة من السومريين مباشرة ، أو مأخوذة عن طريق الأكديين).

([13]) كما يرد ذلك في كتابه المعنون بروتوكولات حكماء صهيون ، تم ذكره سابقاً ، الصفحة 329 .

وكل ذلك التمازج والتلاقح أدى إلى صيرورة منظومة أيديولوجية يهودية جديدة وذلك على ضوء تعاقب السنوات على وجود أفراد السبي في المجتمع البابلي ، وقـد تميـزت هـذه المنظومة بدخول تغييرات عميقة وجوهرية في نوعية مفردات العقيدة اليهوديـة وطقوسـها العملية التي كان أبرز معالمها اِستعانة هذه المنظومة الأيديولوجية بتاريخ مفتعل لليهـود ، من ناحية ، وما أفرزه المجتمع البابلـي من أفكار وأسـاطير وطقوس من ناحية أخرى .

ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً القرآن الكريم

لقد تميز المسار الجديد الذي تولد عن هذا التمازج الذي تحدثنا عنه فيما تقدم بالإنعطاف الحاد في الأطروحات التي تؤلف المقولات الجديدة للدين اليهودي والذي سادت الجسم المجتمعي لما يسمى بيهود ما بعد السبي ، ذلك هو الإنجاز الفكري الذي وسم عمل النبي حزقيال . ويؤكد الكاتب اليهودي زلمان شازار في كتابه تاريخ نقد العهد القديم ، ص 165 ، ويقول (تأثير بابل على نصوص الكتاب اليهودي المقدس أمر واضح ومعترف به : لقد انبهر العلماء عندما اكتشفوا التشابه الكبير بين الكتابات المقدسة مع الكتابات البابلية إلى حد التطابق الكامل ، بحيث فقد الكتاب المقدس قيمته المميزة) . ونستشهد أيضاً بقول المؤرخ الفرنسي الكبير (جان بوتير)في هذا الصدد .. (منذ عام 1882 بعد أنْ تم التمكن من قراءة الكتابة المسمارية والكشف عن كنوز الكتابات العراقية القديمة ، فقد الكتاب المقدس أهميته العظمى باِعتباره أقدم كتاب عن تاريخ البشرية وتحول إلى كتاب أدبي وديني) .

وأصبح من العلامات الفارقة لطبيعة «المكون والمؤسس الجديد وهو النبي حزقيال» ولعل النتف التالية التي جمعناها من بعض المصادر تدلل على ما نذهب إليه حول الموروث البابلي على وجه التحديد كي نكتشف حجم التغييرات الفعلية في المقولات الجديدة للفكر اليهودي لما بعد السبي ، إذ يقول العالم والباحث موريس بكاي في كتاب له نجم عن الدراسة المعمقة للكتب المقدسة على ضوء المعارف الحديثة ، وعلى الصفحة السبعين من كتابه ، إذ هو يورد قول الأب ديفو التالي «إنّ ما تتميز به هذه الأقوال الموروثة عن روايات نادرة يُشهد باِهتماماتها التشريعية

: ومن ذلك الراحة يوم السبت عند نهاية الخلق والإرتباط بنوح والإرتباط بإبراهيم والطهور وشراء مغارة مكبلا التي أعطت للآباء الأولين سنداً مُلْكِيّاً بأرض كنعان ، ولنتذكر أنَّ النص الكهنوتي يقع تاريخياً عند العودة من السبي البابلي» ، فيما يقول الأستاذ يوسف رزق الله غنيمة في كتابه المعنون نزهة العشاق في تاريخ يهود العراق عن الممارسات الخاصة للبابليين في يوم السبت التالي :

«فكان محظوراً على الناس أنْ يطبخوا يوم السبت وأنْ يغيروا ثيابهم وأنْ يقدموا ضحايا ، وكان محظوراً على الملك أنْ يكلم فيه الشعب ويركب مركبة وأنْ يقوم بواجب عسكري أو مدني وأنْ يأخذ دواء» وكل ذلك ، كما يبين النص الوارد أعلاه هو تقليد حرفي من قبل يهود ما بعد السبي لما درج عليه المجتمع البابلي من ممارسات تتعلق بيوم السبت .

وفي كتاب دراسات في التاريخ للأستاذ فريحه ص171 نقرأ التالي : (يصح القول أنَّ التوراة أقرب ما يكون كتاباً بابلياً . إذ يتفق الباحثون على اقتباس التوراة للأمور التالية من الميراث العراقي القديم : (أسطورة خلق الكون والإنسان ـ جنة عدن والفردوس المفقود ـ الطوفان ونوح ـ قصة هابيل وقابيل ـ أصل الإنسان واللغات ـ طفولة سرجون وطفولة موسى ـ العهد بين الرب والعبد ـ قوانين حمورابي والوصايا العشر ـ واقتبسوا يوم السبت البابلي الذي كان يوم عطلة (سبوت وراحة) ونهاية الأسبوع لدى العراقيين) .

وأسهم دور الشرف فيما يتعلق بالنسب المتوارث بقسطٍ وافر عند البابليين ، وما يزال هذا التقليد متوارثاً عند عموم العراقيين وغالبية العرب التي تعني عندهم الأصالة في المحتد نيل حظوة الشرف الكبير ومدعاة للفخر ، لذلك فقد اِستعار اليهود هذا التقليد حول شرف النسب من أور الكلدانية وربطوا بينهم وبين نبي الله إبراهيم ونوح برابطة الأرومة ، مثلما أخذوا فكرة أو مفهوم الطوفان في الأرض من سهل شنعار ، فيما أخذوا أقساماً هامة حول الأحكام التي تنظم حياة البشر وتقنن العلاقات بينهم من شريعة حمورابي ، وعادة الطهور من مصر الفراعنة ، بالإضافة إلى أنَّ الإله «أيل» هو إلها كنعانياً ،ويؤكد ذلك الأستاذ ووترمن ويقول : (وهكذا إن بني إسرائيل وجدوا شرائع معدة ومهيئة فعملوا بها مسيرة حياتهم في كنعان) ، [14] .

(□□) عن كتاب العرب واليهود في التاريخ ـ للدكتور أحمد سوسة .

لذلك اِقتضت الحاجة التي تولدت عن الواقع الجديد للعبث في النصوص اليهودية (فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا – الايه 79 من سورة البقرة) ، وغدا مظهر «التحريف» في صُلب ذلك الكتاب «أي التوراة» وعلى وجه الخصوص فيما يتعلق بـ«الأسفار الخمسة» وكذلك على ما يسمى في التوراة «سِفر التكوين» الذي قيل: أنه أنزل على النبي موسى .

وقبل البدء بالإشارة إلى مضمون التحريف الجديد والتطرق إلى نصوصه . . . ذلك التحريف المسمى بـ«النص الكهنوتي» ينبغي علينا الإشارة إلى بعض ما ورد على لسان مؤلف كتاب نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق ، وعلى الصفحة 65 منه ، التي يقول فيه الأستاذ يوسف رزق الله غنيمة بحذر وتحفظ تفرضهما عليه درايته الكثيفة فيما يتعلق بذلك الموروث اليهودي . . . يقول التالي :

«جرت كل هذه الخطوب ومرت القرون وتعاقبت الأجيال ومضى 1200 سنة ولم يرد ذكر بلاد الرافدين في توراة موسى ولم يقل الكتاب شيئاً عن بابل وآشور حتى حمل شلمناصر ملك آشور حملةً شعواء على هوشع ملك إسرائيل» ، فكان السبي وما نتج عنه من تغييرات ذهنية في التفكير اليهودي . وكذلك يؤكد الدكتور أحمد سوسة في كتابه العرب واليهود في التاريخ ، ص 331 ، حيث يقول (كما أنَّ مضمون هذه التوراة غير مضمون توراة موسى . فهذه هي التوراة التي يصح تسميتها بتوراة الكهنة التي وضعوها في الأسر في بابل) .

أما فيما يتعلق بـ«سِفر التكوين» الذي شمله التغيير الواضح جرّاء التأثير البابلي وعلى محتواه ومبناه للدرجة التي جعلت من هذا النص أحد النصوص الأساسية وحمل اِسم «النص الكهنوتي» ، وهو النص الثالث والأخير الذي صار له شأنٌ كبيرٌ ضمن «الأسفار الخمسة» ، نبدي الملاحظة التي هي جديرة بالتنبيه المسبق وتلك هي المتعلقة بالنص الأصلي ، ونريد القول هنا :

إننا سنتناول فقط النص «الكهنوتي» الذي أضفت عليه الروح الحزقيالية وتعاليمها المسرفة في حقدها وشموليتها الأيديولوجية على مفرداتها اللغوية وجعلت منه ناراً مشبوبة تؤجج الحقد وروحية الاِنتقام في صدر مَنْ يقرأها كونها تبرز إرادتهم وحنينهم إلى الماضي ، يقول الأب ديفو :

«والكتاب ينتهي في القرن السادس قبل الميلاد بالنص الكهنوتي الذي ينصَّب اهتمامه على الإشارة إلى التواريخ والأنساب» ، [عن كتاب موريس بكاي ، ص 30] ، وللبرهنة على ذلك الاِستخلاص يمكننا إيراد نصوصاً من السِفر التي تجري الإشارة فيها إلى بناء بابل وعملية إنشائها ، إذ يتحدث السفر عن ذينيك الموضوعين خلال محتوى «العدد واحد وحتى العدد التاسع من الإصحاح الحادي عشر» بالأقوال التفصيلية حول «رصد رواية بناء بابل وبرجها وتبلبل الألسنة» كما يتردد اِسم شنعار في تلك النصوص «ثلاث مرات في سفر التكوين» فيما كان قد ورد ذات الاِسم «سبع مرات في العهد القديم» [راجع سفر التكوين 10 : 10 ، و11 : 2 ، و14 : 9] .

ويأتي الوصف التفصيلي لظاهرة الفيضان الكبير أو الطوفان في ذلك السِفر حيث يصف كثافة المياه المتدفقة حيث يبلغ الطوفان «خمسة عشر ذراعاً في الاِرتفاع وتعاظمت المياه فغطت الجبال» ، [تكوين 7 : 20] ، فيما يتحدث سفر التكوين عن نبي الله إبراهيم الخليل عليه السلام بالقول التالي : «وأخذ تارح إبرام اِبنه ولوطاً اِبن هاران اِبن أخيه وسارى كنته اِمرأة إبرام اِبنه فخرجوا من أور الكلدانية ليذهبوا إلى أرض كنعان» ، [الإصحاح الثاني عشر : 2 ، و3 ، و4] ، وبخصوص ما يسمى بأرض الميعاد يقول سفر التكوين :«وقال الرب لإبرام اِذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أريك» ، [الإصحاح الثاني عشر : 1 ، و2] ، بالإضافة إلى أنَّ سفر التكوين يتحدث عن نوح ولوط والمدن والأنهار البابلية من خلال الأسفار الخمسة . . . بل أنَّه أول الأسفار الخمسة يتبعه سِفر الخروج وسِفر اللاويين وسِفر التثنية وسِفر العدد .

إنَّ هذه الإضافات الكهنوتية التي اِختلطت فيها الروايات الصادرة عن الوحي مع الروايات البشرية ، قد غلبت المرويات الأخيرة على السابقة ، واِستفاضت بالحديث عنه للدرجة التي غلبت على النصوص الأصلية التي هي قليلة جداً بالنسبة لما نزل على النبي موسى ، [ع] ، لقد تكلمت الروايات البشرية بلسان الوحي ، لذلك كانت الطقوس والأساطير تبدو واضحة في كونها تخص أقواماً وثنية ، ولكنها نسجت بشكل غائي محدد ، هو الوصول إلى فكرة / أسطورة «شعب الله المختار» التي غدت جزءاً من «قناعات اليهود وإيمانهم» في الوقت الذي ينبغي أنْ يكون الخالق يعامل مخلوقاته بشكلٍ عادل ، واِستتباعاً بتلك الفكرة / الأسطورة تولد الوعد السرمدي بنيل «أرض الميعاد» وبأتت هذه الفكرة / الأسطورة مثار خلاف حول العائدية الإلهية لهذا «الشعب المختار ، أهو «شعب إيل» أم «شعب يهوه» أم «شعب إلوهيم» ؟ ! .

ورغم كل الإضافات التي أضفاها «أنبياء اليهود» لما بعد السبي وفي أعقاب اِحتكاكهم بالأقوام المتحضرة والمتقدمة عليهم ، والتحريف الذي طال الكتب «السماوية» التي كانت لديهم ، وما أفرزته دعواتهم الجديدة من معالم التنظيم المنغلق والمسيج بالرؤى المتعصبة ، فقد عانى اليهود :

«شعب الله المختار» من القهر والشتات والقمع ليس بسبب إيمانهم بالقيم الدينية الإنسانية التي تحّض على فعل الخير وتبشر بالمُثل الإيجابية ، بل نالهم ذلك العذاب والقهر والشتات بسبب حجم التعصب ضد الآخرين والاِنكفاء عن مفاهيم العيش المشترك مع الآخرين ، والعداء المسعور للمجتمع الذي عاشوا بين أفراده متنعمين بالحقوق والمساواة .

ولعل التفسير الذي يحاول اليهود الأصوليون إيراده حول أسباب تلك المآسي يعطينا وجهة نظر تحاول البحث في الأسباب الذاتية لمعاناة اليهود من كل البشر الذين لا يلتزمون بـ«الشريعة الموسوية اليهودية» ، فهؤلاء اليهود الأصوليون لهم نظرتهم الخاصة التي يتطرق إليها الأستاذ الدكتور جورج قرم في كتابه المعنون : المسألة الدينية في القرن الواحد والعشرين ، وفي الصفحة 297 منه ، وذلك من خلال الاِستشهاد التالي : «هنا لسنا بعيدين عن الأصولية اليهودية التي رأت دائماً أنَّ مآسي شعب الله يمكن عزوها كلها إلى خيانته لإلهه وإلى تركه لشريعته في آنْ» .

لقد حاولنا بإيجاز شديد اِقتضاها الموضوع المتعلق بالمدينة التي نشأنا في أكنافها : مدينة الكفل ، إلقاء الضوء على «الدور الريادي» الذي قام به النبي حزقيال في نطاق العمل على إعادة هيكلة وتنظيم الدين اليهودي في المرحلة التي جاءت مترافقة لعملية سبي اليهود : أثناء السبي وبعده ، ومحاولته الجادة لعزله عن التعايش مع المجتمع البابلي من خلال التسلح بإرادة ذاتية جبارة سلاحها الحزم والعزم والتوبيخ وتنمية روح الاِستنهاض عند الأسرى بغية جمع شملهم وتوحيدهم على أساس عنصري وطائفي في مواجهة سيرورة عمليات الإندماج مع المجتمع والحصول على روح المواطنة المبنية على أساس الحقوق والواجبات التي ينبغي التمتع بها في المجتمع البابلي الذي كان يعيش حالة ثقافية مزدهرة وواقع حضاري متطور وفريد قياساً للوضع العالمي الذي كان قائماً آنذاك .

أما موريس بكاي ، ص 44 ، فيورد التالي : «أما كتاب حسقيل ، وهو آخر نبي كبير ونبي المنفى . فإنه لم يدون في شكله الحالي إلا بعد موته ، وقد دونه الكتبة وهم الذين أصبحوا ورثته الروحيين . وقد قام نفس هؤلاء الكتبة بتدوين رواية ثالثة لسفر التكوين واِسمه الرواية الكهنوتية».

***

«عن عمل حسقيال على هذا المنوال ونحو الغاية الكبرى ، وهي إعداد الجيل الجديد في السبي في العودة إلى أورشليم»، ص 375 ، من كتاب الأستاذ عجاج نويهض ، الجزء الثالث

***

حزقيال ورفقته ، هم أول مَنْ مثّل الدور الأول في تهيئة النسيج الذي عرف نظامه فيما بعد {بحكماء صهيون} » ، نفس المصدر ، والجزء ذاته ، ص 370 .

***

«البناة الأُوَلْ {لحكماء صهيون} حسقيل ـ عزرا {عزير} ـ نحميا ـ دانيال . . . وسواء علينا أبدأنا بحسقيال وانتهينا بهرتزل ، أم بهرتزل واِنتهينا بحسقيال» ، فالمسار الأيدولوجي واحد (المصدر السابق ، ص 371).

***

وقول السيد موريس بكاي ، وعلى ص 44 ، من كتابه الذي أشير له سابقاً : «إذاً لا يجب نسيان أنَّ رواية الخلق المدروسة هنا تأتي من النص الذي يسـمى بـالنص الكهنـوتي كتبهـا الكهنة أو الكتبة وهم الوريثون الروحيون لحسقيال نبي النفي في بابل» .

❊ ❊ ❊

ويؤكد موريس بكاي كذلك ، وعلى ص 25 عـلى التـالي : «يخـتلط الـوحي بكـل هـذه الكتابات . ولكننا لا نملك اليوم إلا النصـوص التـي خلفهـا لنـا الكتّـاب الـذين عـالجوا النصوص وفق سجيتهم» .

❊ ❊ ❊

ويضيف المؤلف موريس بكاي ، في ص 19 من كتابه : « بهذا تتضح ضخامة ما أضافه الإنسان إلى العهد القديم . وبهذا أيضاً يتبين القارئ التحولات التـي أصـابت نـص العهـد القديم الأول من نقل إلى آخر ومن ترجمة إلى أخرى» .

❊ ❊ ❊

ويستشهد السيد موريس بكاي ، ص 57 من كتابه بــ«الكاردينـال بـاوريجين في تفنيـد أسطورة الطوفان في إحدى مواعظه يستشهد بحسقيال كيف غرّق العالم برمته لينقـذ سـفينة له» .

الدعوة إلى فك الارتباط بين ذي الكفل وحزقيال

إنَّ الجديد الذي نطرحه في هذه الدراسة هو محاولة فك الإرتباط بين ذي الكفل النبـي الإسماعيلي العربي المحتد والأرومة ، من جهة ، وبين مزاعم القول حـول النبـي حزقيـال اليهودي ، التي يتكاثر مروجوها في هذه الأيام مـن عمـر الإحـتلال الأمريكـي الصـهيوني للعراق الذي إبتدأت صفحاته السـود والغادرة في التاسـع من نيسـان عام 2003 المشؤوم ، من جهة أخرى .

والجديد الذي تحمله دراستنا أيضـاً هـو التوثيـق لـبعض الأسـماء التاريخيـة القديمـة لمدينة ذي الكفل كونها تخص هذه المدينـة بالـذات التـي هـي موضـع إهتمامنـا في هـذه المحاولة قبل أي شيء آخر .

لقـد أشـرنا في مواضـع عديـدة مـن بحثنـا إلى أنَّ تبـديل إسـم ذي الكفـل بـديلاً عـن «المعتقدات اليهودية» القاضية بإسم حزقيال وإستخدامه في الممارسات اليومية قد جرت لأسباب ودواعٍ أمنية خشية من تأثير الفتح الإسلامي على وجودهم وخوفـاً مـن النهـوض الديني الجديد في المنطقة ، ولعل معركة «خيبـر» وأخبـار مـا جـرى لــ«قضـاعة» وأحـداث تاريخية أخرى إضطر فيها المسلمون لتجريد سيوفهم ضـد الـذين تـآمروا علـيهم وحرضـوا الآخرين ضدهم وعقدوا الإتفاقيات بشأن نصرة أعداء المسلمين كونهم يعيشون داخل حدود الدولة الإسلامية الوليدة ، وهو الأمر الذي قد يجعلهم «حصان طروادة» للقـوات المتـآمرة على الإسلام وتريد تكرار محاولات إنزال الشر بالمسلمين . . .

كل هذه الوقائع التاريخية ما تزال طرية في الذاكرة التاريخية لليهود وتؤجج في نفوسهم ضرورات الإِنتقام ، وكذلك تفاقم ضرورة الثأر في أذهـــان قادتهـــم الأيديولوجييـــن مـــن «أعدائهـــم المسلمين» متى ما توفرت لهم القدرة على الفعل وتم لهم الإِستعداد لأي عمل سياسي مضمون .

وحتى هذه الإِستعارة اليهودية لإِستخدام إِسم النبي العربي الإسماعيلي : ذي الكفـل لم تكن كافية لدرء المخاطر عنهم ، ولم تكن قادرة على بعث الطمأنينة في نفوسهم القلقـة مـن ردود الفعل العربية على مزاعمهم القائلة بكون البناء يخص نبيهم حزقيال بن بوزي ، ومن أجل البرهنة على ذلك الإِتجاه الذي يأخـذ بتلابيـب اليهـود نـورد شـهادة مكتوبـة لأحـد الرحالة الأوربيين ممن «تصادف» وجودهم في إحدى المناسبات اليهودية في مدينة الكفل ، أو كان متواجداً بالقرب منها ، أو إِستقى معلوماته من مصادر يهودية موثوقة بالنسبة إليه .

يقول الرحالة الدانمركي نبيهر الذي زار العراق في العـام 1766 حـول الحالـة الأمنيـة لليهود أنهم كانوا يخشون كثيراً العرب العراقيين ، الذي يطلق عليهم إِسـم البـدو مسـايرةً للرؤية الثقافية الأوربية التي ما تزال محفورة في الإِستخدامات الكتابية حول كـون العـرب مجرد حفنة من البدو الأجلاف لا يعرفون من القيم غيـر الغـدر ومـن وسـائل النقـل غيـر الجمال ، فضلاً عن مخزونه الثقافي الذي يبين مدى إِحتقاره للسكان العرب العراقيين . . .

يقول هذا الرحالة في سياق كتابته عن حالة اليهود على الشكل التالي :«وصف نبيهـر مـا يقاسي منه اليهود من الجور والعسف من البدو أثناء زيارتهم لمدينة الكفل ، حتى يضطروا معها أحياناً إلى الإِلتجاء إلى المزار والإِنحصار فيه ريثما يتوسط في الأمر حاكم الحلة أو إذا كانت أعداد البدو كثيرة فإنهم ينتظرون النجدة من والي بغداد ، ومما قاله عن خوف اليهود من البدو : إنَّ الرعب والفزع يستوليان على الزوار وإنْ كـان عـددهم يفـوق الغـزاة البـدو عشرة أضعاف أو عشرين ضعفاً ، ولا يجسرون على إطلاق عيار ناري مـرة واحـدة لأنهـم يعلمون حق العلم أنَّ الدم الذي يـُهرق من البدو يكلفهـم ثمنـاً باهظـاً» ، [هـذا مـا ينقلـه مؤلف نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق ، ص 186].

فهل ورد هذا التحامل على العـرب العـراقيين قـد جـرى بسـبب الترجمـة ؟ أم أنَّ تلـك التوصيفات قد نزّت عن عقلية أوربية موبوءة بالثقافة العنصرية ضـد العـرب ؟ أم أنَّ أحـد اليهود المتطلعين لنيل قوانين الحفاظ على أتباع الديانات غير المسلمة التي كانـت المنفـذ الأوربي للتدخل السياسي في شـؤون المنطقـة العربيـة ومحاربـة الإمبراطوريـة العثمانيـة المسلمة هو مَنْ غذى الرحالة الدانيماركي بالمعلومات المشوهة ؟ ! .

إنَّ مفهوم «البدو» كمجموعة بشرية ، عند عموم السياسيين الأوربيـين ومثقفـيهم كـان وما يزال هو قرينة الجهل والتخلف والتعصب ، ومفهوم الغزاة ـ كما هو معلوم ـ هـم مَـنْ يأتون من أماكن بعيدة بغية العبث في المناطق الآمنة والإِستيلاء على ثرواتها وإذلال سكانها المحليين ، كما هو شأن الغزاة الأمريكيين للعراق في اللحظة التاريخية الراهنة .

أما ما يسميه المؤلف بـ«الغزاة البدو» فقد كانوا هم أبنـاء العشـائر العربيـة في المنطقـة الريفية المجاورة لريف مدينة الكفل ، ومن الطبيعي أنْ تكون ردود فعلهم تتسم بالغضـب والثورة جرّاء ثقافتهم العربية الإسلامية والموروث الديني الذي يحكم نظـرتهم ، لـذا كـانوا يرفضون بشكل بات وحاسم بعض الممارسات التي كان يأتي بها بعض الـزوار مـن قبيـل السكر والعربدة ، وهي من المحرمات الدينية وفق الشريعة الإسلامية ، عـلاوة عـلى عـدم اِحترام المناطق المقدسة من خلال إقامة الحفلات الغنائيـة الصـاخبة وترديـد الهوسـات المحرضة ، والأناشيد الدينية اليهودية التي يرى فيها المسلمون أنها تتخذ الطابع العنصري المضاد لهم كما سنته مقولات حزقيال . . . بلهَ لجميع المعايير الإنسانية . . . إلخ .

هذا الحصار الاِجتماعي المحكم الذي «يفرضه» العـرب العراقيـون الـذين يصـفونهم بالبدو بما تتوارد الخواطر عن مضمونها المخـزَّون في الوعي الثقـافي الجمعـي الأوربـي ، وذلك الرعب والخوف الذي يتملك نفـوس وعقـول اليهـود المتـدفقين إلى زيـارة نبـيهم حزقيال ، والمرقد الذي يحمل اِسم النبي العربي ذي الكفل الذي يجلـّه أبناء المنطقة وكل العرب العراقيين . . .

كل أولئك اِجتمعوا في «مكان مشترك» ، ليفرز وضعاً اِجتماعياً قلقاً مشوباً بالتوتر النفسي الذي قد ينفجر في أية لحظة زمنية ، خصوصاً وأنَّ السلطة السائدة القائمة آنذاك هي بيد رموز الوجاهة المدينية وشيوخ القبائل المجاورة وبينهما من وشائج القرابة وصميم العلاقة التي أرساها الاِحترام المتبادل بين «الكبار» في القبائل ووجهاء المدينة ، وعليه فما هو المتوقع من تطورات بين هذه القوى المستفزة والمتحفزة : خصوصاً مَنْ يمتلك منها القوة المادية التي يستطيع عبرها أنْ يحسم الأمر بـ«الحوار الخشن» ، فيما إذا كان مبنى هذا المرقد الذي كان يضم بين ذرات ترابه اِسم «النبي» حزقيال بن بوزي صاحب العقيدة العرقية والعنصرية عند اليهود وتعمل في إطار أطروحاته «الفكرية» المتعصبة المغلقة والمشحونة بالحقد على الآخر وضد المجتمع الذي يحتضن هذا المرقد ؟ .

لا شك أنَّ ما هو متوقع سيتسم بالاِنفجار المتصارع والمتوالي حتى النهاية التي قد تنتهي بأحد الطرفين بالمسير إلى حتفه المحتوم ، وجرّاء البحث المدقق في طبيعة الظرف الاِجتماعي الذي كان قائماً آنذاك ، واِشتداد وتيرة مؤشرات اِتقاد الجمرات تحت الرماد المهدد مع تدفق أية ريح «صفراء» لوصولها إلى درجة الاِشتعال والاِضطرام بحيث تكون نتائجها مخيفة .

ولم يكن بدٌّ من أنْ تكون تلك «الاِستعارة اليهودية» هي الطريقة المثلى لتجاوز هذا الواقع وما ترتب عليه من مأزق قد يفضي إلى بروز صراع لا يعرف أحدٌ مداه ولا يدرك خواتيمه ، وتعد هذه «الاِستعارة اليهودية» دليلاً على توفر كمية من الذكاء عند «قادة البعض» المتنفذ ، وأسلوباً موجباً لإجتراح نوع من الفطنة ، وطريقة مليئة بالدهاء التي تؤدي حتماً لإضفاء نتيجة محتواها ، «حماية ذلك المكان المشترك» ، من أي اِحتمال لتدهور الوضع نحو منزلق تنصَّب نتائجه السلبية على المجموع !.

وبقي هذا الحل أي طريقة «الاِستعارة اليهودية» هو السائد حتى الوقت الحاضر ، منبهين في الوقت عينه إلى الإمكانية التي تنطوي عليها بعض التطورات إلى اِحتمال تحولها إلى واقع محتواه السعي لإشعال فتنة جديدة ولكن على يد «الجسم اليهودي» المتموضع في الجيش الأمريكي والتغير في نسبة القوى الراهن حيث يتحد «الفرس + اليهود» ضد العرب العراقيين .

الكوفة

وعودة للتاريخ القديم المتعلق بهذا المرقد النبوي لشخص مذكور في كتاب القرآن المقدس عند كل المسلمين ، ينبغي الإشارة إلى أنّ إقامة مدينة الكوفة كان في العام 17 هجرية قد تمَّ على يد الخليفة الراشدي الثاني عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وتم إنشاؤها كمدينة إسلامية وكمركز مرتبطٌ بعمليات الجهاد العربي الإسلامي من أجل نشر قيم الدين الإسلامي في العراق وإيران وتكون مقراً لفرع الإمارة الإسلامية التي كانت تقام في المدينة وتُدار من هناك .

ولكن هذه المدينة : الكوفة شهدت تطوراً سياسياً كبيراً عند تحولها إلى عاصمة للخلافة الراشدية الإسلامية بدلاً من المدينة المنورة التي نشأت في أجوائها بذور وجذور الدولة العربية الإسلامية الأولى ، كان تاريخ هذا التحول هو العام 40 من السنة الهجرية ، والسبب الأساس الكامن في هذا التحول والتطور هو نقل الإمام علي بن أبي طالب ـ عليه السلام ـ مركز الحكم إليها ، وبما أنَّ منطقة الكفل كانت جزءاً من أعمال مركز الكوفة فقد غدت جزءاً مهماً من ذلك التكوين الجغرافي / السياسي ، كانت تلك المنطقة تسمى آنذاك «بانقيا» ولكنها سرعان ما اِتخذت اِسما جديداً آخر هو «النخيلة» بعد أنْ بنى الخليفة المقيم في العاصمة الجديدة للحكم الإسلامي الجامع المعروف بِاسم النخيلة والمعسكر الموجود فيها لوقوعها ضمن ما يسمى بـ«سمت الشام» .

وحول الأصول التاريخية لهذه التسمية العملية يمكن الاِستدلال ببعض المعلومات مما أفاض بها العديد من الكتّاب والشعراء الذين أوردوا الإشارة المحددة لهذه المدينة بالقول التالي : روى الأعشى عن إبراهيم التيمي :«قال الإمام علي عليه السلام لشريح القاضي وقد قضى قضية نقم عليه أمرها : والله لأنفينك إلى بانقيا شهرين تقضي بين اليهود» هذا وورد في أحد مراصد الاِطلاع بشأن بانقيا قوله «بانقيا بكسر النون ناحية من نواحي الكوفة على شاطيء الفرات» وتسكنها جالية يهودية وهم من جالية أكبر تسكن في منطقة الحيرة ، و«الكفل» الحالية يتصف اِسمها بالتغير من بانقيا أو النخيلة إلى النعت المقرونة بِاسم النبي ذي الكفل .

وليس مماثلة لاِسم المدينة المجاورة لمدينة الكفل الحالي حيث مدينة الحيـرة التـي لم يغادرها الوصف الذي لا ينطبق على الحيرة واِسمها اللغوي الذي ظل أميناً وفياً لقصـورها الشامخة التي جاء ذكرها في الشعر الجاهلي : الخورنـق والسـدير ، مـن جهـة أولى ، وتؤشـر لحاكمها التاريخي المشهور النعمان بن المنذر ، من جهة أخـرى ، وربمـا تتفـاخر بـورود حاكمها لقب : شقائق النعمان ، من جهة أخرى .

وفي أعقاب بناء الجامع والمعسكر «النخيلة» حدثنا عمر بن سعد نقلاً عن الإصبع بـن نباته الذي أورد النص التالي : «قال علي عليه السلام : مـا يقـول النـاس في هـذا القبـر ـ في النخيلة ـ وبالنخيلة قبر عظيم يدفن اليهود موتاهم حوله . . . إلخ» ، [نهج البلاغة لاِبن أبي الحديد ، الجزء الثالث ، ص 195] ، ومثل هذا الوصـف الـدقيق الـذي لا يقبـل الجـدل البيزنطي أو المماحكة اللغوية من حيث التأكيد على جغرافية ما يوجد في المنطقة من «القبر العظيم والمقبرة لليهود» كان الهدف المنشود من إيراده والاِستشهاد به من حيث الغـرض المطلوب إثباته هو مجرد الإطلالة التاريخية على منطقة الكوفـة ومـا نعتقـد فيمـا يخـص مدينة الكفل منها ، بديلاً عن التطرق لذلك الحديث منذ بداية الفتح الإسلامي ، ولكنْ منه بالذات ، سنقطع الرحلة الزمنية حتى الوصول إلى العقد السابع الهجري الـذي لم يجـرِ أي تغيير على اِسم «الكفل أو ذي الكفل» بعدْ ، ولا حتى التغيير نحو اِسـم «بـر ملاحـة أو بئـر ملاحة» ، إذ لا زلنا متوقفين أمام عملية فك الاِرتباط بين التسمية العربية الإسـلامية : «ذو الكفل» ، من ناحية أولى ، وبين التسمية اليهودية «حزقيال» ، من ناحية ثانية .

اِتسعت منطقة الكوفة : العاصمة الإسلامية الجديـدة بتوسـع الحمـلات العسـكرية في إطار اِتساع الجهاد والفتح للدعوة الدينية الجديدة ، وزاد عدد سكانها الجدد الذين تدفقوا من مختلف العشائر والقبائل عليها ، كثافة من عساكر الفتح التي كانـت ضـرورية ولازمـة لتنفيذ المهمة الجديدة التي سجلت مرحلتها العظيمة والمشرقة في التاريخ البشـري الـذي اِفتتح سجلها بالفتح الإسلامي السائر نحـو الشـرق أكثـر ممـا كـان منـه سـائراً بجحافلـه المجاهدة نحو غرب المدينة المنورة .

وكانت العاصمة الجديدة قد توسعت بالضرورة نظراً لمتطلبات خدمة السكان الجدد التي يقوم بها الحرفيون والصنّاع والبُناة والإداريون وآخرون ، ومن المعلوم أنه قد غدا غالبية أهل الكوفة الذين كان منبتهم الأصلي من اليمن ، للدرجة التي شكلوا معها الأكثرية من جيش الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وطلائعهم المقاتلة وبينهم الألوف من المقاتلين الذين يحفظون القرآن الكريم ويدركون ظروف تنزيله ، وما هي دلائل آياته المقدسة .

وكان العـُرف السائد في العاصمة الجديدة وبصفة عامة هو اِستخدام مفردات جديدة من قبيل : «ذي أو ذا أو ذو» وفقاً لموقع مجيئها الإعرابي في سياق ورودها اللغوي الإنشائي ، نظراً للجسم الاِجتماعي اليمني الذي تدفق على مركز الكوفة : العاصمة الإسلامية الجديدة ، وتتميز الخاصية اللغوية والتعبيرية لهذه المفردات عند عموم الجموع اليمنية عبر اِستخدامها من أجل التفخيم والتكريم والتعظيم لأسماء تحظى بالتكريم الاِجتماعي وإبداء الاِحترام الكبير نحو الشخصيات الاِعتبارية . . .

أي أنَّ هذه الألفاظ : «ذي أو ذا أو ذو» تسبق الاِسم المراد تشريفه ، وزيادة في التوضيح نورد الملاحظة النبيهة التي أفاض بها فم العلاّمة الأستاذ عجاج نويهض في كتابه الضخم الموسوم بعنوان «بروتوكولات حكّام صهيون» ، ص 331 ، بما معناه : «كان الأنباط العرب يحملون اِسم الحارث بسبب أسماء أغلب ملوكهم كانوا يحملون ذلك الاِسم حتى صار ذلك الاِسم لقباً ، أي بمثابة لقب لهم كما هو شأن الأذواء باليمن» . . . إلخ .

ولكن السؤال الذي يظل شاخصاً منتصباً أمامنا يتمحور حول طبيعة العلاقة بين هذه الأسماء والصفات والوقائع المتناثرة على جغرافية تقع بين العراق واليمن وتمتد عميقاً في طبيعة الأسماء القبلية والعربية ، فالصورة المتجسدة لم تتضح أبعادها وعلاقاتها كلها بين الأذواء والكوفة واليمن عبر التسمية المشتركة :ذو الكفل خصوصاً وأننا ما نزال خلال الفترة الأولى من الفتح الإسلامي التي لا وجود لاِسم «الكفل أو ذي الكفل» في أي سجل أو كتاب أو وثيقة تاريخية تضم وقائع تلك الفترة المشار إليها آنفاً . .

.

في الحقيقة ، ما يزال ضباب الغشاوة يغطي عيوننا المدققة في ملابسات تلك الفترة التي تتسم بالتكوين الإِجتماعي الجديد والمختلط والمتنافر ، الأمر الذي يضعنا في موضع الحاجة القصوى للبحث والتفتيش عن الروابط العميقة والأسباب المختلفة التي من شأنها إزالة الغموض الذي يكتنف كل ذلك ، كي تكون الإجابات عنها بشكل أكثر قبولاً وفق الحدود الدنيا لمنطق القبول المعقول ، وعند ذاك يمكن القطع في اًلاِستنتاج أو الاِستخلاص بشكل يقترب من الجزم عند البحث في مثل هذه الأمور ، رغم الطابع الافتراضي لوجهة نظرنا القابلة للحوار والنقاش حول هذه المسألة . . . بله حتى للطعن المسبق ، من دون بذل أية جهود للبحث والتدقيق المضنِي ، وقبل القيام بأي حوار فكري مع وجهة نظرنا التي هي قابلة للحوار ـ كما قلنا ـ مع الاِفتراضات والنقاش مع كل الاِحتمالات .

يروي العالم الإسلامي جرير الطبري والمؤرخ الإسلامي الشهير ما يلي : «وتولى في أوائل القرن السادس للميلاد عرش السلطة في اليمن الملك الشهير ذو النواس» وكان ملتزماً بالشريعة الموسوية اليهودية في مرحلة كانت الإصطدامات القبلية والدينية المسلحة هي المظهر الرئيس لطابع الصراعات الحربية في المنطقة فـ«حمل على نصارى نجران واِستظهر عليهم وخيرهم بين التهود والأخدود فاِستجاروا بالحبشة فأجاروهم وحملوا على ذي النواس وتغلبوا عليه وعلى قومه» ، [نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق ، ص 118] ، فيما يؤكد مصدرٌ آخر هو السيد عجاج نويهض في كتابه الموسوم بروتوكلات حكماء صهيون ، ص 342 ، مؤكداً على العلاقة الجوهرية بين أهل اليمن والألقاب بالأسماء ومفهوم الأذواء إذ يقول : «ملوك اليمن كان يقال لهم الأقيال والأذواء وملوك فارس الأكاسرة والروم القياصرة» عندما يتبوؤون المراكز الحاكمة للإمبراطورية .

نحن لا نريد إستباق الأمور البحثية وبالتالي ننجر كثيراً إلى المسألة الشائكة التي تتعلق بمفهوم الأذواء وعلاقتها بالموروث اليمني قبل التطرق ـ على طريقة جس النبض المسبق ـ حول ما رواه الواقدي الذي يورده السيد يوسف رزق الله غنيمة في الكتاب المشار إليه أعلاه ، وعلى الصفحة 122 ، بالقول التالي : «جاء في رواية عن الواقدي أنه في سنة 20 هـ أجلي يهود نجران إلى الكوفة . وعلى حال لم يطل الأمد على إنشاء الكوفة حتى نزلها اليهود وازدهرت جماعتهم فيها» ، في الحقيقة أنَّ اليهود النجرانيين كانوا قد اِكتسبوا الخبرة العملية من مسارهم الحياتي السابق في الجزيرة العربية واليمن جراء عملهم التجاري هناك وعدم تفرغهم للقتال الذي كان سائداً آنذاك عند القبائل العربية واِنصرافهم للتداول في عمليات البيع والشراء وإقراض الأموال المبنية على الفوائد الربوية .

ولما تواجد أولئك اليهود في المركز الإسلامي الجديد:الكوفة ، وجرّاء اِحتكاكهم مع السكان المجاهدين المسلمين الذين تدفقوا على المدينة ، ومعرفتهم النسبية بفكر الفاتحين الجدد والوعي بطرق سلوكهم وطباعهم الاجتماعية ، وبما اِختزنوه من إرثٍ افرزه تراث مديد من العمل القائم على المعرفة والخبرة فيما يتعلق بالتعامل التجاري مع الآخرين ، فقد أدركوا شروط التعامل مع الظرف الجديد وكيفية التعامل معه بغية درء المخاطر المحتملة التي قد تنجم عن تصادم فكري وعقائدي بين الجديد الناشيء والمندفع عند العرب المسلمين الذي كان من بينهم الواعون الحافظون للقرآن الكريم والمدركون للأحداث التي وقعت خلال نمو تلك الرسالة الإسلامية بقيادة النبي محمد ﷺ وبعض الخلفاء الراشدين ، من جهة ، وبين يهود نجران المبعدين من ديارهم والمنفيين إلى هذه المدينة الجديدة ، من جهة أخرى ، خصوصاً أنَّ ما حصل قبل سنوات في أحداث خيبر وحول بني قريظة وبني النضير لا زالت طرية في الذاكرة العربية المسلمة وكذلك في الذاكرة اليهودية ومشبوبة في أذهانهم ، وعلى حدٍ سواء .

كل تلك الخبرة والمعرفة قد هيأت الظروف الموضوعية وجعلت كل الأسباب الموجبة للتوائم مع الظرف الجديد وكيفية التعامل مع الفاتحين المسلمين الذي تدفقوا على الكوفة ، بما يجعل الإستفادة المادية من الدروس المتولدة عن الماضي الحياتي والعبر المكتسبة من العمل التجاري والربوي الذي يعني إدارة التعامل مع الآخرين خصوصاً ، وهو ما دفعهم إلى الدراسة الدقيقة للقرآن الكريم بغية توظيف ما جاء فيه من المعاني التي ستخدم توجهاتهم بعد أنْ خابت طرقهم السابقة في القضاء على الدين الإسلامي الوليد ، مستفيدين على المثال ـ وهو مجرد تقدير مُلتقط من ثنايا تجربة لاحقة لزمن مستقبلي ـ من التجربة العملية التي اِبتدعها صابئة حرّان أو مستشاروهم الذين تحيروا أمام التخيير الذي طرحه عليهم هارون الرشيد حول ضرورة اِختيارهم دين سماوي بديلاً عن الدين الذي يلتزمون به والذي يهتم بعبادة الكواكب ، فكانوا أنْ اِختاروا «الدين الصابئي» المذكور في القرآن الكريم وبسورة البقرة على وجه التحديد ، الآية رقم 62 ، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ، والآية رقم 69 من المائدة : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٩﴾ .

الاِستعارة

في نطاق السبق التاريخي عن كل ما تقدم وعلى ضوء قراءة القرآن العظيم واِستلهام بعض معانيه واِنتقاء بعض تعبيراته فقد وقع اِختيار اليهود على اِسم «ذو الكفل» باِعتباره نبياً موغلاً في التاريخ الزمني القديم ، من جهة ، وليس له أي أثر ملموس تحدث عنه القرآن المجيد ، من جهة ثانية ، أو مقاماً قائماً ومعروفاً ويُقصد من قبل المسلمين ، من جهة ثالثة ، ومن الممكن أنْ يحظي باِحترام اليهود وخدمتهم ، ويتمتع بإجلال المسلمين في الوقت ذاته ، ليصبح «الرمز أو العنصر المشترك» أملتها الإِستعارة التاريخية بحكم بعض ضرورات الأمان والبقاء والتعايش ليضفي عليهم نوعًا ملزمًا من الحماية المعنوية والمادية وسط بيئة بشرية معادية ، كما يعتقدون ، وقد نجحوا في ذلك أيما نجاح .

وتوجد بالقرب من المرقد الذي يضم الجسد الشريف للنبي ذي الكفل عدة قبور أخرى ملاصقة تماماً للبناء المشيد على مرقد ذي الكفل ، وغرفة أخرى عليها تسمية «مقام الخضر» ، وقبل تهجير أو هجرة اليهود إلى فلسطين العربية أو أثنائها أو في أعقابها أطْلِقَ على هذه القبور اِسم «العلويات» واِنتشر هذا النعت سائداً لحوالي الثلاثة عقود ونيف ، إلى أنْ تمكن أحد المهتمين في تاريخ المنطقة بشكل خاص وعلم التاريخ بشكلٍ عام وهو الحاج كاظم هاتف الذرب من معرفة الأسماء الحقيقية لمن هم مدفونين في هذه القبور الذين من بينهم كبار أحبار اليهود كما ورد في بطون الكتب ، وذلك في أواخر العقد السبعيني من القرن الماضي .

وأخيراً أقرت وزارة الأوقاف الإسلامية العراقية بما توصل إليه الحاج كاظم الذرب فقررت وضع الأسماء الحقيقية على تلك القبور بدلاً من الأسماء المختارة بعناية خشية من تهديم تلك القبور فيما إذا عُرِّفت أسماؤها الحقيقية فجرى الوقوع على لقب «العلويات» نظراً لاِحترام المجتمع العربي الإسلامي القائم في مدينة الكفل وجوارها... لأولئك النسوة اللائي ينتسبن إلى الإمام علي بن أبي طالب [ع] وفاطمة الزهراء [ع] ، وتلك الطريقة هي التي لخصّت «مفهوم التورية» في عهدها الحديث الذي تكرر مجدداً لما كان عليهم في الزمن الإسلامي الأول .

ومن الجدير بالذكر ، أنه في مدينة الكفل يوجد قبر «باروخ بن نيري» الذي كان ملازماً للنبي أرميا ، مثلما يعد من كبار الأحبار اليهود ، وقد تردد اِسمه كثيراً في سفر أرميا النبي الصادق ، كما ورد في الإصحاح 32 ـ 16 والقائل :«ثم صليت إلى الرب بعد تسليم صك الشراء لباروخ بن نيري قائلاً . . . إلخ» ، هذا وقد اِستشهد به النبي الصادق أرميا عندما كان يقدم النصح إلى ملك اليهود «يهوياقيم» كما أشار إلى ذلك النص الوارد في الإصحاح المرقم 45 ـ 1 :«الكلمة التي تكلم أرميا النبي إلى باروخ بن تيريا عند كتابة هذا الكلام عن سفر فم أرميا في السنة الرابعة ليهوياقيم بن يوشيا ملك يهوذا» .

وبهذا الصدد يقول مؤلف كتاب نزهة المشتاق وعلى الصفحة 245 المعلومات الخاصة عن بتاخيا حول حدود وجود قبر «باروخ بن تيري» التالي : «أما بتاخيا فيقول إنَّ قبر «باروخ بن تيري» لا يبعد إلا ميلاً واحداً عن قبر حزقيال بن بوزي».

كما يُطلق أيضاً على هذا القبر اِسم إسلامي مغاير ولكن ذاكرة أبناء المدينة وكتّابها يشيرون بين الفينة الأولى والفينة الأخرى إلى أنَّ هذا القبر لأحد أحبار اليهود، والعلم عند الله مثلما يقال، غير أنَّ عموم اليهود لا يعطونه أية أهمية، وبالتالي لا يعظمونه لكونه محسوباً على النبي الصادق أرميا، طالما كان هؤلاء العموم من اليهود يتبعون تعليمات حزقيال ودينه.

هذه التورية ـ كما نعتقد ـ أو الإستعارة اليهودية تجاه قضايا تتعلق بالخطر على وجودهم الذاتي أو المعتقدي قد تكون لدواعٍ أمنية تخص هذا الوجود، ولكن هناك ـ في الحقيقة ـ اِستعارات أخرى من الموروث الحضاري والديني وطقوس وأنساب اِقتضتها ضرورة التوجه اليهودي الجديد لـ«ما بعد السبي» منها الاِنتساب إلى نوح والاِرتباط بـإبراهيم وراحة يوم السبت والطوفان وشريعة حمورابي، وسوف نشير إلى تلك الإستعارات في مكان آخر.

وكذلك هناك من الإستعارات الأخرى المعروفة التي تتعلق بمثل هذا الاِتجاه: هو سفر «أيوب» وسفر «يونس» يقول «سيكل سيل» في كتابه المعنون «صاحب المرشد إلى الكَتاب المقدس» الصادر باللغة العربية في بيروت بتاريخ 1985، وعلى الصفحة الحادية عشرة، ما يلي: «وأيوب على ما يعتقد عربي وليس من بني إسرائيل»، وفي نفس الصفحة من المصدر أعلاه يقول سيكل سيل «وهناك يونس فقد تنبأ عن مصير نينوى عاصمة الآشوريين»، وكذلك يؤكد موريس بكاي في كتابه المعنون بدراسة الكتب المقدسة وعلى الصفحة السادسة والثلاثين بما نصه: «أما سبب إدراج كتاب يونس بين كتب الأنبياء حيث أنَّ العهد القديم لا ينسب إليه نصوصاً بالمعنى الحقيقي للكلمة . . . ؟ إنَّ كتاب يونس حكاية يستخلص منها أمر رئيسي وهو الخضوع الضروري للإرادة الإلهية».

إنَّ ما تقدم هو مجرد إشارات جلية وواضحة نستدل منها وفي أعقاب التفكير المدقق فيها والتوقف المتمعن أمامها . . . نستدل بها على العقلية العملية لتطاول اليهود على فكرة «الإستعارة» والسطو على تراث الآخرين وتوظيف المعين الثقافي والحضاري لهم في سياق خدمة الأطروحات اليهودية : الفكرية والسياسية بإنتظار اللحظة الزمنية المواتية لتحركهم المقبل ، كما يتصورون أو يعتقدون ، التي تتلخص عند التفكير بالقضية التي تتعلق بمدينة الكفل ، هو كيف ما توفرَ من معلومات للمساعدة في خدمة إنضاج فكرة إستعارة إسم «ذو الكفل» في أعقاب تكامل الأدوار التي يقدمها البعض ، والإنتشار فيما يخص بعض المفاهيم بخصوص الرؤية العامة للمسألة التي يطرح موضوعها ذو الكفل ، لاسيما بعد تضافر مفاهيم الأذواء والألقاب التي يحملها عرب اليمن من خلال الجسم البشري المبعد إلى العراق مُمَثلين بيهود نجران .

أشرنا في ما مضى من أوراق هذه الدراسة بأنَّ هذه المدينة : « الكفل ـ ذو الكفل» وكذلك المقام أي مرقد النبي ذي الكفل لم يأخذ هذا الإسم حتى العقد السابع الهجري من التاريخ العربي الإسلامي القمري ، ولم تسعفنا المصادر التاريخية المعروفة والتي بين أيدينا راهناً للوعي الكلي لأبعاد شاملة من هذا التاريخ وأكثر من هذه التفصيلات ، وهي الفترة التي تزامن فيها إندلاع الثورة المسلحة التي قادها المختار الثقفي ضد السلطة الأموية والتي جاء فيها حسب رواية الأعشى :

«روى الأعشى : فلما قام المختار بن أبي عبيدة قال لشريح : ما قال لك أمير المؤمنين عليه السلام يوم كذا ؟ قال : أنه قال لي كذا ، قال فلا والله لا تقعد حتى تخرج إلى بانقيا تقضي بين اليهود ، فسيره إليها فقضى بين اليهود شهرين» ، أما إسم النخيلة الذي إلتصق بإسم المدينة : الكفل فقد كان هذا الإسم قد أخِذَ من الإسم الذي أطلِق على الجامع والمعسكر اللذين أقيما في المنطقة المجاورة لها وقد إنتهت أهميتهما بعد الإنتهاء من أحداث صفين بسبب إنتفاء الحاجة إلى وجود المعسكر في المنطقة ، وهو السبب الأساسي الذي كمن وراء قصر المدة الذي زامن إقتران هذه التسمية : «النخيلة» على منطقة الكفل .

ومن الجدير ذكره بأنَّ مكان المعسكر هو المكان الذي تم فيه إستشهاد ودفن الصحابي الجليل «رشيد الهجري» المعروف في المنطقة القريبة من مدينة الكفل ولكل أبنائها أيضاً .

الأسفار الخمسة

يسود الإعتقاد عند جميع المتابعين الموضوعيين بأنَّ التوراة : الكتاب السماوي الأول الذي وصل إلى البشرية قد خضع لأهواء اليهود ومراحل تطوراتهم الإجتماعية وتبدل مناطق سكنهم وتصوراتهم المختلفة ، وفقاً لتبدل تلك التطورات الإجتماعية وأشكال ذلك التبدل المجتمعي ، وقد إتخذت الأهواء من خلال تلك ظواهر عبر ما يعرف بـ«الحذف» و«الإضافة» ، وقد تحمل عبء تلك الظواهر كتاب «أسفار الأنبياء عند اليهود» على وجه التحديد ، التي من بين أبرز المعالم النصية قد طال محتوياتها عمليات الحذف والإضافة ، إذ أننا لو وضعنا في الإعتبار أنَّ كتاب «التوراة» قد إستمر متداولاً عند اليهود وفي ظل الإنعدام لأية طباعة أو توثيق لمدة تزيد عن الألف عام ، في حوزة أشخاص متنافري الأمانة الشخصية والإستقامة الدينية وفي سياق عدم تعهد الباري عز وجل بحفظه من العبث ، كما هو الحال مع القرآن الكريم : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ ، فمن الطبيعي أنْ تشوب هذا الكتاب الكثير من التناقضات .

أما الأسفار الخمسة التي سميت بـ«أسفار موسى» فإنها لم تتعرض للنقد المماثل لما أصاب كتاب التوراة ، ولم يتجه التعريض أو التجريح لنصوصها كون هذه الأسفار قد حظيت على الدوام بالقدسية التامة لها ، وإستحوذت على المكانة الخاصة من حيث الإحترام والتبجيل من قبل اليهود ، للدرجة التي جعلت قوماً من اليهود ألا يأخذوا من التوراة إلا أسفار موسى الخمسة ، فما زالت «الفرقة السامرية» تتمسك بنصوص تلك الأسفار على أنها الشرائع الأصلية لليهود .

وكما هو معلوم فإن إسم هذه الفرقة مأخوذ من منطقة «السامرة» الفلسطينية ، وفي أعقاب النهضة العلمية الحديثة التي تعتقد بها ، والإكتشافات الكبيرة والمتنوعة التي أعقبتها ، وتطور وسائل القراءة والتدقيق التقنية المبذولة خلال التعاقب الزمني ، فإنَّ الحصيلة الهائلة التي كانت من نصيب قضية «الخلق والتكوين» التي تعددت سبل تفسيراتها وفقاً للإفتراضات المنطقية التي عززتها الدراسات الآثارية ، وبالتالي غدا من المستحيل إطلاقاً الإتفاق على تصورات موحدة بشأن المعالم العملية لمفاهيم «الخلق والتكوين».

التلاعب اليهودي في سفر التكوين

لقد أصبحت عمليات البحث في مضمون مفهوم سِفر التكوين ، وما تلاها من تدقيق معرفي ، هي التي تحدد النتائج الموضوعية للبحوث ، وتقيم القناعات الفكرية التكوينية ، وذلك على ضوء المعطيات الحسابية المكتشفة بدءاً من ظهور النوع الإنساني على الأرض على ضوء الدراسات الأنثروبولوجية وتصادمها مع المعطيات النظرية التي وردت في «سفر التكوين» ، وشهدت عمليات البحث ومجمل المكتشفات العلمية قفزة نوعية خلال القرن التاسع عشر والقرن العشرين نظراً للتطور التكنولوجي وإنتشار الوسائل السريعة في النقل وتعدد المختبرات البحثية في العالم ، الأمر الذي أدى إلى التعرف على الأسرار اللغوية القديمة والتفقه في ما توحي إليه الرموز المكتشفة .

وهو ما سهل عملية الترجمة للغات القديمة أو المنقرضة الإستعمال ونقلها إلى اللغات الحية في العالم الحديث والمعاصر ، فباتت اللغات الهيروغلوفية والمسمارية معروفة لذوي الإختصاص والإهتمام بالآثار خلال فترات زمنية متقاربة قياساً لعدد القرون المنصرمة ، مما عزز التباينات التفسيرية عند العلماء المختصين ، وبالتالي زادت الشكوك لديهم بصدد «النظرة الدينية المقدسة» التي كانت ترتئي تفسير قضية الخلق والتكوين بشكل مغاير لما يألفه العقل ويرتاح إليه التفكير المنطقي ، على ضوء المعلومات المتوفرة والمكتشفات المتحققة .

ونال الأفكار الواردة في «الأسفار الخمسة» أي «أسفار موسى» ما نال غيرها من الأفكار من حيث التأويل والتفسير ، إذ بينت المكتشفات الآثارية والمترجمات اللغوية الحديثة عن اللغات الأخرى أن المراحل الزمنية التي سبقت تدوين هذه الأسفار ، قد شكلت المعين الأساسي لما سيجيء بعدها في التوراة ، فقد تبين أنّ هذه المناطق النهرية التي هي بعضاً من منطقة الوطن العربي الحالية كانت تعج بأنماطٍ من النصوص الأدبية والأساطير التاريخية والحكم المتداولة في المجتمع الذي يقطن هذه المنطقة والشرائع المتنوعة التي كانت تعد معيار محاكمة تصرفات الإنسان بالنسبة للمجتمع والسلطة الحاكمة .

وهي ذاتها النصوص الموجودة في كتاب «التوراة» الديني ، الأمر الذي ينزع عن خضوع «الكتاب المقدس الأخير» إلى صفات «التدشين العقلي للرواية البشرية» بله يجعل بعض تلك النصوص التوراتية مقتطعة من ما أفرزته أفكار الحضارات البابلية والفرعونية والكنعانية وأجملتها النصوص والحكم والأساطير والشرائع ، بدلالة كونها أسبق تاريخياً وبآلاف السنين من كتاب «التوراة» ، ونمت في مجتمعات مستقرة اِستقبلت «اليهود المسبيين» الذين لم يعرفوا تلك الأفكار في المرحلة الماضية .

والأستاذ القدير والعالم الكبير والمرحوم الأستاذ عجاج نويهض يؤكد على تلك الحقيقة وذلك في كتابه المعروف بعنوان «بروتوكولات حكماء صهيون» وعلى الصفحة 294 من خلال القول التالي : إذ أنَّ بني إسرائيل اقتبسوا من :«الكنعانيين ما أخذوا ، ومعظم ما في التوراة من أخبار خلق العالم والتكوين والطوفان وتمجيد {إيل} الإله إنما كل هذا اِقتبسوه من الحضارة الكنعانية والعراقية» ، وهذا الاِقتباس وفق التعبير اللغوي للأستاذ نويهض هو «الإضافة والحذف» وما لحق بهما من التحريف الذي لحق بكتاب سماوي ، كما يقول البعض ، وكان هذا التحريف بالحذف أو الإضافة هو العامل الرئيس والسبب الأساس الكامن وراء كثرة الخلافات بين الفرق اليهودية التي تناسلت منها الاِنشقاقات المتوالية التي أصابت الجسم التكويني لأتباع الديانة اليهودية .

فبالإضافة إلى فرقة «السامريين الأصولية» غدت فرقة أخرى هي فرقة «القرائين» التي رفضت الاِلتزام بالنصوص الواردة في كتاب «التلمود» وإتباع التعليمات الواردة فيه ، وتمسكت بدلاً من ذلك بشريعة موسى وحدها : أي أنها آمنت بـ«الأسفار الخمسة» ، فيما أطلق العلاّمة الإسلامي أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر الشهرستاني في كتابه المعنون «الملل والنحل» وعلى الصفحة 97 اِسم أو صفة «العنانية» نسبة إلى عنان بن داوود رأس الجالوت .

وللتخفيف من وطأة هذا التلاعب في كتاب سماوي مقدس بالنسبة إلى مَنْ يعتقدون بنصوصه وأفكاره يقول موريس بكاي في كتابه المعنون في دراسة الكتب المقدسة ، وعلى الصفحة 25 ، يقول التالي :

«إنَّ الوحي يختلط بكل هذه الكتابات ، ولكننا لا نملك اليوم إلا النصوص التي خلفها لنا الكتّاب الذين عالجوا النصوص على سجيتهم وحسب الظروف التي عاشوها والضرورات التي كان عليهم مواجهتها» ، هذا ويذكر الأب ديفو إنَّ التراث اليهودي الذي اِمتثل له عيسى والرُسل « كان مقبولاً حتى نهاية القرون الوسطى ، وكان الرافض الوحيد لهذا التوجه أبين اِسرا» ،[موريس بكاي ، ص 27] ، وفي القرن السادس عشر أشار «كارلتشاد» إلى اِستحالة أنْ يكون موسى قد كتب بنفسه كيف مات ، [سِفر التثنية ، الإصحاح 34 ، الآيات من 5 إلى 12] .

يؤكد الأب ديفو هذه الاِستنتاجات التي جرى التطرق إليها أعلاه حيث يقول : «إنَّ نقاداً آخرين يرفضون أبوة موسى على الأقل لجزء من الأسفار الخمسة ، ويشير إلى دراسة ريشارد سيمون الصادرة في عام 1678 التي اِحتوت تحدياً لنصوص تاريخية كان مسّلم بها اِمتاز بالجرأة ، ولكنه لم يؤخذ به ، وفي سنة 1753 نشر جان اِستروك دراسة في غاية من الأهمية ، للدرجة التي دفعت المؤلف بكاي على الصفحة 28 من كتابه المذكور سابقاً يعيد التأكيد في هذه الدراسة على اِحتواء هذه الأسفار الخمسة على العديد من المصادر ، وخاصة رأى ذلك التعدد في «سِفر التكوين» على وجه التحديد ، إذ وجد جان ستروك فيه نصين جنباً إلى جنب مختلفين في إطلاق التسمية على «الذات الإلهية» أو اِسم الرب : فيسميه أحدهما يهوه ويسميه الثاني بألوهيم .

ويكمن في هذا الاِختلاف فارقاً كبيراً في عموم أية شريعة دينية تؤمن بالإله الواحد ، وهو ما دفع أحد المهتمين بالشؤون اليهودية إلى إصدار كتاب يختص بالبحث في تعدد أسماء الله في كتاباتهم التاريخية ليصل إلى طرح سؤال يتعلق بالتالي :

«هل هم موحدون لا يعبدون إلا إلهاً واحداً ؟» .

والكتاب من تأليف الأستاذ عبد المجيد همو المعنون الله أم يهو ؟ أيهما إله اليهود؟ من إصدار دار الأوائل في العام 2003 .

وبحلول القرن التاسع عشر وفي ظل اِنتشار الدراسات التي تنطوي على الشك في أي شيء إنصّبَ الجهد على بحوث تاريخية تميزت بالدقة والجرأة في مناقشة النصوص التي عُدت الأكثر قدسية عند بني البشر ، ففي سنة 1854 توصل الباحثون العلميون إلى أنّ هناك أربعة مصادر تضم ما سمي بالوثيقة اليهودية والوثيقة الألوهيمية وسفر التثنية والنص الكهنوتي ، واِستناداً إلى تلك المعطيات فقد تشتت أسفار موسى الخمسة .

من جهتنا لا نعطي اِهتماماً خاصاً لهذه المسألة برمتها ، ولكن ما يعنينا منها هو التركيز على محتويات «النص الكهنوتي» الفكري ، لكونه مرتبطاً بالدرجة الأساس بالنبي حزقيال ، ويرتبط كذلك في تأثيراته اللاحقة في مدرسته الفكرية ذات المنحى العرقي المشبوب بالحقد على الآخرين ، ممن تسببوا في سبي قومه ورفضه للاِندماج بثقافتهم والاِنصهار في المجتمع الذي تواجدوا فيه ، والتي غرس قيمها الفكرية في مَنْ خلفه وخصوصاً : نحميا ودانيال وعزرا .

يقول موريس بكاي في دراسته للكتب المقدسة وعلى الصفحة 29 «إنَّ النص الكهنوتي ينتمي إلى عصر النفي أو ما بعد النفي ، أي القرن السادس قبل الميلاد» ، وهي الفترة التي تعّد ـ كما أرى ـ المفصل الأكبر عند اليهود من جهة تصاعد لغة الغلو والشعور بالتعصب والاِلتزام بأبعاد الاِنكفاء على النوع اليهودي والاِنطواء المناهض للآخرين .

وفي هذه الفترة بالذات تكونت أسطورة «شعب الله المختار» التي منها وبالاِستناد إليها اِنبثقت النظرة الإحتقارية والدونية للشعوب الأخرى ، وفي هذه الفترة أيضاً تم كتابة «التوراة» التي حرّفها اليهود وجرى رسمها على خلفية أهوائهم وتم ملؤها بأفكار تتناقض مع الرؤية الموحدة للخالق تجاه كل البشر الذي ساوى بين كل المخلوقات من دون تمييز للبعض على البعض أو قومية ضد قومية أخرى أو لون ضد لون آخر .

لطالما كان التوحيد ـ على ضوء هذا التحريف للتوراة ـ عند اليهود مجزءاً ومثلوماً ، وأفرز ذلك بالضرورة تعدد أسماء الآلهة عندهم ، فمن يهوه إلى بعل الكنعاني إلى ألوهيم ، تنوعت الأسماء المعبودة ، وكلٌ له جزاءاته في اليوم الآخر ، الأمر الذي جعل قلة الخوف أو تقلص الوازع الديني تجاه المسؤولية أمام الله ، ومن ثَم تم توظيف تلك الشريعة الدينية التي كانت سماوية في الأصل . . . تم توظيفها في خدمة الأهداف العنصرية العرقية الخاصة باليهود تدريجياً حتى وصولها إلى المرحلة الذروة في نهاية المطاف من خلال نصوص كتاب التلمود المليء بالعرقية اليهودية ، وعنه يقول ألبيرتو دانزول في كتابه المعنون «اليهودية والغيرية» ، غير اليهود في منظار اليهودية ، من ترجمة الدكتورة ماري شهرستان ، في الصفحة 217 ما يلي : «التلمود : تعني دراسة وتعليم ، وهو مجموعة أدب لشروحات الميشنا ، هذا الأدب يحوي وثيقتين كبيرتين : تلمود أورشليم ؛ وهو قليل التفصيل ومغلق للقرن الخامس ، والتلمود البابلي ؛ وهو الأكثر اِتساعاً ، والأكثر دراسة ، ومغلق للفترة نفسها . مقسم إلى ستة أقسام ، ويحتوي ثلاثاً وستين دراسة ».

ومن بين النصوص الكثيرة التي ينطوي عليها التلمود نشرت جريدة «المقتطف» وصفاً لكلام التلمود مبتعدةً في الوقت ذاته عن إيراد النص لشدة كفره على الشكل التالي : «اليهود يصفون التلمود فوق التوراة ، والحاخام فوق الله ، {إستغفر الله} ، والله يقرأ وهو واقف على قدميه ، وما يقوله الحاخام يفعله الله . . إلخ» [عن كتاب بروتوكولات حكماء صهيون ، ص 482] ، وفي مكان آخر يقول أحد أحفاد حزقيال وهو الرباني مناحيم ما يلي :

«إنَّ الله يأخذ رأي الربانيين العائشين على الأرض في المشاكل التي تنشأ في السماء» ، وفي كتاب العلامة يونس حنا مسعد المعنون همجية التعاليم الصهيونية يقول ما يلي : حول ما جاء في كتب التلمود :«إنَّ الله اقسم بغير عدل ، وارتكب خطيئة الكذب لكي يلقي السلام والوئام بين إبراهيم وسارة» ، وكتاب التلمود يتحدث على هذا لمنوال حول شؤون الخلق والخالق في كتابٍ يتكون من ستة وثلاثين جزءاً ، وكان هذا الكتاب بالذات أحد الأسباب الرئيسية التي تقف وراء اِضطهاد اليهود في عموم أوروبا . . .

وهناك نسختان من كتاب التلمود في الوقت الحاضر ، النسخة الأولى تسمى التلمود البابلي والنسخة الثانية تسمى التلمود الفلسطيني ، والتاريخ حافل بالأعمال الشريرة والأكثر بشاعة في كل العصور والمدانة حصراً بمرتكبيها ، ولكن كل هذه الأعمال التي ألحقت بالشعوب الأخرى حيثما تمكن فيها اليهود من النيل منها ، لم تكن تأخذ كل أبعادها العملية كاملة لو لم تتسلح بالمنهج الأيديولوجي القائم على التربية لكل الأتباع عبر تكريس الحقد في النفوس وزرع الكراهية في الأذهان من خلال نصوص يضمها «دين عرقي إثني» ، موغلاً في اِرتياد طريقاً للشر وصولاً لأهداف ملموسة في صناعة الشر ، وذلك ما ينجز تلك التربية كتاب «التلمود» ، وهي المهمة المنوطة بنا في هذا البحث والتي أخذنا بها على عاتقنا لمعرفة مَنْ هو الصائغ الأول لأفكارها والمنظم لسطورها .

من خلال التدقيق في النصوص المختلفة رأينا أنَّ هذه الصياغة الفكرية قد اِقترنت ببناء الأسس التنظيمية التي جرى عبرها تنمية تفرعات البذور الشريرة الأولى التي زرعها مؤلف هذا الكتاب التي أورقت نزعات التعصب والحقد والشرور المختلفة ، وحددت أبعاد الاِنكفاء عن الآخر والاِنطواء على الذات والعزلة عن الآخر .

فكان «عمل حزقيال [قد تم] على هذا المنوال ونحو الغاية الكبرى ، وهي إعداد الجيل الجديد [الذي ينمو في ظل الظروف الجديدة وخلال ما بعد] السبي للعودة إلى أورشليم»، ومع الكتاب الذي ألفه عزرا فقد أصبحت هاتان الرؤيتان أو هذان العملان معاً . . . شكلا «أكبر عامل في فتح أبواب الخيال الأسطوري مما أدى إلى نتائج كبيرة [اِنعكس تأثيرها] في الأجيال المقبلة» ، [كما يقول الأستاذ عجاج نويهض في كتابه المعنون بروتوكولات حكما صهيون ، ص 375] .

وفي مكان آخر من ذات المصدر ، ولكن على الصفحة 372 يقول المرحوم نويهض التالي :

«حزقيال ورفقته ، هم أول مَنْ مثل الدور الأول في تهيئة النسيج الذي عـُرف نظامه فيما بعد [بحكماء صهيون] » ، أي يمكـن القـول إنَّ الـدين اليهـودي ديـن البسـاطة والفطـرة والتوحيد من النبي موسى حتى النبي أشعيا ، ليأخذ واقعاً وشكلاً جديداً يعـد مفصـلاً بـل تقاطع [أي تصادم] على يد حزقيال ومدرسته الفكرية .

وسنستدل على دليل آخر يبرهن على الإستنتاج الذي تقدم ذكره مـن خـلال متابعـة أقـوال النبي أرميا وهو المعاصر للنبي حزقيال ولكنه سبقه في نيـل النبـوة ، فهـذا النبـي كـان يحـث ويشجع اليهود على ضرورة الإندماج في الأرض التي يتواجدون عليها في أعقـاب السـبي مـن خلال الأوامر التالية :«إبنوا بيوتاً وإسكنوا وإغرسوا جنات وكلوا ثمارها . خذوا نساء وولدوا بنين وبنات وخذوا لبنيكم نساء وأعطوا بناتكم لرجال فيلدِنَ بنـين وبنـات وأكثـروا هنـاك» ، [أرميا 29 : 4 ـ 6] ، وأضاف النبي أرميا في مكان آخر مـا يـلي وهـو يقـدم شـكواه وتحـذيره لليهود المسبيين «فقال الرب على تركهم شريعتي التي جعلتها أمامهم ولم يسمعوا لصـوتي ولم يسلكوا بها ، بل سلكوا وراء عنادهم» ، [أرميا : 9 : 13 ـ 14] .

وبغية الوصول إلى تحديد جذور مفاهيـم التعصـب ، وأصـول الينـابيع التـي سـقت شجرها السام ، للدرجة التي أوجدت فيها « جسماً يهودياً هو التعصب والإنغـلاق ذاتـه ، ومن أجل البرهنة على صيرورة ذلك «التعصب والإنغـلاق» ينبغـي الإشـارة إلى مؤسسـيه الأوائل : حزقيال ونحميا ودانيال وعزرا ، وما نتج عن أفكارهم ودعـواتهم ، الأمـر الـذي أدى إلى «كشف الغطاء عن ينابيع هذه العقائد التي أفرزت التلمود كأعمال حزقيال وعـزرا ونحميا ودانيـال» ، كمـا يـورد ذلـك الأسـتاذ عجـاج نـويهض في مقدمـة كتابـه المعنـون بالبروتوكولات .

ومن مظاهر التعصب في التكوين الثقافي لهذا الإتجـاه الجديـد الآخـذ في النمـو يمكـن إيراد الإستخلاص الذي قال به عزرا حول ما سيتركه الإخـتلاط والإنـدماج بغيـرهم مـن الأقوام على الذهنية اليهودية من أفراد السـبي وفي المقدمـة منهـا تـوهين الـروح اليهوديـة «وأخذ عليهم العهـد ألا يختلطـوا بسـواهم وأنْ تفسـخ الزيجـات» ، [بروتوكـولات ص 389] ، وهذا نحميا أحد أعضاء التعصب والإنغلاق التلمودي عند اليهود ومن الأعضـاء البارزين في مدرسة حزقيال وهو يسبق عزرا من حيـث التـاريخ يؤكـد عـلى ذلـك الإتجـاه المنغلق تجاه الآخرين بالقول التالي :

«فخاصمهم نحميا ولعنهم وجلد بعضهم ونتف شعورهم ، وقال لقومه: إنَّ سليمان ما جره إلى الخطيئة إلا تزوجه بنساء أجنبيات ، فهل نسمح لكم أنْ تعملوا هذا الشر العظيم ؟ » ، [سفر نحميا] .

إذاً هناك مدرستان ذات اِتجاهين مختلفين في وقت واحد :

المدرسة الأولى : مدرسة أرميا النبي الداعي إلى السلام والاِندماج في المجتمعات الجديدة التي يقيم بين ظهرانيهم اليهود ، إلا أنَّ تأثيره على الجسم اليهودي من المسبيين كان بدرجة أقل بحكم وجوده في مصر واِبتعاده عن منطقة بابل ومحيطها ، وهي المكان الذي ضم الأكثرية من يهود الشتات الذين تعرضوا لعمليات السبي المتكررة .

المدرسة الثانية : فهي التي كانت الأكثر نجاحاً في تعبئة الأفراد اليهود ممن وقعوا في شراك السبي وتكتلوا في اِتجاه تنظيمي محكم ، وكان عنوانها الأساس وهم من أتباع مدرسة حزقيال القائمة على التعصب الفكري والتزمت العرقي والعمل على مأسسة الدين اليهودي والاِنعطاف نحو غايات شريرة تخدم أهداف وأساطير مستقبلية لا تتحقق عملياً إلا عبر الاِنزواء والاِنطواء والاِنكفاء والاِنصراف للدراسة والتخطيط وحبك المؤامرات والدسائس باِعتبارها شروطاً أساسية توصلهم إلى غاياتهم المرسومة من خلال اِستخدام كل الوسائل وإنْ كانت شريرة وغير شريفة على القاعدة المعروفة بـ«الغاية تبرر الوسيلة» .

يسجل المؤرخ العالمي هربرت جورج ويلز في كتابه المعنون «موجز تاريخ العالم» الحقيقة التالية التي تخص الأنبياء اليهود المتعصبين والمنغلقين في التاريخ أنَّ «أنبياء بني إسرائيل على الغالب ساسة في مسوح أنبياء» ، مثلما يؤكد هذا الاِتجاه المنغلق وما يترتب عليه من سلوك عملي عنصري اِنتظم كل عملهم اليومي والمرحلي يتراجع في ظهوره عندما يحيط فيهم الضعف وتغيب عندهم القوة ويغيب لديهم الحليف القوي ، ويبرز ذلك السلوك الهمجي والعنصري عندما تتراجع تلك العوامل المخلخلة لقوتهم ويتقدم لديهم كل ما يجمع شملهم المبني على القوة المسلحة والتحالف مع القوة العالمية الأبرز . . .

نقول : يؤكد ذلك الاِتجاه الأستاذ عجاج نويهض في كتابه المشهور بالبروتوكولات وعلى الصفحة 371 ما نصه :«وسواء علينا ، أبدأنا بحزقيال واِنتهينا بهرتزل ، أم بهرتزل واِنتهينا بحزقيال» فالصفة المشتركة هو التوغل في الجريمة ضد الآخر المختلف معهم كونهم محور العالم الذي منحهم الرب صفة :«شعب الله المختار».

إشكالية التوحيد عند اليهود

لا تخلو التوراة من الاهتمامات الروحية التي قد تخدم التطلعات الدنيوية التحريضية الأهم ، التي تتمحور حول الوعد : [الأرض التي أعطيت إبراهيم وإسحاق لك أعطيها ولنسلك من بعدك أعطِ الأرض] ، تكوين 25 سِفر 11 ، 12 ، 13 ، كما يورد كتاب التوراة حول رواية : الإله عندما يخاطب يعقوب ، وهنا يبدو أنّ الإله مشغولٌ بصنفٍ من البشر ويمنح ورثتهم «كارت بلانش» ، بغض النظر عن أية معايير زمانية أو مكانية التي ينبغي أخذها ووضعها في أي سياق تحليلي عند بحث أية قضية فكرية أو مسألة سياسية ما ، وتشكل في جوهرها العملي ، النقيض الفعلي والعملي لمفهوم «مساواة كل البشر» أمام القدرة الإلهية ، والذي ينبغي أنْ يقوم على أساس عمل الخير وعدم المّس بحقوق البشر الآخرين وتقديم الجهد الصالح الذي تبرره خدمة الكل والبعُد عن أية نزعات عدوانية تحت أية ذريعة كانت ، سواء تسترت بالنصوص الدينية «المقدسة» أو غيرها .

ومن الأخطاء المُسَّلّم بها عند أغلبية الباحثين في تأريخ الأديان ، المقولة التي تؤكد أنّ الدين اليهودي هو دين سماوي ، وما يستتبع تلك النظرة من مقولات ومفاهيم تتعلق بطبيعة النظرة الدينية ذاتها ، كون الدين السماوي هو دين كوني رحب يتوجه للبشرية جمعاء ، وكذلك للعالم أجمع ، ولم يقتصر الدين السماوي على شعب معين ، أو عشيرة ما محددة ، لها خصائص أنثروبولوجية لا تخضع لتأثيرات زمانية متقادمة ، وبطبيعة الحال فإنّ هذا الدين السماوي لا يخص قومية تحتكر منفردة مفهوم الإله/ الرب ، الذي يقوم على خدمتها [أي هذه القومية] ، ويشتغل لصالحها بتهيئة مقدمات الصناعة المسبقة للحرب الذكية ، من جهة ، والترهيب لجميع الأمم الأخرى بحذف حقوقها المكتسبة بحكم العوامل التاريخية والجغرافية ، من جهة أخرى ، على شاكلة ما جاء بالإصحاح السادس والعشرين «وتسكنون الأرض التي أعطيتُ آباءكم إياها وتكونون لي شعباً وأنا لكم إله» ، حزقيال ،الإصحاح 26 ـ سفر 8 .

تعدد الآلهة عند اليهود

الدين على العموم منظومة روحية متكاملة ترسم طبيعة العلاقة بين الخالق (الله) والمخلوق (الإنسان) ، مشروطة بسلوك يقوم على أساس الإيمان المسبق ، إيمان المخلوق بقدرة وقدسية وجلالة وعظمة الخالق ، والتسليم بإستقامة وطهارة الرسول أو النبي الذي إختاره الخالق وإصطفاه من بين عباده لتبليغ رسالته وإيصال المعلومات التي يريد نقلها للبشر ، وهذا التبليغ هو محتوى ما يريد تعميمه على كل البشر كتكليف ملزم للجميع أمام الله ، كي يبعدهم عن الشر الذي قد يتورطوا بإرتكابه ، من ناحية ، ويرشدهم للخير عبر العبادة ، والخشوع لله ، والسلوك اليومي ، من الناحية الأخرى .

وتشكل تلك المنظومة الفكرية والروحية والسلوكية ، المقاييس الأساسية في محاكمة البشر الذين ستسوَّد وجوه بعضهم ، وتبيَّض أخرى ، حين يقفون بين يدي الله عند يوم الحساب النهائي ، من حيث الجزاء عبر غـُرم العقاب أو نيل الثواب .

لم تتدنَ مكانة الإله (الرب) في دين سماوي أو دين وضعي أو حتى في أية منظومة فكرية وثنية ، كما تدنت مكانة الإله في الدين اليهودي ! ! !، فيعقوب يتغلب على الإله ويصرعه في نزال بينهما ، كما يذهب إلى ذلك النص التوراتي ، الذي يرِد في «تكوين 26 ، 29 ، 32 :

(وقال إطلقني لأنه قد طلع الفجر ، فقال لا أطلقك إنْ لم تباركنِي ، فقال له : ما اسمك ؟ فقال يعقوب ، قال لا يُدعى إسمك فيما بعد يعقوب ، بل إسرائيل ، لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت ، وسأل يعقوب : أخبرني بإسمك ؟ فقال : لماذا تسأل عن إسمي وباركه هناك) . . .

إذن إسرائيل الذي هو يعقوب وفقاً للتكوين التوراتي ، قد صرع الإله ، وإنتزع المباركة له منه عنوة .

وفي الحقيقة نحن لا نعرف على وجه التحديد التالي : هل إمْتِحنَ الإله بهذا الشعب ؟ أم الشعب هو الذي إمْتِحنَ بهذا الإله ؟ لقد خبر اليهود قوة الإله وعرفوا مدى بطشه من خلال صراعه مع يعقوب ، لذلك لم يحظَ بالتبجيل والقدسية عندهم ، لا بل أنهم ألصقوا به كمّاً من الصفات الإنسانية (أي البشرية) المنبوذة والسلبية ، فالإله ، كما وصفته التوراة ، إله حسود ، غيور ، غاضب ، مهزوم ، قلق ، نادم ، شهواني ، شرير .

وفي ذلك يقول سيجموند فرويد ، العالم النفسي المعروف ، عن الإله الذي تم تحديد سماته في كتاب التوراة : «إنه شيطان ضاميء للدم بشكل غريب ، يسير في الليل ويتجنب النهار» ، جوناثان كيرتش ، ص 200 .

وتشير التوراة في حزقيال ، إصحاح 25 ، سِفر 12 ـ 13 إلى التالي :«هكذا يقول السيد الرب وأمُّد يدي على أدوم وأقطع منها الإنسان والحيوان وأصيرها خراباً» ، فهل مهمة الرب الانتقام الجذري من البشر وما أقاموه من مدن وبساتين ؟ ، أم السماح لكل الخطائين بالتوبة ، والعفو عنهم ، في الحياة الدنيا ؟ ! .

كما احتوى التكوين التوراتي أيضاً ، سِفر 6 ـ 7 النص التالي : «فقال الرب : أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقته ، الإنسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء لأني حزنت إني عملتهم» . . . إذاً هو إله شرير شَرِه متعطش للدماء وعاشق للقتل ، يسحق ويبيد الأمم والشعوب لصالح «شعب إصطفاه» من دون البشر . . أي لصالح شعب إسرائيل ، للدرجة التي تكبد معهم عناء التيه في صحراء سيناء لمدة أربعين عاماً ، كونه لم يعرف الطريق إلى فلسطين . . (أرض الميعاد) ، وفي سيناء ملّوه ونبذوه فأغلظ فيهم السيف والقتل .

وفي سِفر حزقيال ، الإصحاح 21 ، سِفر 1 ـ 2 ، ورد النص التالي : «وقل لأرض إسرائيل هكذا ، قال الرب : ها أنذا عليك وأستّل سيفي من غمده فأقطع منك الصديق والشرير».

تعددت الآلهة في كتاب التوراة وإختلفت أسماؤهم ، وهذه نماذج على تلك التسميات نذكر منها على التتابع : أدوناي ، ياهو ، يهوه ، إيل ، ألوهيم ، بعل ، أهيه ، هذا العدد الكبير من الآلهة يشير بشكل ملموس إلى فكرة رئيسية محتواها ، دحض فكرة الدين السماوي الموحد . . .

أي دحض مفهوم التوحيد عند اليهود ، علاوة على أنه كان لليهود عبادات أخرى لم ينقطعوا عنها ، عبادات وثنية منها عبادة العجل الذهبي الذي صنعوه في سيناء أثناء خلوته الطويلة مع الإله وعندما عاد وجدهم على عبادة العجل ، وهو الأمر الذي دفعه إلى كسر الألواح التوراتية

. . . « كانت السامرة عاصمة الأسباط العشرة ، مركزاً لعبادة العجل الذهبي ! بينما كانت أورشليم عاصمة يهوذا معقلاً للعبادة الوثنية ، والاعتقاد في آلهة متعددة» ، [اللاهوت العربي ، يوسف زيدان ، ص 64] ، وهذا نص توراتي يذهب إلى تعدد الآلهة في جملة واحدة . . . ففي التكوين 3 : 22 ، 24 « وقال الرب الإله : هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا ، عارفاً الخير والشر والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً».

الدين اليهودي دينٌ وضعي

أصبح من المسلَّم به تماماً لدى الباحثين وأصحاب الاختصاص ، أنَّ التوراة كُتِبَت في الفترة الزمنية التي أعقبت مرحلة السبي البابلي ، وفي ذروة «مجدهم» الزائف ، و«إنتصارهم» المزعوم ، وذلك بعد سقوط بابل على يد الفرس . كانوا يشاركون بشكل فاعل في سبيل تحقيق هذا الهدف السياسي والفكري عبر المساهمة غير المباشرة في هذا الحدث المأساوي في نظر كل العراقيين المخلصين لدولتهم التي أنارت بصيرة العالم ، وكانت المجموعات اليهودية في حالة مرتبكة من الهيجان والحراك والحركة الموارة للدرجة التي يصعب معها لَمَّ شعث هذه المجموعات ، ولكن هذه المجموعات تبنت المنظومة الفكرية التي كان جوهرها : لُحمتها وسُداها ـ كما يقال ـ الإرتكاز إلى «قدسية» الشعار القائل بمفهوم شعب الله المختار وما أعطي له من وعد إلهي : «أرض الميعاد» من خلال إبرام عقد بين «شعب» متمرد ، من ناحية ، وبين «إله شرير» ، من ناحية أخرى .

كان كتاب التوراة ، من الناحية السياسية ، أشبه ببرنامج عمل عنصري الجوهر ، يسعى القائمون على صياغته لتحقيق أهداف دنيوية ، وفي هذا السياق لابد من الإشارة إلى أنَّ الكتاب ذاته لا يتطرق إلى مسألتي الثواب والعقاب الأخرويين ، كون التوراة تعبِّر عن دين وضعي وليس ديناً سماوياً ، ويهتم بإنجاز أهداف دنيوية بحتة ، كما لا تحتوي التوراة على الإشارة إلى مفهوم نهاية الحياة : أي مجيء يوم القيامة ، أي مفهوم «اليوم الآخر» الذي «بشَّر» به الدين الإسلامي و«أنذر ».

ولكنَّ الدين اليهودي أدخل لاحقاً هذه المفاهيم من خلال «التأثر» اللاحق بالـديانتين اللتين سيراهما العالم خـلال مراحـل زمنيـة أعقبـت نشـوء المفـاهيم اليهوديـة الوضـعية ، والديانتان المقصودتان بتأثيرهما المعـرفي عـلى الرؤيـة الدينيـة اليهوديـة ، همـا المسـيحية والإسلام ، يتبدى ذلك جيداً من خلال إدخال فكرة ، مفهوم ، البعث ، ومفهـوم القيامـة ، وما يتعلق بهما من شروحات تتناول مراحلهما الأخروية والتي يتجسـد خلالهمـا الجـزاء بـ«العقاب» أو «الثواب» بناء على محاسـبة الإله لأعمال الإنسان / الفرد بالحياة الدنيا .

وهذه المفاهيم والأفكار الأخروية التي تميزت بها الـديانتان السـماويتان ، المسـيحية والإسلامية ، قد خلا تماماً منها كتاب التوراة ، ولكنهـا أدْخِلـتْ في النصــوص المتـأخرة التي حملتها «المنشاة» و«الجمارا» ، ومن هنا صارت عقيدة البعث ، جزءأ رئيساً من الديانة اليهودية ، وهو «جزء رئيسي من المفاهيم التي حملها اليهـود في صـدورهم ، والتـي تمـت إضافتها لكتبهم الدينية بعد قـُرابة السبعة قرون» ، كما يؤكد السيد يوسف زيدان :

«استكملت المنظومة الدينية اليهودية لذاتها اعتماداً على الديانتين المسـيحية والاسـلام بادخال فكرة البعث أو القيامـــة ومـــا يتعلـق بهمـا مـن الاخرويـات وهـو مـا خلـت منـه النصوص اليهودية ، الصفحة 31 من كتابه المعنون : اللاهـوت العربـي للأسـتاذ يوسـف زيدان.

وكان الإله التوراتي ، في مرحلة التيه الصحراوي بصحراء سيناء ، يجالسهم في الخيمة ، ويتقدمهم أثناء المسير على هيئة عمود من النار يضيء الليل ، ويبدو في النهار شاخصاً عـلى شكل أو هيئة من العُتمة ، ويخاطبهم ! ! كلهم ، إذ لم يكـن النبـي موسـى كلـيم الله وحـده آنذاك ، لقد كلم الله هارون أيضاً ، كما كلم مريم أخت هارون وموسـى ، وكـذلك خلـت التوراة من أي ذكرٍ للجنة بالمفهوم الأخروي ، إنما ذكِـرَتْ فقط أثناء الحـديث عـن جنـة عدن التي طـُرد منها آدم .

لقد تميز كتاب التوراة بأسلوب سردي مفعم بالحيوية إلى جانب كونه أسلوباً ساحراً أخّاذاً ، ويتضمن لغة أدبية عالية الصنعة ، على الرغم من تكرار ألفاظ القتل وصفات الدم المتناثر ووقائع الإبادة الجماعية التي تقشعر لها الأبدان ، بناء على مقولة تزر الوازرة وزرَ الثانية التي ارتكبها الآخر ، علاوة على الانحدار الأخلاقي لمنظومته القيمية تجاه السلوك البشري السوي ، للدرجة التي جعلت من كتاب التوراة مصدراً أساسياً في تفكير أتباعها وباعثا للإلهام لهم ، كي يقوموا بحفر أنهار الدم ، فعلى سبيل المثال ، يؤكد الكاتب والمحقق يوسف زيدان على الحقيقة التالية :

«لقد إنقلبت في التوراة منظومة القيم الإنسانية رأساً على عقب ، وصار القتل مباحاً ما دام يتم بإسم الرَّب ص 58 . . .

إضافات لا بد منها

إنَّ بعض ما ورد على شكل معلومات في كتاب التوراة التي منها ما ورد في : خروج ، الإصحاح الثاني ، السِفر ـ 1 ، إذ يورد الإصحاح الأقوال التالية : «ذهب رجل من بيت لاوي وأخذ بنت لاوي ، فحبلت منه وولدت إبناً ! !» . . فمَنْ هذا الرجل ومنْ هي الفتاة اللاوية ، كلا الشخصيتين مجهولتان ، إنّ هذا الإبن هو «النبي موسى» بالذات ، والتوراة أو كتبة التوراة لا يعرفون إسمَ أمه ، والدة النبي موسى ، وستزداد دهشتنا حين نعلم : إنّ سِفر الخروج هذا ! ! . . هو جزء أساسي من الأسفار الخمسة التي هي : تكوين ، خروج ، لاويين ، عدد ، تثنية ، تتضمن النصوص الكاملة لما يُسمى بـ : أسفار موسى الخمسة التي يُطلَق عليها (التوراة) .

أما الكتاب الذي يُطلَق عليه (العهد القديم) فيثير لدينا تساؤلاً حول كيفية تمكن كتبة التوراة من التوصل إلى فرضية «إحكام» النسب من إبراهيم إلى نوح ثم وصولاً إلى «يقين» منتظم من أسماء أفراد الأرومة بشكل متصاعد ، حتى آدم ـ جد البشر الأول ـ عبر تسلسل «موثوق» من الأسماء والتواريخ ، في حين أنهم لا يعرفون النسب الحقيقي لصاحِب الدعوة الدينية :

النبي موسى ؟ . !

الاعتراضات المنطقية على كتاب التوراة كثيرة جداً ، نأخذ الرابعة منها التي أشارت إليها موسوعة الحضارة ـ على سبيل المثال وليس الحصر ـ الذي ذكره الأستاذ وول ديورانت عبر قوله التالي :

«إنَّ العهدَ القديم هو كتاب تشريع وتاريخ الأمة العبرية رغم ما إحتواه من أغلاط تاريخية تفقده بالضرورة ، الخاصـِّية المتعلقة بمصدرية الوحي من السماء ، وتجبر الباحث ـ أي باحث جاد ورصين ـ على الاستخلاص بكونه مجرد إقتباسات مقتطعة من أفكار وقوانين حضارة بابل والحضارة الآشورية والحضارة الفينيقة والحضارة المصرية القديمة وأساطر الجزيرة العربية».

أما فيما يتعلق في الجانب الديني المسيحي فقد رفض كلٌ من بولس ومتي الربط بين اليهودية والدين المسيحي ، وكان هذا الرفض خجولاً بعض الشيء ، في حين أنَّ متي أول مَنْ ربط السيد المسيح بنسل داوود .

وكان الرفض القطعي يعود إلى مرقيون (العقيدة المرقيونية) في منتصف القرن الثاني الميلادي ، سنة 144 م ، ويرى مرقيون أنَّ إله التوراة إلهاً جاهلاً ، ويلخص القمص نادر ملطي ـ الباثرولجي ، ص 324 ، تلك المعلومات والإستنتاجات على الوجه التالي : «كان مرقيون يزدري ويأنف من إله اليهود ، وكذلك يرفض كتاب العهد القديم» ، ولقد عـُد مرقيون هرطيقياً في نظر الكنيسة .

وسنذهب إلى القرن السادس عشر ، كي نتوقف أمام الفيلسوف اليهودي الهولندي ياورخ سبينوزا الذي قال : «إنَّ شقاء اليهود وشقاء العالم من اليهود يكمن في عدم إيمان اليهودي بالدين فقط ، و «عدم» تخلصه من أسطورة (شعب الله المختار) و«عدم» تخلصه من العصبية القومية ، «مما» يتيح لهم التنعم بالأمن والسلام في كل مكان ، خصوصاً إذا حافظوا على الفضائل وإلتزموا شرائع الدين وأسقطوا فكرة (أرض الميعاد) ، لأنَّ الله لا يشترط لعبادته (مكاناً جغرافياً بعينه) ، إبراهيم دسوقي ، ص 33 .

وإذا شئنا الإنتقال إلى أحد الكتاب العرب المسلمين المعتبرين ، فسنتطرق إلى الكاتب الكبير المرحوم إبن حزم الأندلسي ، وكتابه الموسوم باسم : الفصل في الملل والأهواء والنِحَل ، فقد ورد في الجزء الأول منه وعلى الصفحة 197 بالتحديد ما يلي : «كانت كتابة عزرا للتوراة بعد أزيد من 70 عاماً على خراب بيت المقدس ، وادعوا كذباً وزوراً أنَّ توراة موسى الأصلية فـُقِـدَت ، وإنَّ جبريل ـ لقيَ عزرا فلقنه التوراة ، وإنه عرضها على العلماء فوجدوها مطابقة للتوراة الأصلية» . . .ومن المعلوم للجميع أنّ إبن حزم في تناوله للتاريخ تتسم أعماله بالدقة التاريخية الموثوقة .

ومن المفيد جداً ، إختتام عملية إيراد هذه الشهادات التاريخية بمصدر معاصر إستحوذت كتاباته في هذا المجال على التقويم الإيجابي لدقة إلتزامه الصرامة التوثيقية والتدقيق المتناهي في إيراد المعلومات التاريخية ، وإقران أعماله البحثية بإستنتاجات حديثة توصل لها الباحثون الغربيون الذين تعاملوا مع الوثائق وحرصوا على عدم الوقوع في المطبات الأيديولوجية المناصرة للحركة الصهيونية ، ونعني به الدكتور الفقيد عبد الوهاب المسيري ، إذ تضمن كتابه المعنون :مَنْ هم اليهود وما هي اليهودية ، الإستخلاص التالي :

«ويبقى التوحيد اليهودي غير متكامل حتى القرن الثاني عشر الميلادي ـ القرن السادس الهجري على يد موسى بن ميمون ، إذ «قام موسى بن ميمون بتطوير عناصر التوحيد في اليهودية وأكدها» ، ومن المعلوم أنَّ موسى بن ميمون ولد في قرطبة الأندلسية / الإسبانية في 20 آذار من سنة 529 هجرية ـ 1135 م ، وتوفي في العاصمة المصرية : القاهرة في عام 599 هجرية ـ 1204 م ، أي عاش في كنف الحضارة العربية الإسلامية وربما تأثر بأفكارها بشكل كثيف .

الانتقال من الوضع الأيديولوجي في خدمة الذات اليهودية إلى لعب الدور الاستراتيجي في خدمة أوروبا الاستعمارية

وعندما غدت الحاجة إلى قوة عسكرية محلية في الوطن العربي ومحددة في خدمة التوجهات الاستعمارية الأوربية ، كانت الرؤية النابليونية : نسبة إلى الإمبراطور الفرنسي نابليون ، التي استشف فيها الإمبراطور الفرنسي أهميتها الإستراتيجية ، وكذلك ، سارت في ظلها الرؤية السياسية البريطانية مثلما مشى الوعي الأوروبي السياسي في دروب هذه الرؤية الإستراتيجية والسير على خطاها ، وبادرت تلك القوة العسكرية التي هي طور الإنشاء ، أي الجسم البشري اليهودي وقيادتهم الحركة الصهيونية العالمية ، للتطوع في خدمة هذه الرؤية السياسية الأوربية .

إذ التقت مصالح الطرفين للحفاظ على المصالح الأوروبية عبر تشكيل مخفر عسكري لحماية قناة السويس : تلك المنطقة المركزية للمصالح الأوربية الصناعية الرأسمالية ، وأهميتها التجارية من خلال اختصار خطوط النقل المائية بين الشرق والغرب بدلاً من المرور حول رأس الرجاء الصالح الطويل والمكلِف في مضمار النفقات ، من ناحية ، ولِعْب دور الحاجز البشري بين المشرق العربي والمغرب العربي ، من ناحية ثانية ، وهو الاستنتاج الذي توصل له القادة العسكريون الأوربيون بناءً على قراءة واعية لدروس الحروب الصليبية على الوطن العربي ، ودور الوحدة العربية الإسلامية في دحر هجماتها والقضاء النهائي عليها بعد قرنين من الحروب المتواصلة أو المتقطعة .

إن قراءة الوثائق التاريخية الأوربية بهذا الصدد تعطينا الدلائل الملموسة على كيفية انتقال هذه الكتلة البشرية من العمل على أساس المعتقدات الدينية لبناء الذات العنصرية ، إلى لعب الدور السياسي في سبيل الآخر كمرحلة لابد منها لتجسيم الذات السياسية اليهودية عبر الحركة الصهيونية العالمية ، ولعل من بين أبرز هذه الوثائق التي تدلل على هذا الانتقال ، هي الوثيقة الفكرية والسياسية المسماة بوثيقة : «كامبل بانرمان» الذي هو اسم رئيس الوزراء البريطاني في بدايات القرن العشرين ، التي ورد نصها في الكتاب الثمين الذي رأى النور باسم :العرب واليهود في التاريخ : حقائق تاريخية تظهرها المكتشفات الآثارية ، تأليف الدكتور المهندس أحمد سوسة ، الطبعة السابعة الصادرة عن العربي للطباعة والنشر والتوزيع ، دمشق سوريا ، دون تاريخ .

ففي الفصل الثامن والمعنون فلسطين في خطط الإستعمار الأوروبي ـ مقررات مؤتمر كامبل بنرمان لسنة 1905 أو مؤتمر لندن ، القسم الخامس ،الذي يبتديء من الصفحة 725 وحتى 731 ، يورد العالم الكبير المرحوم الدكتور أحمد سوسة نص البرنامج السياسي لأوربا الغربية تجاه الَوطن العربي ، والدور المخصص لليهود في السنوات المقبلية خلال العقدين الأولين من القرن العشرين .

ونص ذلك التقرير البرنامج المرتبط بدور اليهود في تنفيذ بعض بنودها ، وعلى أية حال فإنَّ الوثيقة التي نتجت عن هذا المؤتمر الهام الذي شارك فيه العلماء والسياسيين و«المؤلف من مشاهير المؤرخين وكبار علماء الإجتماع والجغرافية والإقتصاد والتاريخ والنفط والزراعة والإستعمار في دول الإتحاد» الأوربي ، التي عزمت على «تشكيل جبهة إستعمارية موحدة من الدول ذات المصالح المتوافقة في العالم آنذاك وهي : بريطانيا وفرنسا وبلجيكا وهولندا والبرتغال وإيطاليا وأسبانيا» إضافة إلى العديد من المفكرين الإستراتيجيين كان إنفاذه يهدف للبحث في كيفية تأبيد الحضارة الأوربية السائدة إلى الأبد .

مثلما حضره البروفيسور جيمن جيمس مؤلـف كتـاب البحـوث التاريخيـة المشـهورة وزوال الإمبراطورية الرومانية ، ولوي مادلين الأستاذ في السوربون ومؤلـف كتـاب نشـوء وزوال إمبراطورية نابليون ، وليستر الأستاذ في جامعة لندن ، ولتسنخ ، وسميث ، ودرتـنج ، وزهروف وغيرهم ، من مشاهير العلماء والأساتذة» ، ص 727 ـ 728 ، وأكـد العلمـاء المؤتمرون على حقيقة :

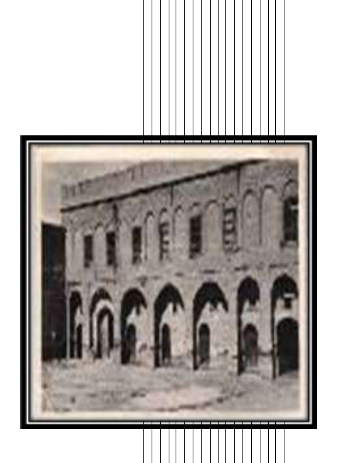
كون الشعب العربي الواحد والأمة الواحدة عبر النص التالي الذي أمكن الإطلاع علية ـ كما يرد ذلك في الكتاب الضخم المؤلف من 1014 صفحة ، وعلى الصـفحة 730 ـ «إنّ الخطر ضد الِإستعمار في آسيا وفي أفريقيا ضئيل. ولكن الخطـر الضـخم يكمـن في البحـر المتوسط ، وهذا البحر هو همـزة الوصـل بـين الغـرب والشـرق، وحوضـه مهـد الأديـان والحضارات ، ويعيش على شواطئه الجنوبية والشرقية بوجه خاص شعب واحد تتوافر لـه وحدة التاريخ والدين واللسان ، وكل مقومات التجمع والترابط ، وهذا فضلاً عن نزعاتـه الثورية وثرواته الطبيعة ، فماذا تكون النتيجة لو نقلت إلى هذه المنطقـة الوسـائل الحديثـة وإمكانيات الثورة الصناعية الأوروبية ، وِانتشر التعليم فيها وِارتفعت الثقافة ؟ ! إذا حـدث ما سلف فستحل الضربة القاصمة حتماً بالِإستعمار الغربي» .

ومن ثم يقترح برنامجاً للحفاظ على التخلف الذي يسود سكانه البالغ عددهم يـوم ذاك حوالي 35 مليوناً ، وتمزيق المنطـقـة بتجزئتها سياسياً ، في إطار سياسة فصل السواحل عن الدواخل ، وإقـامة حاجـز بشــري يفصـل المشــرق العربــي عـن المغـرب العربــي ، قـوي وغريـب . . . قـوة صديقة للِإستعمار وعدوة لسكان المنطقة» ص 731 ، ويُفضـل من اليهود .

ومن المعلوم أنَّ المؤلف العلامة أحمد سوسه المولود في مدينة الحلة العراقيـة قـد نـال الدكتوراه في الهندسة والفلسفة من الجامعات الأمريكية ، ومن جامعة جونر هـوبكنز عـلى وجه التحديد ، وذلك في العام 1929 بدرجة الشرف ، وله نشاطات فكرية كثيرة ومتعـددة الجوانب ، فهو إضـافة إلى اِنجازاتـه الوظيفيـة ومسـاهماته في تأسـيس جمعيـة المهندسـين العـراقيين سـنة 1938 ، ومشـاركته في تأسـيس المجمـع العلمـي العراقـي سـنة 1940 والمقالات والتعليقات في الجرائـد والمجـلات ، فهـو مؤلفـاً لخمسـة وأربعـين كتابـاً في مختلف صنوف العلم والمعرفة في الهندسة ، والري ، والتاريخ ...وإلخ . . . ،

منها ثلاثة وعشرون مؤلفاً باللغة العربية وسبعة كتب باللغة الإنكليزية ، وله حالياً كتابان هما الشريف الإدريسي في الجغرافية العربية و«ري العراق القديم» الذي أصدرته كلية الهندسة التي تبنته كمرجع دراسي ، والدارس لمؤلفات أحمد سوسة ـ كما يقول إلياس بيطار الكاتب للموجز عن حياة المؤلف أي أحمد سوسة ـ يجد أنها جميعاً لم تكن سوى اِمتداداً لطفولته المثيرة في مكانها وزمانها وأنها لم تكن سوى علامات على درب مسيرته الكبرى «العرب واليهود في التاريخ» الذي هو خلاصتها أو في أساسها جميعاً لاسيما كتاباه الضخمان «الري والحضارة» و«فيضانات بغداد في التاريخ» تجدر الإشارة إلى أنه اِعتنق الإسلام في العام 1932 بعد أنْ كان قد وُلد لعائلة موسوية في العام 1900 ، وهذا الأمر كله من حيث البعد الثقافي والعلمي الموسوَعي يعطينا الحق بالقول إنَّ نظرته العلمية ناجمة عن تبصر عميق صادرة من فرد عاش في داخل تلك الرؤية السياسية والاجتماعية بالرغم من تمرده عليها ..

وينبغي التذكير هنا ، بأنَّ الأستاذ محمد حسنين هيكل قد ذكر في كتابه الأول عن المفاوضات السرية بين العرب واليهود ، إلى أنَّ «سنة 1904 توصلت بريطانيا وفرنسا إلى الاِتفاق الودي بينهما» ، [ص 79]، وهو ما يعني التوافق الأوروبي على تحديد تخوم الدور اليهودي في نطاق خدمة الحلقة الاستعمارية الجديدة وموافقة اليهود والحركة الصهيونية على لعب ذلك الدور بانتظار تغير الظروف للعمل تالياً في سبيل خدمة الذات «القومية» العنصرية . .





القسم الثالث



مناقشات وآراء للدكتور الظاهر السيد عامر الذرب ومنارة الكفل

د. عنان الظاهر

نشر السيد عامر هادي الذرب مقالاً في موقع « كتابات » في الحادي والثلاثين من شهر مايس (آيار) ردّاً على بحث تأريخي ـ ديني نشرته عام 2000 في صحيفة المؤتمر اللندنية رداً على مقال لأحد الإخوان حول حقيقة « ذي الكفل » وهل هو نبيُّ اليهود «حسقيل » المسبيِّ زمنَ الملك البابلي نبوخذّنصّر أم لا ؟ في الحقيقة لا أعرف كيف ولا من أين أبدأ ردودي ، أبالإشارة إلى خيانته العهد بيننا ونكثه ما قطع لي من وعد حول عرض ما سيكتب من رد عليَّ لأنظرَ فيه ثم لأنشره سويةً مع بحثي ـ مقالي آنف الذكر في بعض المواقع .

علماً أني سبق وأنْ بعثتُ له نص بحثي بناءً على طلبه على عنوان أحد أصدقائه لأنه لا يمتلكُ جهاز كومبيوتر . ثم أعدتُ إرساله له بعد أنْ حذفتُ جملة واحدة قصيرة جداً أثارت نقمته الشديدة عليَّ من جهة وغيرته المشبعة بالعنجهية والتطرف على سمعة شخص بالذات هو صديق جليل لي ولعائلتي وقد قلتُ فيه بالحق في صلب نصّي ما يستحق من كلام يليق به وبمقامه لديَّ . سأبين لاحقاً شطط السيد عامر وسوء فهمه لما قرأ في نص بحثي (وهو بحثٌ تأريخيٌّ ـ دينيٌّ في الأساس) وتخبطه في شكوك وظنون مرضية تثير السخرية منه والضحك على ما قد كتب .نماذج مختصرة على ما جاء من شعوذات وفبركة أكاذيب وتزييف لأقوالي ومواقفي سواءً عن عماء أو جهل وأميّة

أو عن خبث مركّب مقصود يستهدف الإساءةَ لي لأسباب فضحها هو إذْ وضع خلافه معي في خانة خلاف سياسي ـ عقائدي خلاصته أنه بعثي أو قوماني مصطفٌ ـ حسب زعمه وما توحيه له أهواؤه المشكوك فيها ـ مع الإخوة الفلسطينيين بينما أنا أمميٌّ أؤمن بالجدل المادي حسب تعبيره !! نماذج من شطحات ومهازل السيد عامر :

1 – جعل عنوانَ مقاله ذا سجعٍ وردحٍ دراميان فالعنوان هو [يكتور ... والدكتور ... ومنارة الكفل] !! . لقد ركّزَ وأسرف السيد عامر في ذكر منارة الكفل وادّعى أنها الأصلُ في مقالي ـ الرد المنشور عام 2000 في صحيفة المؤتمر . قال الأستاذ حرفياً بهذا الصدد [[ومن دون التطرّق لا من بعيدٍ ولا من قريبٍ إلى المنارة أو موضوعها علماً أنها كانت موضوع الرد كما أوضحه السياقُ العامُ للموضوع المبحوث : أي المنارة ـ موضوع الرد]] . يا للعجب !! ما هذا العماء وما هذه الشعوذة ؟ كان بحثي مركّزاً في الأساس حول شخصية ذي الكفل هل هو نبيُّ اليهود حسقيل من سبي بابلَ أم لا ؟ ما علاقة منارة الكفل بهذه المسالة العويصة ؟

2 – لم أقلْ في بحثي ـ الرد الأصل أنَّ الصديقَ الجليلَ الحاج محمد الذرب كان سادنَ الكفل أو مقام الكفل أبداً . إنما قلتُ ـ ومقالي في حوزة السيد عامر كبير المفترين ـ هناك شائعات خجولة مؤداها أنَّ الحاج محمد هو الرجل المكلّف بالإشراف أو رعاية مقام الكفل . . . شائعات خجولة أي ضعيفة لا قيمة ثبوتية لها ولا من برهانٍ أو سَنَدٍ او بيّنةٍ . ثم ما علاقةُ الرجل الصديق المحترم هذا ببساتين يهود الكفل ومزارعهم وأملاكهم ؟ لم أتطرق لهذا الموضوع إطلاقاً [يجدُ القارئ الكريمُ نصَّ بحثي بعد ردّي هذا مباشرةً بعد أنْ حذفتُ منه الجملةَ المتعلقةَ بالشائعات الخجولة وأبلغتُ السيد عامر بذلك تلفونياً بل وأرسلت له النص المُعدَّل عن طريق بريد صديقه لكنه اِدّعى أنه لم يستلمه] !.

من أغرب غرائب أمور السيد عامر هادي الذرب أنه يدافعُ بحماس أكثر من مفتعل وحميّة متورمة مشكوكٍ فيها عن رجل أكنُّ له كل المحبة والإعجاب والاِحترام لأنني ذكرتُ شائعةً كانت متداولة بين الكثير من الأوساط الكفلاوية أواخر خمسينيات القرن الماضي حول اِحتمال أنَّ يكونَ الحاج محمد الذرب مكلّفاً بحماية أو رعاية وصيانة مرقد الكفل ومقامه .

نفى السيد عامر ذلك بشدة وعصبية لا مبرر لها لكنه في عين الوقت أقرَّ وإعترفَ أنَ الشقيقَ الأكبر للحاج محمد (الحاج مُحيي الذرب) كان مسؤول مقام الكفل وراعيه !!! ثم خلفه رجلُ آخر من آل ذرب هو السيد مهدي الذرب !!!كيف لم تأخذه العزّةُ بالإثمِ إذْ اِعترفَّ أنَّ الحاج مُحيي (شقيق الحاج محمد الأكبر) كان مسؤول أوضاع الكفل مرقداً ومقاماً ؟ ما فرقُ الشقيق عن شقيقه لو كان في رعاية الكفل من معرّةٍ أو عارٍ او خزيٍّ ؟ وأكثر من هذا : الراعي والمسؤول الحالي هو الآخر من آل ذرب !! اتركُ التعليق لحضرات القرّاء الكرام .

3– لعلَّ أخطرَ ما في مقال السيد عامر الذي شرّقَ فيه وجالَ وغرّب وثرثرَ وأطنب وسدرَ في غيّهِ وظنونه وشكوكه المرضية . . . أخطر ما فيه فريةٌ كبرى أوحت له ربما من باب الجنون أني في بحثي ذاك كنتُ أستهدف ترويج الاِحتلال الأمريكي للعراق والتوطئة له فقد قال حرفياً لا فُضَّ فوه [[... وعلى هذا المنوال يتطرقُ الدكتور عدنان إلى المعالم الأثرية الأخرى التي طابعها الخلود ومحتواها الجمال التاريخي بالتهميش المقصود والتصغير المُتَعَمد والإلغاء الذي نظن أنه محسوبٌ في زمن الاِحتلال الأمريكي الصهيوني العجيب]] !! . اِنتهى مزمور السيد عامر الذرب . أُوجّهُ ثانيةً عنايةَ القارئ الكريم إلى أنَّ مقالي / بحثي موضوع الخلاف بيني والسيد عامر نشرته في صحيفة المؤتمر اللندنية في عام 2000 في حين وقع اِحتلال العراق كما هو معروف في شهر نيسانَ من عام 2003 إلا للعميان والمزورين والذين في قلوبهم أكثر من مرض !!؟؟

4– لم يفهم ـ وسوف لن يفهم ـ السيد عامر الذرب كلامي عن ضرب صدام حسين للأماكن المقدّسة بالصواريخ إبّانَ اِنتفاضة شعبان عام 1991 فقلبَ المعنى والقصد وضبّبَ عليه وعتّمَ إما عمداً وخبثاً أو غباءً وأُميّةً . كنت أردُّ في كلامي ذاك على الكاتب الذي كتب عن حسقيل / ذي الكفل وقد أفاد أنَّ خرابَ مرقد وبناية الكفل قد تمَّ في زمن حكم البعث وأنهم هم لا غيرهم مَنْ أهملَ صيانةَ هذا المكان . وكان ردي أنَّ مَنْ يقصفُ الأضرحة الإسلامية بالصواريخ لا يمكن أنْ يهتمُ بترميم وصيانة مرقد ذي الكفل ؟ ثم أنَّ خراب مكان ذي الكفل قد حصل بعد هجرة يهود الكفل لدولتهم العبرية في إسرائيل وقد رأيتُ هذا الخرابَ بأمِّ عيني خريف عام 1959 أي زمانَ عبد الكريم قاسم .

5- ثم تكلمتُ عن الجلاد شارون وفي زمنه رئيساً للوزراء وحسب أوامره تمَّ تدمير بعض مدن الضفة الغربية من فلسطين وربما قطاع غزة كذلك ... وقتل المدنيين وتجريف المزارع و ... و ... إلخ . فكيف فسّر العبقري السيد عامر كلامي هذا ؟ فسره على أني ما كنتُ مهتماً بما وقع ويقع للفلسطينيين على أيدي جلادين آخرين غير شارون !! أي منطق أعوج أفلج وأي أفكار شوهاء يحملُ السيد عامر في رأسه ؟ وأية نوايا سيئة سودٍ يغزلها ويحوكها في صدره ؟ هل رأس هذا الرجل مقلوبٌ أم نواياه وهواجسه المريضة هي التي توسّوس في صدره ورأسه ؟؟

ليتني لم أقبل تلفونات هذا الشخص وليتني رفضتُ طلبه أنْ أوافيه ببحثي حول الكفل . إنه شخص غير طبيعي وغير ثابت وغير مستقر يتقلب في مواقفه وأفكاره وهواجسه ذات اليمين وذات اليسار ولا يقرُّ له قرارُ . ثم إنه خلاّقُ مشاكل يفتعلها اِفتعالاً ويخون العهود والاِتفاقيات كما بيّنتُ في بدايات ردي هذا .

هنا يجد القارئ الكريم نصَّ بحثي حول حقيقة ذي الكفل بعد أنْ حذفتُ منه الجملة القصيرة جداً بشأن بعض الشائعات الخجولة التي أقضّت مضاجع ومهاجع السيد عامر وحرمته نعمة النوم الطبيعي !!

هنا يجد القارئُ الكريمُ نصَّ بحثي حول حقيقة ذي الكفل ، وهو موضوع الخلاف بيني والسيد عامر هادي الذرب .

د. عدنان الظاهر

ميونيخ

2000/3/25

ذو الكفل .. نبي أم ولي صالح؟!

رجعت بي مقالةٌ حول مقام ذي الكفل (المؤتمر/ العدد 293 في 23 شباط من هذا العام) القهقرى ... إلى أيام الصبا ثم الشباب حيث كانت لي ذكريات حية مع (ذي الكفل) وقعت في ناحية الكفل نفسها .

صيف 1946

1 – كنت صيف عام 1946 في ناحية الكفل وقضيت بعضا من الوقت في مدرستها الإبتدائية . وكان معنا في نفس الصف صبي يهودي من سنّي يومذاك إِسمه (يكتور خضوري) ، يكتور وليس فيكتور ، الإِسم اليهودي المشهور . رجوته ذات يوم أن يريني مقام ذي الكفل ففعل . أخذني ذات عصرية إلى المكان وقدمني إلى أمه التي كانت مشغولة بأعداد طعام العشاء لأفراد عائلتها . كانت تطبخ الرز وكانت تهيّء الدهن لرشه فوق الرز . لفت انتباهي أن ذلكم الدهن مختلف عما ألفته في بيتنا من دهن حيواني أصفر اللون شهي الرائحة . سألتُ والدة يكتور (خالة ، شنو هذا ؟) قالت هذا دهن ، دهن الشيرج . ما كنت قبلا قد سمعت بهذا الإِسم . وإذْ لاحظت السيدة الوقورة اهتمامي بما كان بين يديها من طعام قالت لي :

اِبقَ معنا على العشاء ، سأطبخ لك طعام إسلام . شكرتها وكنت أعاني حقا من خوف ورهبة منها ومما كانت تعد من طعام . شعرت برهبة رغم أن السيدة اليهودية كانت كوالدتي تماما تغطي رأسها بفوطة سوداء .

كان المكان مكونا من باحة كبيرة مربّعة الشكل تتوزع على جهاتها الأربع غـرفٌ كبيـرة تشغل كلا منها عائلة واحدة كاملة . طلبت من يكتور خضوري أن يريني مقام الكفـل (مـا كنا نسميه ذا الكفل) فأخذني إلى واحدة من تلك الغرف . ما كانـت فيهـا أو أمامهـا حراسـة . دخلتها وكانت غرفة عادية مرتفعة قليلا يتوسطها قبرٌ عالٍ ـ أعلى من قامتي يومذاك ـ خيّـلَ لي أن القبرَ العالي هذا لا شـيء سوى دكة مرتفعة عن الأرض فسألت صاحبي : وأيـن قبـر الكفل ؟ أشار إلى الدكة العالية قائلا هذا هو القبر . كان القبر مغطـى بقطعـة مـن القمـاش السميك الثمين الذي يعلقه الأثرياء ستائرَ على نوافذ بيـوتهم . كانـت تتـدلى حتـى تلامـس الأرض . وكان لون القماش نيليا غامقا أو أرجوانيا غامقا . . . على قدر ما تسعفني الذاكرة . قارنت ما أرى على الفور مع ما كنت أرى وأنا في صحبة والدتي صغيرًا حين تزور العتبات المقدسة في كربلاء والنجف . سألت نفسي أين الثريات والسجاد الفاخر ومنائر الـذهب ؟ أين الكليدارية وأهل الكشايد والمزوِّرون والمطالبون بالنـذور ودكـان حـارس الأحذيـة (الكشوان) الذي يلتقط أحذية الزوار بعصا طويلة خاصة تنتهي برأس مدبب معقوف مثـل شص صيد السمك ؟

قال لي يوما أحد زملاء المدرسة أن اليهود يزورون ناحية الكفل مـرة واحـدة كـل عـام ويمضون فيها ليلة واحدة عادة . وتكون المناسبة عيداً لأهل الكفل ذاتهم إذ ينتعش سـوق البيع فضلا عن الجو البهيج الذي يضفيه حضور يهود بغداد الأثرياء بشكل خاص إذْ يأتون بسياراتهم الفارهة وملابسهم الجميلة حاملين معهـم مـا لـذَّ وطـابَ مـن طعـام وشـراب يوزعون ما يتبقى منه على أهل المدينة . سـألته وأيـن يقضـون ليلـتهم ؟ قـال في البسـاتين العامرة بأجود أنواع التمور والتي تحيط بالمدينة الصغيرة . يجلبون معهم أغطيـة وأفرشـة خفيفة . يسمرون ويأكلون ويشربون في البساتين حتى ساعة متأخرة من الليل . ثم يزورون نبيهم مرة ثانية صباح اليوم التالي وقُبيّلَ مغادرتهم المقام يرطبون القبر برش ما تبقى لـديهم من الخمور قائلين ((إسكرْ يا كفل)) . هذا ما كان يتناقله أهل ناحية الكفل .

2– أيلول 1959 : بعد أن أنهيت دراستي الجامعية في دار المعلمين العالية في بغداد صدر أمر تعييني مديرًا لمتوسطة ناحية الكفل التي تم افتتاحها في زمني ولأول مرة في تأريخ الناحية . ففي سجلاتها اليوم صورتي وتواقيعي على الكتب الرسمية وباقي المعاملات . تم افتتاح صفين فقط هما الأول المتوسط والثاني . وكانت شبه ثورة في المدينة الصغيرة المحافظة إذْ سجّلتْ في المدرسة طالبة من أهالي المدينة اِسمها الكامل (هناء محسن الذرب) . توليت أنا تدريس كافة المواد العلمية واللغة الإنجليزية لكلا الصفين بينما تولّى صديقي شوكت عباس تدريس المواضيع الأخرى من لغة عربية وتأريخ وجغرافية . بقيت لدينا مواد أخرى ليست من اختصاصي ولا هي من اختصاص الأستاذ شوكت . تقاسمناها مناصفة : له دروس الدين وعلي دروس الرياضة !!ّ .

كانت تربط عائلتي منذ زمن علاقات متينة مع آل الذرب الذين توزعوا ما بين الكفل ومدينتي الحلة . فكان متوقعا أن يزورني في مدرستي الحاج محمد الذرب وأن يدعوني على الغداء في بيته في مدينة الكفل . قبلت الدعوة بعد تردد . أفاض الرجل في كرم الضيافة المعروف عنه .

سقتُ هذه الحكاية لأن كاتبَ مقالة صحيفة المؤتمر سالفة الذكر قد ذكر الحاج ذرب رئيسا لمدينة الكفل أواخر القرن التاسع عشر (1886) . الحاج محمد هو ابن الحاج ذرب أو ربما حفيده ..

أعود إلى نبيِّ الله أو وليِّ الله الكفل . بعد وليمة الحاج محمد الذرب الذي أكنُّ له أعلى مقامات الاِعتزاز والاِحترام طلبت منه أن يريني مقام الكفل . قادني الرجل بهيبته وقامته المديدة وعباءته السوداء خلال بعض الدرابين الى المكان الذي رأيت صيف عام 1946 . رأيت بعض أجزائه قد تهدم فعلا ولم تُجرَ له أية أعمال صيانة . دخلت غرفة قبر ذي الكفل فرأيت الدكة ـ القبر عاريا أجردَ مجصصاً بشكل جيد ولم يمسسه أحد بسوء . كان القبر كما رأيته قبل ثلاثة عشر عاما ولكنْ بدون كسوة القماش الثمين .

إذاً قد آلَ مصيرُ الكفل إلى خراب بعد هجرة اليهود العراقيين إلى دولتهم العبرية وليس في زماننا هذا . لقد التحق بدولة إسرائيل من كان يصونه ويتعهده بالرعاية وخدمة مَنْ كان يؤمّهُ حاجّاً أو زائراً أو ترفيهاً عن النفس . هل نتوقع ممن قصف النجف الأشرف ومراقد علي والحسين والعباس بصواريخ أرض ـ أرض أن يهتم بصيانة قبر ولي أو نبي يهودي ؟ هل طالب أحدٌ السفاح النازي ومجرم الحرب شارون أن يكف عن قتل الفلسطينيين وتدمير بيوتهم على رؤوسهم وتجريف مزارعهم ؟

ملاحظات لا بد منها /

أولا ـ لقد أخطأ كاتب مقالة صحيفة المؤتمر إذْ أفاد بأنْ ((لم يَدُرْ بخلد الملك البابلي نبوخذنصر أن مع المسبيين نبيا سيأتيه الوحي بعد بضعة سنوات من السبي ... الخ)) ، ثم يقول : ((وذو الكفل هو النبي حزقيال . . .)) . لو رجع هذا الكاتبُ إلى العهد القديم ، إلى (سفر دانيال) وقرأه جيدا لتبينت له أمور أخرى . فلقد كان دانيال ، وهو من بني يهوذا ، المتنبيء وعرّافُ الملك البابلي نبوخذنصر ومفسّرُ رؤياه التي عجز ((كل المجوس والسحرة والعرافون والكلدانيون)) عن تفسيرها . فأحسن جرّاء ذلك إليه وأكرمه : ((حينئذ عظّم الملك دانيال وأعطاه عطايا كثيرة وسلطه على كل ولاية بابل وجعله رئيس الشحن على جميع حكماء بابل)) .

ودانيال هذا هو الذي طرحه الملكُ الماديُّ داريوس في جب الأسود فلم تتعرض له كما تقول التوراة بأذى .

ثانيا ـ لم يرد في التوراة أيُّ ذكرٍ لنبيٍّ بإسم ذي الكفل أبدا ! فكيف يكون ذو الكفل هو حزقيال الكاهن ؟ والكاهن هو المتكهِّن (من الكهانة) والكهانة ليست كالنبوة . من سفر : (حزقيال).

((في الخامس من الشهر وهي السنة الخامسة من سبي يهوياكين الملك ـ وليس يهوياكيم كما ورد في بنيامين الأندلسي ـ صار كلام الرب إلى حزقيال الكاهن اِبن بوزي في أرض الكلدانيين عند نهر خابور)). ما علاقة نهر الخابور ببابل ؟ الخابور في شمال العراق وبابل الكلدانية في وسطه كما يعرف الجميع .

ومن أين أتى بنيامين الأندلسي هذا بالرقم 25000 يهودي الذين شيدوا مدفن حزقيال مع يهوياكين لما أطلق سراحه إيل مردوخ ؟ يأتي اِسمُ إيـل مـردوخ في التـوراة عـلى شـكل أويل مردوخ وهو ملك بابل بعد نبوخذنصر. فلنستمع إلى ما تقوله التـوراة نفسـها في سـفر الملوك الثاني والمفروض في بنيامين الأندلسي أن يفهم توراته أفضـل منـي : ((... وجـاء نبوخذ ناصر – وليس نبوخذ نصر – ملك بابـل عـلى المدينـة وكـان عبيـده يحاصـرونها . فخرج يهوياكين ملك يهوذا إلى ملك بابل هو وأمّهُ وعبيدهُ ورؤساؤهُ وخصيانهُ وأخذه ملك بابل في السنة الثامنة من ملكه)) . ثم ، وهذا هو المهم ((وسبي كل أورشليم وكل الرؤساء وجميع جبابرة البأس عشرة آلاف مسبي وجميع الصـناع والأقيـان)). الـرقم إذاً هـو عشـرة آلاف وليس 25000 .

ما كان قد اِدّعى أحدٌ قبل ولا بعد (بنيامين الأندلسي) أنَ ملكَ يهوذا المسبي يهوياكين كان قد بنى قبراً لـذي الكفـل . نقـرأ في سـفر : «الملـوك الثـاني » / الإصـحاح الخـامس والعشرون / 27 ـ 30 ما يلي ((وفي السنة السابعة والثلاثين لسبي يهوياكيم ملك يهـوذا في الشهر الثاني عشر في السابع والعشرين من الشهر رفع أويل مردوخ ملك بابل في سنة تملكه رأس يهوياكين ملك يهوذا من السجن وكلمه بخير وجعل كرسـيه فـوق كراسـي الملـوك الذين معه في بابل . وغيّرَ ثيابَ سجنه وكـان يأكـل دائمـا الخبـز أمامـه كـل أيـام حياتـه . ووظيفته وظيفة دائمة تعطى له من عند الملك أمر كل يوم بيومه كل أيام حياته)) . لا ذكـرَ إذاً لبناءٍ من أي نوع كان . . . لا مراقد أولياء ولا سواها البتة خاصة وأن منطقة الكفل تبعد عن مركز العاصمة البابلية بحوالي أربعين كيلومترا بتمامها ، جنوبيِّ مدينة الحلة الحاليـة . فلماذا يُدفنُ بعضُ الأولياء هناك وليس في أو قريبا من بابل ؟ لا علاقـة إذاً لحزقيـال بـذي الكفل وما كان حزقيال بدوره رائيا لنبوخذ نصر ولا عرّافاً ولا مُعبِّرَ رؤيا .

ثالثا ـ لقد أخطأ الرحالة الشهير ابن بطوطة ثلاث مرات. أخطأ في الأولى تسـمية محـل معروف يسميه أهل الحلة وضواحيها (بِرِسْ ، بكسر حرفي البـاء والـراء وتسـكين حـرف السين) . فقد أسماه الرحالة الشهير (برص) ... لكأنما اِشتقه من اِسم داء البـرص أو مـن اِسم الحيوان الزاحف أبي بريص . كلا ، بل هو بِرِسْ . وفي العـراق أغنيـة قديمـة معروفـة تقول:

أصبح برس غرقان من دمع العيونْ

وأنطي للمبشرين بوسة من العيونْ

قد تكون الأغنية من غناء المطربة العراقية اليهودية سليمة مراد.

يقع برس على يمين الطريق التي تربط الحلة صعوداً إلى الكفل وليس بين الحلة وبغداد حسب اِبن بطوطة . وكان هذا خطأه الثاني . أما الخطأ الثالث ففي اِعتبار اِبن بطوطة أن برس هو مكان مولد إبراهيم . مكان مولد إبراهيم حسب التوراة هو : (أور الكلدانيين) . الكلدانيون هم قوم نبوخذنصر أي قوم بابل الثانية .وأور هي المدينة السومرية التي نعرف . وأور مازالت محطة للقطار النازل من بغداد نحو البصرة تابعة لمحافظة ذي قار (الناصرية) . فما المقصود بالضبط بأور الكلدانيين مكانا لمولد إبراهيم ؟ بابل الحلة أم أور الناصرية ؟ ولعل سليمة مراد إياها هي صاحبة أغنية :

للناصرية للناصرية

تعطش وأشربك ماي بإثنين إيديه .

رابعا : تعقيبات إضافية مُستجّدة - في رده على تعقيبي ، قال السيد محرر جريدة «المؤتمر» الصادرة بتأريخ السبت 16 – 22 آذار 2002 ، العدد 296 ما يلي :

((المصادر الإسلامية ومنها قصص الأنبياء أكدت أن النبي حزقيال هو النبي ذو الكفل الراقد على حدوة الفرات قرب بابل)).

لدى رجوعي لكتاب إبن كثير الموسوم (قصص الأنبياء) من منشورات دار مكتبة الحياة . بيروت / دون ذكر لتأريخ نشر الكتاب ... تبيّن لي ما يلي :

- كرّس المؤلف الصفحات 277 – 278 – 279 للبحث في موضوع الكفل أو ذي الكفل فقط . لا ذكر لحزقيال أبداً . وقد ذكر الآيات التالية :

- ((وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كلٌّ من الصابرين .وأدخلناهم في رحمتنا من الصالحين)) / سورة الأنبياء / الآيتان 85 و86 .

ثم ((وأذكر عبادنا إبراهيمَ وإسحقَ ويعقوبَ أولي الأيـدي والأبصـار . إنّـا أخلصـناهم بخالصة ذكرى الدار . وأنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار . وأذكر إسماعيلَ وأليسـعَ وذا الكفل وكلٌّ من الأخيار)) / سورة ص / الآيات45 ـ 48 . ثم علق قائلا : ((فالظـاهر مـن ذكره في القرآن العظيم بالثناء عليه مقرونا مع هؤلاء السادة الأنبيـاء أنـه نبـي ، عليـه مـن ربـه الصلاة والسلام ، وهذا هو المشهور)) ثم قال : ((وقد زعم آخرون أنه لم يكـن نبيـا وإنمـا كان رجلا صالحا وحكما مقسطا عادلا . وتوقف ابن جرير في ذلك فالله أعلم)) . ثم قال : ((وروى ابن جرير وأبو نجيح عن مجاهد : أنه لم يكن نبيا وإنما كان رجلا صـالحاً)) . ثـم يضيف إبن كثير ((وكان قد تكفل لبني قومه أن يكفيهم أمرهم ويقضي بينهم بالعدل ففعل فسمي ذا الكفل)) . ثم يسرد ابن كثير كلاما طويلا حول الظرف والشروط التـي اشـترطها (أليسع) فيمن سيخلفه عندما كبر قائلا : ((من يتقبل مني بثلاث أستخلفه : يصـوم النهـار ويقوم الليل ولا يغضب)) . ثم ساق أحاديـثَ تنتهـي عنـد أبـي موسـى الأشـعري قـال : ((سمعتُ أبا موسى رضي الله عنه وهو على هذا المنبر يقول : ما كان ذو الكفل نبيا ولكـن كان رجل صالح ـ هكذا وردت ـ يصلي مائة صلاة فتكفل له ذو الكفل من بعده ـ المقصود أليسع ـ فكان يصلي كل يوم مائة صلاة فسمي ذا الكفل)) . وهناك أحاديث أُخَر ينتهـي بهـا إبن عمر الى الرسول الكريم حول شخصية الكفل الـذي أغـوى بمالـه اِمـرأة محصّـنة ثـم تعفف وتراجع عما كان يروم إذ علم أنها لم تمارس ما أراد منها من قبل : ((فمات من ليلته فأصبح مكتوبا على بابه : قد غفر الله للكفل)) . يعقب ابن كثير قائلا : ((وإنْ كان محفوظـا ـ يقصد هذا الحديث الأخير ـ فليس هو ذا الكفل وإنما لفـظ الحـديث الكفـل مـن غيـر إضـافة فهو رجل آخـر غيـر المذكـور في القرآن فاللـه تعالى أعلم)).

سأعود فيما بعد لمسألة تعدد الأشخاص الـذين يحملـون اسـم الكفـل أو ذي الكفـل واتساع رقعة قبورهم وأضرحتهم عند عرضي لخلاصة ما قرأت في قاموس الإسلام حول مشكل ومعضلة لغز الكفل .

2– لقد أفرد ابن كثير في كتابه (قصص الأنبياء) عنوانا مستقلا باسم (قصة حزقيل) شغل بها بشكل أساسيٍّ الصفحات 476 ـ 477 ولم يتطرق البتة لذكر ذي الكفل . والموضوع أصلا لا علاقة له بأي اسم علم ممن نعرف من أسماء الأنبياء أو الأولياء الصالحين . إنما يتعلق الأمر بتفسير الآية 243 من سورة البقرة : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ ﴾ . لقد أسهب المفسرون في تفصيل أسباب نزول هذه الآية واختلفوا أيما اختلاف فيما بينهم . لكنَّ المهم أنَّ كلَّ ما قالوه لم يخصّوا به إلا حزقيال (ونسميه في العراق حسقيل) . سأستعير الفقرات الأخيرة حول هذا الموضوع لأن فيها تناقضاً صارخاً مع ما سبق وأن قيل في ذي الكفل (الصفحات 277 ـ 278 ـ 279).

((قال محمد بن إسحاق ولم يذكرْ لنا مدة لبث حزقيال في بني إسرائيل . ثم إنَّ اللهَ قبضه إليه .فلما قُبِضَ نسيَ بنو إسرائيلَ عهدَ الله إليهم وعظمت فيهم الأحداث وعبدوا الأوثان . وكان في جملة ما يعبدونه من الأصنام صنم يقال له بعل . فبعث الله إليهم إلياس بن ياسين بن فنحاص بن العيزار بن هارون بن عمران)) . ثم يقول ابن كثير : ((قلت : وقد قدمنا قصة إلياس تبعا لقصة الخضر لأنهما يقرنان الذكر غالبا . ولأجل أنها بعد قصة موسى في سورة الصافات فتعجلنا قصته لذلك والله أعلم)) . ثم يعقب مرة أخرى قائلا ((قال محمد بن اسحق فيما ذكر له عن وهب بن منبه قال : ثم تنبأ فيهم بعد إلياس وصيه أليسع بن أخطوب عليه السلام ...)) . لا بدَّ لي هنا أنْ أشير إلى الخطأ وإلى التناقض في هاتين الروايتين . ففي القسم السابق الخاص بذي الكفل رأينا أن أليسع لما كبر كان قد استخلف ذا الكفل من بعده . وقد ورد فعلاً ذكر ذي الكفل بعد أليسع في القرآن: ((وأذكر اسماعيل وأليسع وذا الكفل ..)) أي : أليسع ---- ثم ذو الكفل (أليسع هنا يأتي قبل ذا الكفل) ، أما هنا في القسم المكرس لحزقيال فمسلسل أنبيائهم يأخذ منحى معاكس لحالة ذي الكفل أي حزقيال ـ إلياس بن ياسين ـ أليسع بن أخطوب. (وهنا يأتي أليسع حتى بعد خليفة حزقيال) . فهل نحن أمام شخصين مختلفين

يحملان نفس الإِسم « أليسع » وكيف سنفسر هذين المسلسلين المتناقضين مفترضين أن ذا الكفل هو حزقيال بعينه ؟ هذا ما قد وجدت في كتاب «قصص الأنبياء» لإبن كثير الذي أشار إليه أحد محرري «المؤتمر» . لا نص فيه صريح يعتبر أن ذا الكفل هو حزقيال . ولا فيه نص قاطع يثبت أن ذا الكفل نبيا كان . ثم الخطأ البين في التسلسل الزمني لفترات نبوة هؤلاء القوم إنْ كانوا أنبياء فعلاً !!!.

خامسا : مع القاموس الإسلامي :

سأقدم هنا خلاصات موجزة لما وجدته في القاموس الإسلامي من معلومات حول ذي الكفل . القاموس المتوفر لديَّ هو طبعة ليدن للعام 1941 . على الصفحات 97 – 98 :

1 – هناك التباس كبير حول شخصية ذي الكفل .

2 – وهناك الكثير من القبور والمقامات لأولياء تنسب لـ (ذي الكفل) تنتشر على رقعة إسلامية واسعة تمتد من فلسطين حتى بلخ .

3 – وأن (ذو) هي ملحق يندمج مع غيره فيكون الإِسم مزدوجا تماما كحالة الإِسم (ذو النون) والنون هو الحوت أو السمكة . وذو النون هو صاحب الحوت . كما نقول (الإِسكندر ذو القرنين) وذو النؤاستين وذو الرئاستين وذو النورين . كذلك فان يعقوب هو إسرائيل وأن عيسى هو المسيح .... كما ورد في القاموس .

4 – والكفل هو نوع خاص من الملابس يتكون من قطعتين كالذي يلفه حول أجسادهم اليوم رجال بعض الديانات (البوذيون والهندوس وبعض الأثيوبيين ... هذه الإضافة مني) ومن يرتدي هذا النوع من الملابس ينسب اليها فيدعى ذو الكفل .

5 – هنالك قبة تدعى (قبة النبي كفل) في منطقة تسمى (كفل حارس) بالقرب من مدينة نابلس في فلسطين .

6- يوجد في الوقت الحاضر قبر لذي الكفل في مدينة الكفل التي كانت تعرف (بير ملاحة) أو بر ملاحة والتي تقع إلى الغرب من قناة الهندية جنوبي الحلة في بلاد ما بين النهرين (ولاية بغداد ، لواء كربلاء ، قضاء الهندية) فيها عدد كبير من القبور يعتقد اليهود أن أحد هذه القبور لرجل جليل المقام يقصده اليهود للحج ويعتقد أن اسمه : ((حزقيال)).

هذه خلاصة ما قرأت في القاموس الإسلامي باللغة الألمانية فيما يتعلق بذي الكفل . مما توفّرَ لديَّ من معلومات ثبّتها آنفا ، قد يبدو لي أنَّ الكفل أو ذا الكفل كان رجلا يهوديا تقيا أو (رابي أو حاخام) عاش ومات في الفترة ما بين المسيحية وظهور الإسلام . ولا علاقة له بحزقيال أو (حسقيل ... كما كنا نسميه في العراق) الذي جاء بابلَ في جملة من سباهم ملك بابل نبوخذنصر . لذا لم يردْ أيُّ ذكرٍ لذي الكفل في التوراة وعلى وجه الإطلاق . كما أنَّ هناك الكثير من القبور تنتشر على رقعة كبيرة تمتد من فلسطين حتى بلخ كلها تنسب لذي الكفل . وأن كل من يرتدي نوعا من الملابس التي تسمى (كفل) هو بالضرورة ذو الكفل .

ثم ، لماذا يكون لحزقيال قبرٌ ومقامٌ ولا يكون مثلهما لدانيال الأكثر منه شهرةً والأرفعَ مقاماً في قصر الملك البابلي نبوخذنصر ؟ فلنقرأ العهد القديم جيدا .

آخر ما يحيّر المتسائل : لماذا يُدفنُ وليٌّ يهوديٌّ بعيدا عن مركز العاصمة بابل ؟ والكفل اِسم منطقة أساسا كانت تسمى (بير أو بر ملاحة) صادف ولسبب ما أن دفن فيها هذا الرجل فأطلق اسمه عليها . بير أو بر ملاحة قد يكون إسما سريانيا أو أراميا و ملاحة ربما تشير أو تعني (ملح) : بير الملح أو بير الماء المالح .

إنَّ الرحالة إبن بطوطة الذي اعتمده صاحب مقالة صحيفة المؤتمر مصـدرا لمعلوماتـه كان قد ورد مدينة الحلة وقال في رحلته ((... ونزلنا بر ملاحة وهي بلدة حسنة بين حدائق نخل ونزلت بخارجها وكرهت دخولها لأن أهلها روافض ورحلنا منها الصبح فنزلنا مدينة الحلة ...)) . هذا الكلام منقول عن كتاب تـأريخ الحلـة للشـيخ يوسـف كـركـوش / الجزء الأول / منشـورات المكتبة الحيدرية في النجف / عام 1965 الصفحة 96 . كمـا ورد في ذات المصدر ما يلي ((في سنة 711 هجرية قتل السيد تاج الدين أبو الفضل محمد بن مجد الدين الحسيني الآوي . كان هذا السيد يقيم في قريـة بـر ملاحـة « الكفـل » .)) / الصفحات 88 ـ 89 .

رد على رد السيد عامر هادي الذرب

عدنان الظاهر

كتب السيد عامر هادي الذرب مقالاً طويلاً مكوّناً مـن 13 صـفحة بعنـوان [[الـدكتور الظاهر : من الشائعات الخجولة إلى دولة اليهود العبرية[[نشره اليوم في موقـع « كتابـات » ووصلني رابطه من صديق عزيز في أستراليا . اِبتـداءً أودُّ التأكيـدَ أني سـوف لـن أنجـرَّ إلى المواقع المتخلفة من الجدل والخصومات الرخيصة التي يهواها السيد عامر الذرب والتي برعَ فيها لأسباب تاريخية يعرف هو تفاصيلها أفضل مني . لـذا لخصـت ردودي في نقـاط قليلة شديدة التركيز وكما يلي :

1 – جريدة المؤتمر اللندنية / ما كنتُ يوماً أحد محرريها بل كل ما في الأمر نشرتُ فيها عام 2000 رداً على مقال حول ذي الكفل {حسقيال ، نبي اليهود المسبي في بابل} نشره في المؤتمر أحد الإخوان من كتّاب هذه الجريـدة . لم يعـرضْ عـليَّ الـدكتور أحمـد الجلبـي ، صاحب اِمتياز الجريدة ، ولا سواه أية مخصصات أو أجور أو مكافأة مقابل نشرهم لـردي ذاك . كما إني من جهتي لم أطلبْ من صاحبها أو رئيس تحريرها أو أي من محرريها . . . لم أطلب أجراً أو مكافأةً على مقالي . وعليـه فـالتلميح في مقـال السـيد عـامر بـالأموال التـي رصدتها أمريكا لأنفاقها على كتّاب صحيفة المؤتمر تلميح سخيف خبيـث موبـوء لا يـدلُّ على صحة عقل ولا على دماثة خلق !

2- قال السيد عامر صاحب الهلوسات والسياحات العشوائية المعروفة عنه [[ونال الحظوة عند مَنْ وفرَّ له زمالة الدراسة]] . مَن هو الذي وفّر لي زمالة الدراسة وعن أية حظوة يتكلم صاحب الهلوسات هذا ؟ موجز تأريخ حياتي موجود في الموقع الخاص بي وهو يعرفه السيد عامر ، وفيه أسماء الجهات التي منحتني زمالتي الدراسية وهي الوكالة الدولية للطاقة الذرية في فيينا ، فضلاً عن تأهيلي بعد إكمالي دراستي العليا وما أجريتُ من أبحاث في أربع جامعات عالمية السمعة والمستوى ... فكيف أجاز هذا الذربُ لنفسه التطاول الأهوج حد مقارنة شهاداتي العلمية لمزاً بشهادات سوق مريدي ؟ هل هو الجنون أم الغباء أو الخبث الأصيل ؟ ثم ، مَن قال لك يا صغيراً في آل ذرب ، مَن قال لك أنك أفضل أو أشرف من روّاد مقاهي محلة السنيّة في مدينة الحلة ؟ ! أقول لك : ليس في مصلحتك أنْ تفتحَ مثل هذه الأبواب التي لا تجلبُ لك إلا العار والخزي ! لستُ بمعرض مقارنة مستويات الحلة وأهاليها الكرام وأصل أروماتهم بغيرهم من سَكَنة الأقضية والنواحي والقرى والقصبات المجاورة والتابعة لمحافظة بابل (الحلة) . دعني سيد عامر أقول لك : إنَّ شخصاً مثلك ليس من الوزن الذي يمكّنه من تثمين وتقويم رجل مثلي ولا الإساءة لي مهما خربطَت ولوّصتَ وهلوستَ وسواءً كان لقبي الظاهر أو السريراتي المعروف على نطاق واسع في الحلة وما جاورها .

3- قنبلة السيد عامر هادي الجديدة من عيار قنبلة هيروشيما ! قال لا فُضَّ فوهُ [[فكيف يُذكرُ اِسم ذي الكفل في التوراة وهو نبي عربي إسماعيلي ومفاهيم الدين الإسلامي معينُهُ الأساسي وأرومته تنتسبُ لشعوب من طسم وعماليق وأميم وجاسم وثمود وجديس ، وهم يشكلون أقواماً عربية يتكلمون باللسان المضري وبينهم قوم إسماعيل ولهم رُسلٌ وأنبياء]] !! أدع التعليق لليهود أصحاب ذي الكفل الذين يعتقدون أنَّ ذا الكفل المدفون في البلدة التي تحمل اِسمه {الكفل ، الجفل الحالية} هو النبي المسبي حسقيل أو حسقيال او حزقيال صاحب السفر الشهير الذي يحمل اِسمه !! ليت هذا الرجل صاحب قنبلة هيروشيما أنْ يذكر مصادر معلوماته هذه التي لم اسمع بها قبلاً ولا أحسب غيري قد سمع بها .

4- عامر وابن بطوطة / لم يخطأ الرحّالة المعروف اِبن بطوطة في تسمية «برس» بل أخطأ حتى في تحديد مكانه إذْ قالَ عنه إنه يقع بين الحلة وبغداد ... في حين أنَّ موقعه الذي كان وما زال هو بين الحلة وبلدة الكفل .

5- لست بصدد إضاعة وقتي والتنازل أكثر لمناقشة السيد عامر بمحتويات ما جاء في كل من سفر حزقيال وسفر دانيال من توراة اليهود . لقد ناقشتُ ذلك تفصيلاً في مقالي إياه موضوع الخلاف بيننا .

6- عامر والطفل اليهودي الكفلاوي يكتور خضوري / لا أستنكف ولا أخجلُ من علاقتي بطالب يهودي يشاركني مقاعد الدراسة الاِبتدائية خريف عام 1946 . وكان هذا الطفل ، يكتور ، هو من قادني حسب طلبي لأرى مقام وقبر ذي الكفل حيث كانت عائلته تُقيمُ هناك .

7- تعبير «الدولة العبرية» تعبير قديم يُطلق على دولة إسرائيل بعد تأسيسها عام 1948 ، ولم تبرز مشكلة يهودية دولة إسرائيل إلا في الآونة الأخيرة {نشرتُ مقالي حول ذي الكفل كما أسلفتُ القولُ عام 2000} . فهذا التعبير ليس مناِ وإذا اِستخدمته فليس معنى ذلك أني معه أو أتبناهُ . علماً أني لم أكن يوماً ولا أي أحدٍ من أفراد عائلتي أو أقاربي ... لم نكن من سَدَنة قبر ومرقد ذي الكفل أو من القائمين عليه [[قوّام ، كوّام]]!! .

8- الحاج محمد الذرب / نعم ، زارني الحاج أبو جاسم في إدارة متوسطة الكفل للبنين الجديدة وكنتُ أنا مديرها حينذاك ، خريف عام 1959 . زارني ودعاني على وجبة غداء فترددتُ وقلت له حرفياً ((أنا هنا غريب ، وكمدير للمدرسة ، أود أنْ أكون مستقلاً محايداً غير محسوب على أحد)) .

إذا كانت الأخت العزيزة « ملكة » كريمة الحاج محمد ما زالت على قيد الحياة فلعلها تتذكر دعوة الغداء تلك ، إذْ كانت هي التي أعدّت طبخة الغداء. ولِمَ لا يزورني الحاج محمد الذرب في إدارة المتوسطة وكانت علاقاتنا العائلية متينة راسخة . ثم ما كانت الأخت المصون مليكة لتفارق شقيقتي المرحومة نجاة . وكان الحاج محمد يجلس معنا في مقهى [عكرب عبد الأمير] على الشارع العام قرب المكتبات في الحلة صيف وخريف 1959 ومعه السيد حسون عبد الزهرة وضابط من آل ذرب نسيتُ إسمه لعله صلاح الذرب . وكذلك كان يزورني في إدارة متوسطة الكفل للبنين العم السيد محسن منسي الذرب والد صديقي وزميلي فاضل وأخوته قحطان ويعرب وهناء . وزارني للتعارف مرة حتى مدير ناحية الكفل . كما دأب على المجئ للمدرسة ضابط تجنيد مُبعد برتبة رئيس {اِسمه سعدي} حتى نصحته أنْ يتوقف عن زيارتنا لأنه عسكري وهناك بعض الخطر عليه فامتثلَ الرجل وكفَّ عن زيارتنا .

9- أخيراً . . . أقول للسيد عامر هادي الذرب إنَّ تطاول واحد مثلك عليَّ واستهتارك بي لا تقلل من قيمتي وهيبتي بين معارفي والأهل والأصدقاء . هذا من جهة ، ومن الجهة الأخرى فإنَّ هذا التطاول وهذا الاِستهتار لا يرفعان من قدرك لدى غيري ولا من شأنك عندي .ستبقى ، رغم أنفك ، أنت مَن أنتَ وسأبقى رغم أنفك أنا ذاك الأنا . أذكّرك بما قال أبو الطيّب المتنبي في أمثالك :

أفي كل يومٍ تحتَ ضبني شويعرٌ

ضعيفٌ يُقاويني قصيرٌ يُطاولُ ؟

واسمحْ لي أنْ أزيد بيتاً آخر للمتنبي كذلك قاله في أمثالك :

ومن البليةِ عذلُ مَن لا يرعوي

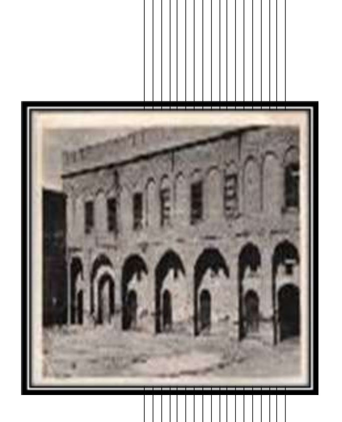
عن جهلهِ وخطابُ مَن لا يفهمُ

والسلام على مَن اتبّع الهُدى .

موقع كتابات

القسم الأخير : مناقشات لآراء الدكتور البروفيسور

الظاهر / السريراتي . بقلم عامر الذرب .





القسم الأخير

الرد على أفكار الدكتور :

عدنان الظاهر



يكتور ... والدكتور ... ومنارة الكفل...

خلع علينا الدكتور عدنان الظاهر بمشاركة ثقافية منه في موضوع المنارة المغدورة : منارة ذي الكفل {الذائعة الصيت} ، وسلط فيها بعض الأضواء على هوية صاحب مرقد الكفل ، وذلك في سياق معرض رده على مقالة منشورة في جريدة «المؤتمر» المتوفاة منذ زمن طويل نسبياً ، التي كانت تنطق بِاسم جماعة أبي رغال المعاصر دليل الغزاة الأمريكيين في تدنيسهم لأرض العراق ، والتي وردت في العدد [93] الصادر في سنة [2000] ، ناقش فيها العديد من النقاط التي أثيرت في تلك المقالة .

رأيت فيها من الواجب التعرض لمحتواها كونها مسّت المدينة وعمرانها وتاريخها ولبعض شخصياتها الإِعتبارية والهامة التي لعبت أدوار تاريخية مهمة في بعض الفترات ، ناهيك عن كون الموضوع هو مناقشة لظواهر حضارية ودينية وثقافية .

لقد اِستبشرنا خيراً وفرحاً بمشاركة الدكتور عدنان الذي يعرف المدينة وأهلها كونه عمل في المدينة مدرساً ، منذ نهايات العقد الخمسيني من القرن الماضي ، وتربطه ببعض أهل مدينة الكفل صداقات متينة وحميمة ، بل أكثر من ذلك أنَّ المدينة تعتبر الدكتور الظاهر رسول العلم المطلوب لحاضر العراق آنذاك ومستقبلها ، ومندوب الثقافة المستنيرة الذي حاول عبرها تطوير المعارف فيها .

وعلى يديه الكريمتين تم اِفتتاح أول مدرسة متوسطة في مدينة الكفل ، وإنَّ اِسمه لم يكن بالسجلات الرسمية للمدرسة فقط ـ كما اِدعى ـ إنما أيضاً اِرتبط بالمحبة الشخصية التي اِكتنزتها ذاكرة ناس المدينة وأهلها ، لذلك فهم يتابعون عن كثب أخباره الشخصية والعامة ، ويتدبرون في مسيرته النضالية تطوق أذهانهم شمائل الشغف له وبه ، وتساور قلوبهم لهفة الشوق لرؤيته .

وعند الاِطلاع على مقالة الدكتور الظاهر وما تحتويه من «معلومات» وأفكار ، أعتقد أنَّ الصواب جانب بعضها ، لحظتُ أنَّ مقالته تحتوي على أبعاد فكرية طابعها الغمز لبعض الشخصيات الكفلاوية الكريمة المحتد ، ولمز عن تصرفاتها في بعض المراحل ، فضلاً عن الإساءة إلى رموز جليلة تركت أثراً طيباً في تاريخ ومجتمع المدينة تلك .

وعند البحث في خلفيات تلك الإساءة والهمز واللمز تبين لي ، وبشكل واضح وجلي ، أنَّ الدكتور قد توصل إلى تلك القناعات أو الأحكام عبر الظن وإستند في عملية إصدار «حكمه» على أولئك الأشخاص معتمداً على «الشبهة» ، مثلما غلّب «الشائعات الخجولة» على وقائع التاريخ المعاش والمدون في الكتب الموثوقة والمراجع الوثائقية فضلاً عن الذكريات الشخصية لمن لا يزالون على قيد الحياة .

ناهيك عن الصور والأوابد والشواهد الأثرية ، ومن دون التطرق ـ لا من بعيد أو قريب ـ إلى المنارة أو موضوعها ، علماً أنها كانت موضوع الرد كما أوضحه السياق العام للموضوع المبحوث : أي المنارة ـ موضوع الرد كما قلت .

إنَّ معالجة أي موقف فكري يتناول ظاهرة اِجتماعية ينبغي أن تنطلق من اِنتزاع الرؤية الذاتية من النفس الأمّارة بالسوء ، كي يكون الحُكم بعد المعالجة الفكرية حُكماً موضوعياً يهدف إلى خدمة الحقيقة العراقية والعلمية .

من هنا يمكننا القول أنَّ السيد الدكتور تعمد ترتيب الوقائع بشكل مقلوب تماماً ، وحاول ترويج «عملية إنكار جديد» لواقع كان ـ وما يزال ـ قائماً ومرئياً للجميع ، وعند التبصر في وقائع ما أورده الدكتور لم نجد تبريراً فكرياً لذلك سوى الرغبة الجامحة الدفينة في ذاته الهادفة إلى عدم «الإساءة» مثلما يبدو ذلك لمشاعر «الصديق العزيز» يكتور الرقيقة ، وكمية الحنين المتدفقة في قلبه للدرجة التي أنسته حتى المنارة العتيدة الشامخة في سياق إيراده لمزامير الرثاء المهداة إلى العزيز يكتور المفتقد منذ تركه المدينة ومغادرته العراق باِتجاه الوطن الفلسطيني المغتصب التي يسميها الدكتور «إسرائيل» .

فمبنى ذي الكفل وصندوقه الخشبي قد ـ كما يقول الدكتور الظاهر ـ :آل مصير الكفل إلى خراب بعد هجرة اليهود إلى «دولتهم العبرية» مَنْ كان يصونه ويتعهد أوضاعه بالرعاية ..»، وعلى هذا المنوال يتطرق الدكتور عدنان إلى المعالم الأثرية الأخرى التي طابعها الخلود ومحتواها الجمال التاريخي بالتهميش المقصود والتصغير المتعمد والإلغاء الذي نظن أنه محسوب في زمن الاِحتلال الأمريكي الصهيوني العجيب لكل العراق !.

إنَّ كل ما أورده السيد الدكتور الظاهر في مقالته تلك عن مشهد النبي ذي الكفل ومقامه السامق ، وما سطرَّه من اِدعاءات وصفية هو مغاير للحقيقة المادية التي قاومت الزمن على مدى ثمانمائة عام ويجافي الواقع القائم سواء منذ مرحلة «تشريفه» للمدينة من أجل تطويرها «تربوياً» ومعرفياً وربما ثقافياً وحتى المرحلة الزمنية الراهنة ، كون الأمر يتعلق بمعالم أثرية متاحة يمكن لمن يروم مشاهدتها بالعين البشرية المجردة من على بعد 4 ـ 5 كيلومترات وهي المنارة المخروطية رغم كثافة النخيل العالي الذي يطوق المدينة من جهاتها الأربع ، والتي يقول عنها الدكتور : «فأخذني ـ أي صديقه وزميل دراسته يكتور ـ إلى واحدة من تلك الغرف . . .دخلتها وكانت غرفة عادية مرتفعة قليلاً يتوسطها قبر» . . .

في الحقيقة إذا أردنا الأخذ بمفهوم الظن الحسن تعد «أبهر» عملية «أدبية» تستهدف إجراء عملية غسيل لتاريخ ومعالم مدينة غايتها المباشرة أو غير المباشرة «خدمة جهة أجنبية متنفذة» في المنظومة الفكرية لقوات وإدارة الاِحتلال ، وقد كُتبت بأسلوب رقيق رشيق ودافِئ يتميز بكونه يريد تحقيق فائدة الإمتاع والسلاسة معاً .

يعتمد الدكتور الظاهر على قدرات فنية هائلة لإيصال ما يريد إيصاله من أفكار ومعانٍ بسهولة وسلاسة ، إذ هو يعرف أنه يكتب وبروحية متفردة تجمع بين دفتيها الحداثة و «الحسجة» المعروفة ، كمفهوم ، في العراق ، لذلك نجد الفخاخ منصوبة عبر الحروف قبل الكلمات ومن خلال الكلمات قبل السطور .

نحن لا نجاريه قلماً سيالاً ولا معرفة نظرية ، لكننا مأخوذون بالحق الصريح ومتمسكون بالبينة الأدق ومسلحون بالصور الصادقة ، في هذا النطاق ومن أجل البرهنة على ما نذهب إليه ، لابد لنا من الاِستشهاد بالحدث التاريخي الذي يحكي عن التطاول اليهودي على المنارة وما اِستثاره من ردود فعل من قبل أبناء الكفل الواعين والمخلصين .

إذ تقول المصادر التاريخية القريبة وليست البعيدة أنه «حدث جدلاً طويلاً حول ذلك مقروناً بشكاوٍي عديدة [قُدمت] إلى السلطان في إسطنبول ، فيرسل اللجان التحكيمية حول وجود المنارة :[أي المئذنة] ، والتي كانت اللجان تجلس تحتها وتكتب أنْ لا مسجداً ولا منارة في الكفل بعد أنْ يتوصل اليهود إليها».

«وذكر الشيخ اليعقوبي في كتابه (البابليات: ج 3 / 3 ق 2 ، ص 60 ـ 61 / 1339 هـ) ، حول الكفل : يتصل بقبر الكفل جامع فيه منبر ومحراب ومنارة . . . وفي أواخر العهد العثماني تطاول عليه اليهود وبنوا فيه مخازن وبيوتاً وغرفاً يأوي إليها الزائرون منهم في أعيادهم ومواسمهم .

وفي سنة (1305 هـ 1887م) رفع الحاج ذرب بن عباس المالكي السادن لمرقد الكفل عريضة إلى السلطان عبد الحميد إحتوت على بحثٍ فيها عن الجامع وحدوده ومساحته وتاريخ المنارة وموضع المحراب والمنبر ، وذكر تطاول اليهود عليه وتملكهم له وما أنشؤوه لهم من بنايات . . .

فجاءت على أثر ذلك لجنة من الإستانة لِإستيضاح الحقيقة ، وما أنْ وصلت اللجنة بغداد حتى اِتصل بها اليهود وقدّموا لها الهدايا الثمينة . فكتبت اللجنة تقريراً مخالفاً للواقع ونفت فيه وجود المنارة في الكفل وبعثت في تأييد قرارها من أخذ صورة للقرية من أحد جهاتها التي لا تظهر فيها المنارة ، ومنذ هذا التاريخ صار الناس يضربون المثل بمنارة الكفل بالنسبة لنكران الحقيقة التي لا تحتاج إلى برهان ، وقال السيد رضا الهندي شعراً في هذا :

عجبتُ لجحد الدهر بيعة حيدر

وما خصه المصطفى سيّد الرسل

إلى أنْ أعاد التاريخ لنا مثلها

فأخفى عن الأنظار مأذنة الكفل»

[المصدر : الكفل أنبياء ومدينة ، للباحث كريم برهان ، والمادة منقولة عن كتاب العراق وعشائره ، للكاتب حمود حمادي الساعدي ، والأخير نقلها عن المؤرخ اليعقوبي في كتابه المعنون البابليات ، ص 36 ـ37] .

أما بخصوص الحدث الذي أوردنا تفاصيله أعلاه ، والشكوى الرسمية المقدمة للباب العالي من قبل الحاج ذرب رئيس بلدية الكفل ، وسادن مرقد ذي الكفل ، التي تداولها المؤرخون كثيراً بسبب معانيها الدالة على العقلية اليهودية وفساد الأجهزة الإدارية العثمانية ، فقد اِحتوى رد الدكتور الظاهر وما اِنطوى عليه من مغالطات تفسيرات أشد وقعاً في مرارتها وأكثر إيلاماً في تزويرها من بلاغ اللجان العثمانية التي اِستساغت الرشوة المالية من التجار اليهود ، والتي قامت بتصوير المدينة من جهاتها الأربع ، فيما كان المصور «العتيد» يضع معالم المنارة الشاخصة أمام أبصار الجميع خلف ظهره ، إذ تطوع الدكتور الظاهر ليكون شاهدَ عيان وهو يحمل صفة النزعة العلمية كونه شخصاً أكاديمياً ليضفي على التزوير اليهودي / اللجنوي «حقائق من عندياته» حيث يقول :

«هناك شائعات كنتً أعرفها تدور في الكفل مؤداها أنَّ الحاج محمد الذرب (أبو جاسم) هو مسؤول مقام الكفل وأنَّ بعض اليهود أوصوه أو أوكلوا إليه هذه المهمة قبل هجرتهم إلى إسرائيل ، وكانت لبعضهم أراضٍ لزراعة نوع فاخر من الرز والبعض الآخر بساتين».

إنَّ هذه التهمة ، وهي فرية بالتأكيد كما سنبين ذلك أدناه ، مركبة من عدة مستويات ونواحٍ أتت على شكل «شائعات خجولة» كما يقول الكاتب ، ولكنها من خلال قلمه العلمي اِكتسبت الطابع الأكاديمي .

أما الشق الأول :فهو الشائعات التي تحولت إلى اِستنتاجات هدفها تمحَـوَرَ على تكذيب وقائع تاريخية عصية على التجاوز والإنكار ، وهي التي أشـبعت شـعراً وتـدوينا مـن قبـل كتاب وشعراء معاصرين لذلك الحدث التاريخي ، الذي حاول فيه اليهـود التطـاول عـلى الحقائق الجغرافية والتاريخية لقسم هام من المنطقة العربية في العراق ، هـذا مـن ناحيـة ، واللجان العثمانية التي أرسلتها الإمبراطورية التي كان الفساد يعم أجهزتها الإدارية ومسألة الرشاوى التي قبضت أثمانها لتقوم بتزوير الحقيقة وتنشر الأوهام بدلاً منها ، مـن الناحيـة الثانية ، ودور الحاج ذرب الذي تصدى لهـا ومـا صـرف عليهـا مـن أمـوال حفاظـاً عـلى الأملاك العربية الإسلامية ، مـن الناحيـة الثالثـة ، في مرحلـة كـان فيهـا الـوعي التـاريخي بالمخططات اليهودية مفقوداً عند غالبية العراقيين العرب ، ومع ذلك فإنَّ اليهود قد أوكلوا «المهمة» إلى الحاج محمد الذرب كما يستخلص الكاتب من تلك الشـائعات ، فلنتصـور مدى سذاجة اليهود ّ ، من جهة ، وهل إشاعة الشائعات جائزة في البحوث التاريخية أم لا ؟ من جهة أخرى .

الجواب متروك للقرّاء الكرام من الجهة الثالثة .

علماً أنَّ الإشكالية التاريخية التي اِنطوت عليها مسألة منارة الكفل تعد أول مواجهـة أو خلاف عربي إسلامي مع الأطماع اليهودية في الوطن العربي ، أو في العراق على الأقل ، وذلك في التاريخ الحديث ، وقد تبع ذلك الخلاف خلاف آخر وذلك في سنة 1889 ، وقد حدث في بغداد هذه المرة ، أي بعد ثلاث سنوات على وجه الدقة ، ونشأ ذلك «الخلاف الصغير» ، كما تم وصفه آنذاك ، بسبب محاولة اليهود دفـن كبيـر حاخامـات اليهـود في مقبـرة ولي للمسلمين ، مما عنى ذلك حقيقة تنامي نفوذ وتصاعد قوة «يهـود الـدونما» وتغلغلهـم في الإمبراطورية العثمانية المترامية الأطراف ، ومحاولة سيطرتهم على بُنية أوضاعها السياسية الأمر الذي يدّل على تنامي قوة شوكتهم .

أما الشق الثاني من التهمة التي وجهها الدكتور الظاهر محاولة تصوير اليهود ـ وإنْ كان بشكل غير مباشر ـ بأنهم طوروا الزراعة في العراق من خلال قوله «كانت لبعضهم أراضٍ لزراعة نوع فاخر من الرز والبعض الآخر بساتين» ، وقد تم توجيه هذه التهمة في هذه المرة ضد المرحوم الحاج محمد الذرب وذلك عبر مقولة «الشائعات الخجولة» كونه تصرف بأملاك اليهود من الأراضي الزراعية وخصوصاً بعد هجرتهم إلى فلسطين، من دون الإشارة إلى دور الحركة الصهيونية في التسبب بتلك الهجرة عبر التفجيرات المقصودة من قبل الموساد الصهيوني .

وفي هذا الصدد بالذات ليعلم الدكتور الظاهر بأنَّ الحاج محمد الذرب لم يكن في يومٍ من الأيام سادناً لمرقد النبي ذي الكفل ، وإنما كان سادن المرقد هو الحاج محي الذرب الذي ورث «مركز السدانة» عن أبيه الذي كان بدوره قد ورثها عن أبيه ، أي جَدْ الحاج محي ، واليوم فإنَّ سدانة مرقد النبي ذي الكفل في عـُهدة مهدي الذرب ، وأهل مدينة الكفل الكرام يعرفون ذلك جيداً ، وهذا التصحيح نورده عرَضاً قبل تناول موضوع الشق الثاني من التهمة المزعومة التي تتعلق بأراضي اليهود الزراعية .

من المعروف لكل مهتم بالشأن العراقي ، وقضية أملاك اليهود على وجه الخصوص ، أنَّ حكومة نوري السعيد قد أصدرت قراراً بجعل أملاك اليهود في العراق «أملاكاً وقفية» وذلك في سنة 1951 على أثر هجرة اليهود الجماعية في العام 1950ـــ 1951 إلى فلسطين ، ومن ثم لاحقاً تحولت أملاك اليهود إلى مديرية الأموال المجمدة . ولكن ، وهذا أمرُ معروف ، أنَّ الحاج محمد الذرب كان شخصاً ذا غناء مالي ويسر اِجتماعي واضحين لكل مَنْ يعرف أوضاع المدينة وناسها ، عاش طوال مراحل حياته في مدينة الكفل ، ولكن أثناء «فورة اليسار المحمومة» ، التي أصابت بعض أقاربه بتشويهاتها ، وأمام إحساسه بالكرامة العالية ترك المدينة العزيزة على قلبه ومعالم الغضب الطافح تطوق مشاعره الإنسانية النبيلة.. مغادراً لها إلى مدينة الحلة ، ورغم أنَّ الدكتور يتطرق إلى علاقته الوطيدة بالحاج أبو جاسم، لحظة تعيينه في المدينة ، إلا أنه مع ذلك يتطوع مشكوراً لجعل «الإشاعات الخجولة» خبراً موثوقاً ومصدراً تاريخياً لا تعوزه الدقة أبداً ، باذلاً خبرته الأكاديمية والعلمية في سبيل خدمة الحقيقة والبحث العلمي ! من أجل جعل الحاج محمد الذرب شخصاً غير مؤتمن ومستغِّل للظرف وخائن للأمانة .

لا أعتقد أنَّ الدكتور السيد عدنان الظاهر يشير في سياق نظم مقالتـه «الثمينـة» تلـك إلى «مظلومية اليهود» خلال كل المراحل رغم جرائمهم منذ مجزرة دير ياسين الفظيعة وحتى مجزرة غزة الأخيرة ، وما بينهما من مجازر وحشـية وفظيعـة عـلى المسـتوى الفلسـطيني والعربي ، والتي ذهب ضحية جرائم كيانهم الصهيوني المغتصب الغادر مئات آلاف البشر الفلسطينيين والعرب ، بالقدر الذي كان ذهنه منصبٌ على تلبية حاجـة «شخصـية» تقتـرن بتقديم خدمة متميزة موجهة لمن يدير «الظرف السياسي المعين» الـذي نـتج عـن مرحلـة الإحتلال الأمريكي الآثم للعراق العظيم .

ولكن ما يثير دهشتي ويجعل الإرتباك يسيطر على عقلي وعاطفتي قوله التالي :

«إذاً قد آل مصير الكفل إلى خراب بعد هجرة اليهود العراقيين إلى دولـتهم العبريـة » (! ؟) وليس في زماننا هذا ، لقد اِلتحق بـ«دولة إسرائيل مَنْ كان يصونه ويتعهده بالرعاية وخدمـة مَنْ كان حاجاً» لمرقد ذي الكفل ، وهذا رثاءٌ بيِّن ترْشحُ الدموع الحزينة من بين عيون قائله على «الخراب» الذي صار إليه المرقد بعد غياب الأيادي الحانية عليه ، إنه وصـفٌ يعجـز البعض عن التوصل أو الوصول إليه ، وتبدو «بكائية أرميا» أقصر قامة عن التطاول لمعـاني الرثاء السـامية التي يجترحها السيد الظاهر.

وبخصوص رسالته «التبريكيـة» عـن «الدولـة العبريـة» التـي حـاول إيصـالها إلى «القـراء المساكين» من أمثالنا ـ كما يعتقد ـ فهـو يعالجـه بأسـلوب تـوارد الخـواطر الـذي يختصـره بالمقطع التالي : «هل طالب أحدٌ السفاح النازي ومجرم الحرب شـارون أنْ يكـف عـن قتـل الفلسطيني» .

في الحقيقة لقد نجح من خلال الوعي والفطنة والحبكة العالية تبرئة الكيـان الصـهيوني كله من ممارساته العنصرية على مدى تاريخ تأسيسه وما يزال ، ويحيل كـل تلـك الجـرائم إلى مجرد عمل فردي للمجرم أرئيل شارون ضد الفلسـطيني ، الـذي هـو مقطـوع الصـلة ـ كما يبدو عن الدولة العبرية ـ التي أخذت حقها من الذين ظلموا اليهود .

أما عن الخراب الشامل الذي لحق بمرقد الكفل بعد هجرة اليهود وذلك نقلاً عن مشاهداته في زيارته للكفل سنة 1959 ، فإنه يجري مقارنة سريعة بما حصل لمرقد النبي ذي الكفل بعد «نزوح اليهود» عنه بما حدث لاحقاً لمراقد الأئمة في كربلاء والنجف من خلال القول التالي : «هل نتوقع ممن قصف النجف الأشرف ومراقد علي والحسين والعباس بصواريخ أرض أرض . . . إلخ» . . .ألم نقل أنه أسلوب فيه التلميح أكثر من التصريح والإيحاء أزيد من القول المباشر وعبْر توارد الخواطر حول مسؤولية «هجرة اليهود» عن خراب مرقد ذي الكفل ومسؤولية صدام حسين عن تدمير النجف وكربلاء باِستخدام صواريخ أرض ـ أرض ! .

نقولها علناً : شكراً أيها الدكتور الظاهر ، لقد وصلت الفكرة من خلال مفاهيم «الدولة العبرية» و«خراب الكفل» و«القصف العشوائي لمراقد أئمة أهل البيت في كربلاء والنجف بصواريخ أرض ـ أرض» .

شكراً على هذه الأفكار الإنسانية النبيلة وشكراً على أسلوب البرقيات الموحية بما فيها كفاية ! .

لمن يكتب الدكتور الظاهر ؟ .

لا بد لهذا التساؤل الصارخ أنْ يطرأ على الذهن ، خصوصاً إنه اِقترن على الفور بكمشة من الحشد والتأليب في ظل الغموض حول الجهة التي يريد شحنها بالبغضاء والكراهية نحو صدور عراقية مليئة بالكراهية للحركة الصهيونية اليهودية وكيانها العدواني والعنصري القائم على الاِغتصاب ؟ !

لن نتوجه بأي سؤال محدد بشأن عدم إشارته إلى وجود المنارة أو ذكرها وهي الشاخصة المرئية لكل قادم لمدينة الكفل ، مثلما لا نستوضحه عن سبب عدم زيارته لمقام النبي ذي الكفل ، فلربما كانت قناعاته الفكرية العلمية مستمدة ومرتبط بالفلسفة المادية الديالكتيكية التي ترفض الاِعتراف بالميتافيزيقيا والغيبيات ، وهذا من حقه تماماً ، لكننا نريد إثارة نقطة هامة بصدد الموضوع كله ، بحثاً عن جواب منطقي لاِستفسار كامن في نفوس القرّاء ، ومن بينهم نحن بالتأكيد

، والمتمحوُر حول السبب الذي جعله يسيء إلى عموم المعالم الأثرية في مدينة الكفل ، وذلك عبر الطمس والتشويه المغاير للحقيقة والمتناقض مع الواقع القائم الدال عليه بآثار معروفة وعملت الإرادة الصهيونية / الإسرائيلية على سرقتها بعد الغزو الأمريكي للعراق ، وإذا أردنا صياغة اِستفسارنا بروحية «الظن السيء» وسوء الظن من حسن الفطن ، كما يقال ، نتساءل عن الجهة التي أريد خدمتها التي جاءت على لسان شاهد عيان كونه من الذين عملوا في المدينة ، والاِكتفاء بترديد «إشاعات خجولة» حول اِنتقال مسؤولية المرقد إلى «أيادي غير أمينة» .

وهو المعنى التي تنطوي عليه عباراته ، وما نتج عن تلك الإشاعة من غرس لقناعات مبطنة ومقصودة لمن يقرؤون النص ، حول الشخص المؤتمن والطبيعة التاريخية للمدينة : عربية إسلامية ، وربما التزوير الراهن الذي لحق بهما راهناً !.

لقد عايش الدكتور عدنان الظاهر المدينة لمدة قليلة من الزمن ، ولكنه مع ذلك ، زار قبر النبي ذي الكفل مرتين على وجه التحديد ، وتحدث بلسانه وقلمه عنهما ، كانت الأولى بمرافقة الطالب اليهودي : الزميل والصديق يكتور الذي نشأت الصداقة معهما منذ أيام الطفولة الأولى وفي المدرسة الاِبتدائية ، أي أنه كان حدثاً ، وفي مرحلة الدراسة الاِبتدائية ، وهو في سن الثانية عشرة في أحسن الأحوال وأفضلها ، ولكن ما بقي عالقاً في ذاكرته هاماً وكبيراً ، إذ يقول الدكتور الظاهر في وصفه الدقيق لمرقد الكفل كان البيت الواسع :

«عبارة عن باحة كبيرة مربعة الشكل تتوزع على جهاتها الأربع غرف كبيرة تشغل كلاً منها عائلة واحدة كاملة ، فأخذني إلى واحدة من تلك الغرف» ، إيوان كان طوله 20 م وعرضه 12م وبعلو 5 أمتار يفضي إلى مرقد ذي الكفل ، «دخلتها وكانت غرفة عادية مرتفعة قليلاً يتوسطها قبر» ولكن أين الخزائن الخشبية التاريخية المبنية بالحائط لحفظ الكتب والنصوص اليهودية المقدسة لاسيما كتاب التوراة المكتوب باللغة العبرية القديمة التي تحمل أشكالاً من الزخرفة والأشكال النباتية الملونة بشكلٍ زاهٍ ، وبريشة رسامين مهرة فضلاً عن النقوش الأخاذة والكتابات العبرية التي تزين حيطان البهوٍ وجدران المرقد ؟.

ليس هناك أي تطرق إليها من قبل السيد الكاتب ، ربما تكون ذاكرته لم تلحظ تلك الخزائن الخشبية الأثرية ، وأين الأحجار الأثرية المدون عليها أقوال مكتوبة باللغة العبرية القديمة والتي نجحت المخابرات الإسرائيلية : الموساد لاحقاً وبعد الإحتلال الأمريكي للعراق ، بتفكيكها وانتزاعها وسرقتها والذهاب بها إلى الكيان الصهيوني ؟ ، هي الأخرى لا جواب عليها !.

ولكن الدكتور الظاهر يسترسل مأخوذاً بالدهشة المطلقة بالقول التالي :«فسألت صاحبي : وأين القبر ؟ أشار إلى الدكة قائلاً : هذا هو القبر ، كان القبر مغطىً بقطعة من القماش السميك الثمين الذي يعلقه الأثرياء» . . . ويضيف لقد كانت : «غرفة عادية مرتفعة قليلاً يتوسطها قبر أعلى من قامتي يوم ذاك . . . الدكة» ، والسنة كانت عام 1946 ، وعمر الدكتور آنذاك بحدود 10 إلى 12 سنة والدكة عبارة عن صندوق خشبي مصنوع من خشب الأرز ، وارتفاعه في حدود 2 متراً بحيث لا يمكن مشاهدة السطح الأعلى للصندوق .

ولكننا نذهب ، مرة أخرى ، مع الدكتور عدنان في زيارته المباركة الثانية . . . يقول الدكتور :«رأيت بعض أجزائه قد تهدم فعلاً ولم تجرِ له أية أعمال صيانة . دخلت غرفة قبر ذي الكفل فرأيتُ الدكة / القبر عارياً أجرد مجصصاً بشكل جيد ، ولم يمسه أحدٌ بسوء ، كان القبر كما رأيته قبل ثلاثة عشر عاماً ولكن بدون كسوة القماش الثمين» ، ورغم أنَّ الظنون تأخذنا نحو مسألة ((خيانة الأمانة)) التي قد حدثّت البعض نفسه وصادر القماش السميك والثمين لكي يضعه في بيته ، فلربما يصبح من جراء تلك «المصادرة» أحد الأثرياء التي يشار لهم بالبنان ، كان المفروض من الدكتور عدنان أنْ يمتّع ناظريه بالنقوش الخشبية وجمالياتها ، واللون الجميل لخشب الأرز الذي لم يُحرَك من مكانه لمدة زمنية ربما تجاوزت الثمانمائة عام ، ولكن السيد الظاهر لم ير القبر سوى : كونه عارياً . . . أجرد . . . ومجصصاً بشكلٍ جيد ! .



هذه الغرفة العادية والعالية قليلاً كما يروي الدكتور ! أما قبر ذي الكفل فهو في تلك الغرفة ، كما يرى الكاتب !؟



وصورة أخرى لمبنى القبة المخروطية والمنارة المغدورة ، مـُلتقطة من الجهة الأخرى

ولكن ما ينبغي هو الرجوع بذاكرتنا بالوصف الذي تركه لنا الربـّـان بتاخيـا الـذي زار مرقد النبي ذي الكفل في سنة 1118 ميلادية فهو يقول

«مَنْ لم يرَ قبر حزقيال العظيم فإنه لم يرَ أثراً جميلاً في حياته . مثلما وصف القبر قائلاً : إنه من خشب الأرز لم تشهد العين مثله»، [راجع كتاب نزهة العشاق في تاريخ يهود العراق ، من تأليف السيد يوسف رزق الله غنيم ، ص 252] ، ثمانمائة عام مسافة زمنية طويلة تفصل بين مشاهدة الربّان بتاخيا ، وكتابته عن المزار ، من جهة ، ورؤية الدكتور عدنان الظاهر ، من جهة أخرى ،والفيصل في الحكم على طبيعة القبر المرئي هو خشب الأرز الذي نطق على لسان الربان بتاخيا ، والذي ما يزال مسمراً أمام عيون زائري مرقد النبي ذي الكفل الذي يطلق عليه اليهود اِسم حزقيال ، [رغم أن المعلومات الحديثة تروي أنَّ الحاج عبود : والد الفنان المبدع حمودي الحارثي (عبوسي) وهو أحد أبطال العمل الفني الفذ : تحت موسى الحلاق ، والشخصية الفنية المحببة للمجموع المتابع لذلك العمل المتميز) ، هو الذي صنع ذلك الهيكل الخشبي للقبر وأقام النصب الخاص بنبي اليهود ، وذلك في ثلاثينات القرن الماضي من خشب الصاج الخالص ، للنبي حزقيال ، كما أخبرني شخصيا نجله الفنان حمود الحارثي] .

فهل يا تُرى ، يعتقد الدكتور الظاهر أنَّ طـْمس المعالم الأثرية عبر تشويهها ولوى عنق الحقائق المرئية من قبل الزائرين حالياً والتي كتب عنها البعض تستطيع أنْ تعطل التاريخ الملموس ، وتلغي آثاره الراهنة ؟ ! ، وهل المقالة تلك / وهي الرد المكتوب على رأي ورد في جريدة «المؤتمر» قد جرى تقديمها في سبيل تحقيق خدمة مجانية تطلَّبَ موجباتها خلال مرحلة تاريخية محددة ، وعلى الخصوص أنها قد كـُتبت في العام 2000 ؟ ، إنَّ عتبي الأساسي على أستاذنا الكبير الدكتور عدنان الظاهر يتمحور على الكيفية التي تسنى له عبرها من أنْ يمحو سطوراً موثقة من تاريخ مدينة عراقية وعربية عريقة كانت أول مكان واجه الغطرسة اليهودية في تاريخ العراق الحديث ، وذلك بالإستناد إلى «إشاعة خجولة» ، ولا نريد الإستفسار في هذه اللحظة عن الفروق الدقيقة بين مَنْ يصنع الإشاعة وبين مَنْ يروجها ؟ ! .

وعودة إلى موضوع المنارة من الناحية التاريخية ، يجب أنْ يقال أنَّ يهود الكفل وبمساندة قوية من أشقائهم في الدين المقيمين في بغداد قد تمكنوا في العام 1887 ميلادية من اِعتبار جامع النخيلة كما كان يسمى قبلئذٍ ، ومنذ العصر العربي الإسلامي الأول ، ومن دون مئذنته : «المنارة» وعموم البناء المحيط به هو مُلك خاص بهم ، رغم أنَّ الجامع يحتوي المئذنة «المنارة» المشيدة فوقه ،وهو معلم إسلامي كما لا يخفى على أحد ، وقد ذكرنا أعلاه بعض الأشعار التي وردت في قصيدة الشاعر السيد رضا الهندي ، فلا داعي لعملية تكرارها .

أما الكاتب السيد حسين شهيد المالكي فقد ذكر في بحثٍ قيم حمل عنوان «قصة منارة الكفل . . . في ذاكرة العراقيين» نشرته صحيفة «العدالة العراقية» بتاريخ الأول من شهر تموز في العام الماضي : «2008»ورد فيه التالي :«وضعت اللجنة الثانية القادمة من إسطنبول قراراً تؤيد فيه اللجنة قرار اللجنة الأولى بنفي وجود منارة الكفل مستخدمين اللغة العثمانية بالقول : «منارة يوقدر» أي لا منارة هناك ، وتجاه هذا القرار سكت الحاج ذرب وكافة أهل الناحية». . . وفي تداعيات تلك القضية وبعد أنْ أبلغ المسؤولون العثمانيون الحاج ذرب بقرارات اللجنة القاضية بنفي وجود المنارة ، فقد أخذ على عاتقه إحقاق الحق التاريخي بالقوة فأمر بِاعتقال زعماء اليهود في إحدى الغرف الكائنة داخل الصحن الكائنة في مشهد النبي ذي الكفل ، وأصدر تعليماته بأنْ يكون إروائهم من ماء البئر الموجودة في الصحن ، عقاباً لهم على التزوير وتقديم الرشوة للبعثة ، ويتميز هذا الماء بكونه ماءً مجّاً أو مالحاً ، وبعد مرور فترة زمنية على اِعتقالهم في تلك الغرفة وشربهم من ماء البئر ، حتى أخذ اليهود المعتقلون يرددون شعاراً يتوسلون فيها الحاج ذرب العفو عنهم من خلال الكلمات التالية :

«الله يديمك يا ذرب ماي البير ما ينشرب» .

أحداث طريفة في ماضي المدينة

في الثلاثينات من أعوام القرن العشرين الماضي ، وفي خضم الزيارات المعتـادة سـنوياً للنبي ذي الكفل ، الذي يسمونه حسقيل ، والتي يفضلها اليهـود بالقـدوم إلى مدينـة الكفـل ، تدفـق اليهود من كـل أنحاء البلاد العراقية ، وذلك لأداء طقوس دينية خاصة بهـم ، وكـان يتخلل تلك الطقوس إقامة حفلات الأفراح الصاخبة وترديد الأغاني العراقية ونشر أجـواء الحبور عبر الإكثار من مظاهر الأكل والشرب ، وتناول ما لذ وطـاب مـن أشـربة محرمـة وغير محرّمة ، كان بعض أهالي الكفل يشاركونهم أفراحهم كمـا اِعتـادوا ذلـك سـنوياً ، في ظل الترحيب الغامر بالزائرين من خارج المدينة ، وكان التكريم عملاً يحافظ على سجاياه الطيبة أهل الكفل في تلك المناسبات .

ولكن في ذلك العام كان وقع تلك الزيارة شديداً على ذاكـرة أهـالي الكفـل وذلـك بسـبب اِرتباطه بحدثين الأول منهما أثار دهشتهم القصوى وأجرى المتعة في أنفسهم ، والثاني مقترن بتجاوز اليهود لأعراف أهل المدينة من النواحي الوطنية والقومية والدينية ، عـلى الـرغم مـن ضبابية الوعي السياسي عندهم ، أو عند أغلبهم ، ولكن طبيعة الهتافات قد اِستفزت ذاكـرتهم التاريخية العربية الإسلامية وحركت مشاعر الجهاد الإسلامي عنـدهم . أمـا الحـدث الـذي كنت أدأب على سماعه من الأهل والأصدقاء من كبيري الأعمـار فهـو الـذي يتعلـق بـبعض أحداث ثورة العشرين الوطنية مما ترك أثراً على تطور وعيي الوطني .

الحدث الأول :

الإحتفال المدهش الذي زينه البهلوان والساحر حسين تاجر القادم للمدينة من خارجها ، الذي كان يلجأ إلى حيلة ظريفة يخلب فيها لب المشاهدين لقاء أجور الدخول إلى موقع الحفل لمشاهد الأعمال البهلوانية والسحرية التي يقوم بها ، كان من بين أبرز تلك الحيل ، وضعه في صندوق ويقوم آخرون بإحكام إقفاله ويتراءى للمشاهدين أنَّ البهلوان أو الساحر قد بقي في داخله ، ولكن التاجر البهلوان أو الساحر يفاجيء الجميع بعد لحظات عدة عبر نداءاته المتتالية وهو يقف على سطح مكان الحفل بضرورة فتح الصندوق كي لا يفارق الحياة ، وعندما يقوم شركاؤه بفتح أقفال الصندوق وإخلاء سبيل السلاسل عن ذلك الصندوق يبرز للعيان من جوفه كلباً للصيد أعـِّد مسبقاً لتنفيذ هذا الدور ، فيطفق المشاهدون بالتعجب والدهشة ، والإستغراب يعلو وجوههم .

كانت تلك الحيلة وألعاب القوة والنكات المختلفة تثير ضحكات المشاهدين وتترك يومهم سعيداً مليئاً بالقهقهات والضحك الذي غالباً ما يقترن بالحذر والتوجس من الغيب الغامض الآتي على حين غرة ، وعموم أهالينا كانوا ـ وما يزال بعضهم كذلك ـ يخشون الفرح واللهو والضحك . . . بل حتى في أيام العيد الذي لا يأتي إلا لماماً ، عبر إطلاق نداءات اِستغاثة غامضة بالقول : يا ستار ، مرددين الجملة المعروفة الأثيرة على ألسنتهم ، وبلهجة عراقية محببة ، بمثل هكذا مناسبات : «اللهم اِسترنا من هاي الضحكة» ، وهكذا يمضي يومٌ كامل والناس فيه متوترون إنْ صح التعبير ، وكذلك مشدوهين من حيلة الأقفال وتعريض البهلوان أو الساحر لنفسه لمواقف الخطر والمغامرة ، وتسود الروايات الصحيحة التي تُبَهَّر بالمبالغات غير المعقولة ، على أنَّ مشاهديها قد رأى تلك التجارب الحية بأم عيونهم وأنفسهم .

وتتناقل تلك الروايات من شهود العيان إلى الغائبين عن حفل التاجر المحتال أو البهلوان ، مع الإضافات الكثيرة المحببة والغريبة على آذان السامعين ، والتي تتوافق مع أمزجة الرواة ومستويات عقولهم ، ويمضي اليوم كله مع وجود هرج اِستثنائي ومرج غير عادي في ظل كثافة سكانية تسود أسواق المدينة وأزقتها غير المعهودة في تلك المدينة الصغيرة التي تعيش في بقية أيامها على الهدوء الروتيني بسبب العيش على ضوء القمر آنذاك وخلوها من أية أمكنة للهو البريء .

الحدث الثاني :

في إبان تلك الفترة من أعوام الثلاثينات من القرن الماضي ، ولم يمضِ يـوم واحـد عـلى الحدث الأول ، حتى شوهد جمعٌ من الشباب اليهودي المتحمِّس ، وهم يرددون بحمـاس منقطع النظير شعارات تزيد التظاهرة ضـخامة وقوة حتى بلغت أعداد الهاتفين بحدود الــ 150 شـاباً وطـفلاً تقريباً ، كانت تلك الشعارات تقول التالي :

«إيل . . إيل إسرائيل . . . إيل . . إيل إسرائيل»

وقد اِجتمع في مدينة الكفل وبشكل سري عدد من المتنورين أو مَن تـأثر بهـم لأسـباب مختلفة ، والذين لا يتجاوز عددهم أربعة أو خمسة أشخاص ممن حضروا ذلك الاِجتماع ، ومن بينهم كان :

1 – عبد الكاظم الحسون الذرب ، وهو الأكبر سناً ومعنوياً في المجموعة .

2 – كاظم الهاتف الذرب .

3 – الأستاذ عبد الرزاق حميد الشمري ـ والد الشهيد عبد الوهاب عبـد الـرزاق ، الـذي أستشهد في بشتاشان على أيدي قوات «رئيس العراق» جلال الطالباني ، الذي يتناسـاه قـادة حزبه مثلما تناسوا شهداء العام 1963 إبان «الجبهة الوطنية التقدمية» في أعوام 1973 .

4 – نعمان حسين الذرب .

5 – صالح البشير .

وقد توجهت هذه المجموعة متسلحة بإيمان وعزيمة لا تلينـين ، ومـزودين بمـا تـوفر بأيديهم من أسلحة بيضاء كالعصي والخناجر ، وهم يهتفون بصيحات الله أكبر ، وهجمـوا على الجمع اليهودي المتظـاهر ، وفي حمـأة الهجـوم أو في أعقابهـا صـرخ كـاظم الهـاتف ، وبأعلى صوته الجهوري : يا لثارات فلسطين ، فاِنفرط ذلك الجمع اليهودي وتشتت في كل الجهات ، فيما هرب قسم آخـر نحـو بسـاتين النخيـل القريبـة والمحيطـة بالمدينـة ، وفي أعقاب تلك الحادثة تدخل كبار اليهود في الأعمار ممن يسكنون المدينة للتوسط بين أهـل المدينة والشبان اليهود ، وإبداء الاِعتذار عما حصل في المدينة الوادعة ،

والذي تسبب فيه «الحمقى» من اليهود الشباب، والتعهد منهم بأنْ لا تتكرر مثل هذه الأحداث ، علماً أنَّ ولاء اليهود العراقيين كان للعراق أساساً ، كونه يتغلّب دائما على «الولاء المسيس» للساسة اليهود من كبار الموالين للحركة الصهيونية، حصول التحرك البريطاني في العام 1941 عندما تحركت القوات الإنكليزية من جنوب أفريقيا والهند وشرق الأردن لِاحتلال العراق عسكرياً في أعقاب اِنتفاضة الشعب العراقي والجيش ضد الاِستعمار الأجنبي البريطاني وعملائه في تلك السنة .

وما اِستتبع ذلك من أحداث من بينها أحداث الفرهود المشهورة ضد اليهود في بغداد والبصرة التي جرى تناولها دعائياً بشكلٍ واسع على المستويين العربي والعالمي .

وبهذه المناسبة ينبغي التطرق إلى الحقيقة التالية : عندما يبحث كل يهود العالم عن وطن الاِستعارة فإنَّ ليهود العراق وطنهم الدائم الذي يحنون إليه على أنْ يكون الدين عقيدة وليس عرقاً قومياً .

الحدث الثالث وتنمية الذاكرة الوطنية :

لطالما كان قلبي وعقلي يهتـزّ طرباً وإفتخاراً لبعض الأنواع من القصص البطولية التـي ترافقت وذكريات شخصية عن ثورة العشرين التي أسهمت بشكل فعال في تأسيس الدولـة العراقية الحديثة ، التي حـاول الغـزاة المجرمـون الأمريكيـون إفلاشـها ، بعـد احـتلالهم للعراق . ففي أعقاب الانتصار الكبير الذي حققه ثوار وأبطال ثورة العشـرين المجيـدة في الرارنجية ، إحدى قرى مدينة الكفل ، بالفالة والمكـوار إنتصـر الثـوار وتـم تـدمير فيلـق مانشستر ومصادرة الأسلحة والأعتدة ومدفع واحد . . . وكـان يُطلـق عـلى المـدفع اسـم الطوب ، وذلك باللهجة العامية . وتوج هذا الانتصار بالأهزوجة الشعبية المعروفـة التـي طبقت شهرتها الآفاق الشعبية العراقية : «الطوب أحسن لو مكواري» ، في إشارة إلى الإرادة الوطنية والتصميم في حسم بعض حلقات الصراع المسلح .

على أثر هذه الضربة الموجعة للغـزاة المحتلـين البريطـانيين ، قـام الطيـران البريطـاني بقصف مدينة الكفل ، وبالتحديـد دار الحـاج ذرب ، وذلـك للـدور الريـادي الـذي لعبـه بديوي الحاج ذرب في ثورة العشرين ، والتي أصبحت لاحقاً سـوق بإسـم الحـاج ذرب ، أثر قصف الطيران البريطاني له ، وقصف الطيران البريطاني أيضاً ، دار الحـاج منسـي ذرب لمشاركته وأخوته في مواجهة المحتلـين البريطـانيين ، ومـن المعلـوم أنَّ الأنقـاض التـي ترتبت على هذا القصف المجرم لم تـُرفعْ من بيت الحاج منسي حتى منتصف الثمانيات من القرن الماضي .

في الوقت الذي رفع اليهود في مدينة الكفل الأعلام البيضاء فوق سطوح منازلهم .

ملاحظة جديرة بالإنتباه :

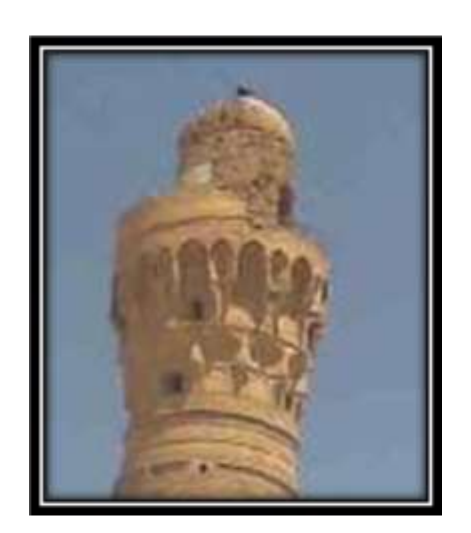
أكثر من ثلاث سنين والصيانة قائمة في بناء مرقد ذي الكفل . . .في الوقت الذي تنعدم أية صيانة لمنارة الكفل ، وعند إثارة السؤال عن سبب هذا الإهمال المتعمد ، يكون الجواب على الشكل التالي : لقد شكلت لجنة في جامعة بابل لدراسة الصيانة . . . والمنارة آيلة للسقوط مع ميلان شديد وبروز «اِنتفاخ» في أسفل المنارة في جانبها الشرقي .

ولكن السؤال الذي ينبغي طرحه في هذه المناسبة يتمحور حول عدم اِهتمام الحكومات المتعاقبة ومنذ تأسيس الدولة العراقية الحديثة في العام 1921 عن الاِهتمام بجامع الكفل ، الذي كان يجدر بأية واحدة منها ببناء مثل هذا الجامع وإطلاق اِسم المجاهد الحاج ذرب عليه ، كونه بادر إلى تدشين أول صدام مع الحركة اليهودية الصهيونية ؟ !.

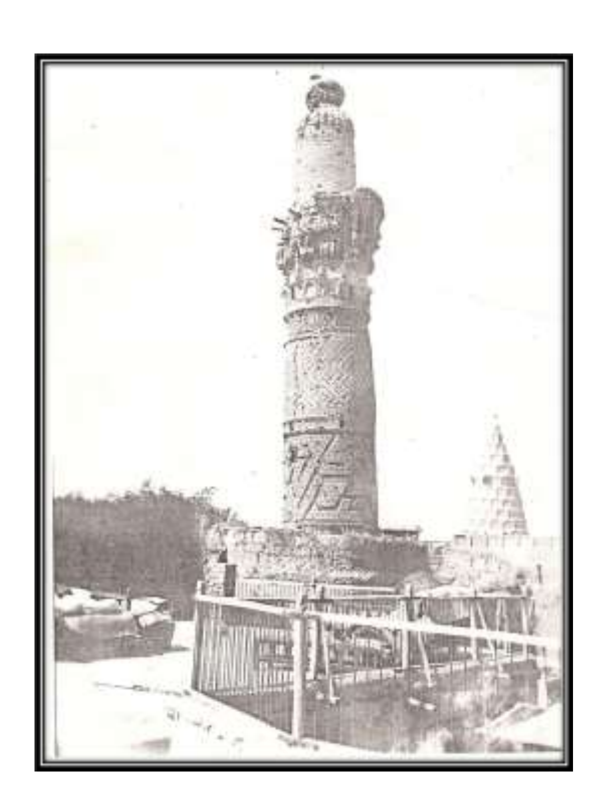








صوَر عدة للمعالم التاريخية لقبر النبي ذي الكفل عليه السلام



صورة تاريخية لمنارة الكفل قبل أنْ يجرى ترميمها في العام 1931

الدكتور الظاهر :من الشائعات الخجولة إلى دولة اليهودية العبرية

- 1 -

كتب السيد الدكتور البروفيسور الظاهر مقالة مطولة رداً على ما رأينا غير ما رآه ، الأمر الذي اِقتضى منا الرد المسهب على أفكاره القديمة / الحديثة وآرائه الجديدة ، وكان لنا الرد التالي على مقالته :

الدكتور الظاهر : من الشائعات الخجولة إلى دولة اليهود العِبرية

أثارت جمل وكلمات الدكتور عدنان الظاهر التي نشرها ضمن ردٍ له على مقالة كتبتها تحت عنوان «الدكتور . . . ويكتور . . . ومنارة الكفل» العجب العجاب في نفسنا ، كونها صدرت من قبل أكاديمي له باع طويل في الكتابة البحثية والأدبية طالما نوهت عنها كتابته في موقعه الإلكتروني المعنون «موقع الدكتور عدنان الظاهر الدكتور الأديب» وفيه التعريف التالي : دكتوراه كيمياء وبروفيسور مشارك ، وهناك حقل جاء فيه أسماء الكتب المنشورة وأسماء الكتب الجاهزة للنشر ، ونُبذة عن حياته الدراسية والوظيفية ، ولم يكن عجبي نابع من «المستوى الأدبي» لنصه الجديد بل من الطريقة الفوقية التي اِفترض فيها نفسه مالكاً فيها «زمام العدالة المطلقة» التي عِبرَها يوزع أحكامها على هذا الشخص أو ذاك ، حتى لو قلنا ـ وأثبتنا ذلك ـ أنَّ مصدره المعرفي ينبع من «شائعات خجولة» هو سجلها بنفسه ، كونه تعلـّم في مدرسة أتباع اليقين السياسي المطلق ، وكذلك نشأ في أجواء قناعات كيفية ، حول صيرورة الحاضر المكاني ومسكه للحظات المستقبل الزمني ، ناهيك عن «إدراكه كمفكر وحيد» لملابسات الماضي التاريخي / الكوني ، ومعرفة كنه أسراره التكوينية . . . أقول العجب وليس الأسى

لأنَّ الأول يتعلق بالخيبة الشخصية المفاجئة لـ«قامته الحاضرة في وعينا»، فيما التعبير الثاني ينطوي على المفارقة النوعية بين وعينا التكويني عن ماضيه «المفترض» ، وفهمنا لحاضره الحقيقي في تناوله لحالة تاريخية محددة ، وهو ما دفعني لتسطير هذه الوريقات حول «رؤيته الفكرية الجديدة القديمة».

تندرج مساهمتنا هذه في سياق العودة «المفروضة» إلى «مقالة» الدكتور عدنان الظاهر المنشورة في موقع «كتابات» بتاريخ « 2 / 6 / 2009 » والمعنونة : السيد عامر الذرب ومنارة الكفل ، والذي أوضح فيه أنَّ كتابته السابقة كانت في معرض رده على مقال منشور لأحدهم في صحيفة «المؤتمر» العائدة لأحمد عبد الهادي الجلبي قائد تنظيم «مؤتمر فينا» المصنوع أمريكياً وتحت إشراف سكوكرفيت ، والذي كان يوزع أموال المساعدات المالية الأمريكية الشهرية البالغة 345 ألف دولار أمريكي على كلِّ مَنْ يكتب في صحيفته التي كانت تصدر في العاصمة البريطانية : لندن بالعملات الصعبة ، بغية شراء الذمم أو رشوتها للبرهنة على حضوره السياسي : عراقياً ، أمام أسياده في وزارة الدفاع الأمريكية «البنتاغون» .

– 2 –

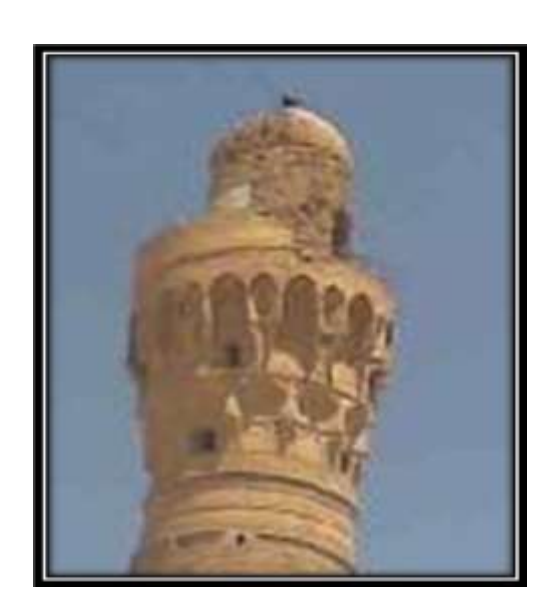
لقد أشبع مقالته بـ«مسكوكاته اللغوية» التي يستخدمها لإرهاب الآخر من أجل لجم أي تفكير حر ورصين ، بدلاً من معالجة الإختلاف بين أفكار وآراء رأيناها تحتاج إلى توضيحات ومعارف تاريخية حقيقية ومواجهة الحجة المطروحة بالحجة المنطقية المدعَّمة بالمعلومة ودفع البينة المنشورة في صحيفة «المؤتمر» على أرضية «الشائعات الخجولة» بالبينة البحثية المسنودة بالصور التي تشير إلى الأماكن المقصودة ، وقد تجسدت تلك «المسكوكات اللغوية» بصفحتين شكلتا ثلث مادتها المعرفية قاموساً مكثفاً من الشتائم قوامه التكويني حوالي مائة مفردة غاية في فرادتها «الأخلاقية النبيلة» القائمة على السباب والشتائم التي نعتقد أنَّ مبناها ومحتواهما متدنيان جداً لا يليقان به ، لقد فسَّرنا موقفه المجسَّد في «مسكوكاته اللغوية» هو الوسيلة الأنسب التي تبرهن على موقف العاجز المهزوم المدحور

عندما يلجأ لـ«الترهات اللغوية» من أجل إثارة ضجيج لغوي بائس يحاول من خلاله إضاعة بوصلة الموضوع المطروح للنقاش ونثر الغبار لتضييع «الآخرين» وسط ذلك الصراخ الموتور والمتوتر ، ومن أجل مسك هذا الأسلوب الذي يتسلح به العاجزون المهزومون لنقرأ هذا «السيل الأكاديمي» من «مفردات نوعية» وردت في «نصه الردوي» الجديد الذي تفضل فيه في جمع توصيفات خصها بي :

«خيانته ؛ نكثه ؛ العنجهية ؛ شطط ؛ سوء فهمه ؛ تحيطه ظنون مرضية ؛ تثير السخرية والضحك ؛ شعوذات ؛ فبركة ؛ أكاذيب تزييف ؛ عن عماء وجهل وأميَّة ؛ أو عن خبث ؛ إنه بعثي أو قوماني مصطف ؛ أهواؤه مشكوك فيها ؛ شطحات ومهازل ؛ سجع وردح العماء ؛ الشعوذة ؛ كبير المفترين ؛ حمية متورمة مشكوك فيها ؛ معرة ؛ عار ؛ خزي ؛ ثرثرة ؛ أطنب ؛ سدر في غيه ؛ ظنونه وشكوكه المرضية ؛ الجنون ؛ العميان والمزورين والذين في قلوبهم مرض ؛ لم يفهم ؛ وسوف لن يفهم ؛ خبثاً أو غباء وأميّة ؛ منطق أعوج أفلج وأي أفكار شوهاء وأية نوايا سوء يغزلها ويحوكها في صدره ؛ هل رأس هذا الرجل مقلوب ؛ أم نواياه وهواجسه المريضة هي التي توسوس في صدره ؛ غير طبيعي وغير ثابت وغير مستقر ؛ ينقلب في هواجسه المريضة وأفكاره وهواجسه ذات اليمين وذات اليسار ؛ لا يقر له قرار ؛ ثم أنه خلاق مشاكل . . . ويختتم الدكتور مقالته «النقدية المميزة» بقوله . . نص بحثي بعد أنْ حذفت منه الجملة القصيرة جداً بشأن الشائعات الخجولة التي أقضّت مضاجع ومهاجع السيد عامر وحرمته نعمة النوم الطبيعي» ، وليس لي أي تعليق على محتويات هذه التعبيرات التي اِنطوى عليها مخزونها الفكري لتلك «المسكوكات اللغوية» سوى الدعاء بالشفاء لكاتب هذه الخزعبلات الشتائمية من الغرور المنقطع النظير ، والذي تسبب ـ كما يبدو ـ في مس «ذاته الإلهية المنزهة» عن أية خطأ والرافضة لأية إشارة نقدية عابرة ربما تصدر عن كاتب مغمور من أمثالي ، حتى لو كانت بسيطة .

من الواضح وبشكلٍ جلي شكل الاستقرار النوعي الذي أصبح عليه الأستاذ الظاهر ، وعدم اِلتفاته لأية نسمةً نقية تحاول تحريك الراكد في هواء الغيظ الذي ملأ جنبيه بسبب تقادم الأعوام ، وكذلك من الواضح جداً وفعلاً وحقاً مَنْ هو الذي تم حرمانه من نعمة النوم الطبيعي وقلقل هدوءه النفسي وجعله يتقلب على جمر الغضا مثلما يقال ؟ ! والتي ـ كما قال ـ تطرق فيه إلى تفاصيل «بحث ديني تاريخي بالأساس» وهو عنوان كبير نعتقد أنه مثقل بحاسة الغرور المعرفي والتورم الإبداعي .





صوَر عدة للمعالم التاريخية لقبر النبي ذي الكفل عليه السلام
وصورة تاريخية لمنارة الكفل قبل أنْ يجرى ترميمها في العام

931

أعيد تكرار القول مستفسراً عن مَنْ هو الذي حـُرم من نعمـة النـوم الطبيعـي ، وبالتـالي ضرورة ذهاب الدكتور للتفكير العميق للتفتيش الواعي عن مَـنْ هـو الـذي يسـتحق هـذا السيل العارم من السباب وكومة الشتائم الموبـوءة التـي صـدرت عـن «عقليـة أكـاديمي» و«متخصص بشؤون الأدب والعلم» تجاه شخص عراقي حاول أنْ يبدي وجهة نظر تجـاه قضايا تراثية تمس شؤون المدينة التي يعيش فيها ويناقش مسائل تهم أبناء مجتمعه الأمـين لتراثه المعتقدي والفكري ، ولم تأخذه المفاهيم الغربية نحو مياه لا ضـفاف لهـا ولا قـرار لعمقها ، من أجل خدمة تراث أو زاد معرفي مسطـَّر في بطون الكتب كتبته أيادي اليهـود في العالم ، إني أدعو القارئ الكريم كي يكون حكماً وفيصلاً :بين كلِ من «الضحية والمعتدي» من دون وجه حق أو تبرير أو حتى إنصاف أرى من الضروري تمَسك أي إنسـان بمعـاييره الأخلاقية !.

– 3 –

إنَّ الدكتور الظاهر المتميز بوزنه المعرفي الذي تراكم على مدى زمـانٍ طويـل اِسـتغرق سنوات مديدة ، ونال الحظوة عند مَنْ وفر له زمالة الدراسة ، كي لا أقول أنه بلغ من العمر عتيا ، وبالتالي وصل إلى مرحلة كان الأحرى به أنْ لا يقع في مطب يثيـر التسـاؤلات حـول وزنه الفكري ، وإنما يجب الإقرار أنه وصل مرحلة العقد الثامن من العمر أطال الله بعمره المديد ، ومثلما يقال أنَّ الأمور تقاس بخواتيمها ، والعياذ بالله من النهاية / الخاتمـة التـي تنتظره التي نأمل لها أنْ تكون حميدة ، وذلك قبل أنْ تدركه العواقب الكريهة ، لذا أحسـبني متجرءاً جداً على دعوته كي يكون متسلحاً بشيء من الحشمة الشخصـية ومتمتعـاً بفضـيلة الوقار والاِحتفاظ بالهيبة المتكونة عنه عند الأصدقاء وربما الأعداء أيضاً ، والتي تتناسـب وموقعه الاِجتماعي بين الناس والمعارف ، وضرورة تمتين حصافته وحصـانته الأخلاقيـة عند مخاطبة الآخرين الـذين لـديهم ألسـنة وأقـلام ومعـارف ، وبالتـالي ترصـين وضـعه كـ«مفكر» جاوز عمره السبعين عاماً ينبغي أنْ يضفي على كرامته المعنوية شـيئاً كثيـراً مـن الكياسة التربوية والأخلاقية التي تمليها واجبات العمر قبل الاِرتقـاء إلى منسـوب رسـالته العلمية ومنجزاته الأدبية الوفيرة ، كما يذهب موقعه الإلكتروني الشخصي إلى ذلك .وكل ما هو خلاف ذلك لا يليق به على أي صعيد ، كما هو اِعتقادنا المتواضع ورأينا البسيط .

لقد عطف علينا الدكتور الظاهر من خلال شطبه «للكلمـة» التـي كانـت قـد اِكتسـبت الصبغة الأكاديمية أو الصيغة العلمية وإنْ كان قـد منحهـا الصـفة «الخجولـة» في حـين أنَّ الفيلسوف فردريك إنجلز قد وجه المؤمنين بعقيدتـه إلى ضـرورة الكشـف عـن الخطـأ لا حذف أو تحسين محتـواه ، نتبـين ذلـك مـن خـلال تأكيـده التـالي الـذي يتداولـة بعـض الماركسيين :«إنَّ في عرضي شيئاً من الخراقة ويمكن التعبير عن الجزء الأعظم منه بشـكل أوضح وأدق . ولم أسمح لنفسي بحق تحسين هذا القسم . ولذا أرى لزاماً عليَّ ، بـدلاً مـن ذلك ، أنْ انتقد نفسي» ، فهل تعلم الدكتور الظـاهر مـن تلـك الممارسـة وذلـك المـنهج المادي الجدلي الذي يتفاخر به علينا أبداً .

ولكن هذا الشطط لم يكن إلا اِستجابة لدواعي الكلام التبريري بصدد مسـألة محـددة ، وسنجد «المفهوم المعبَر عنه» منثوراً هنا وهناك في سـياق مقالتـه «الجديدة» ، في صـدىً بـيّن رغم كونـه كامناً في عـقـلـه اللاواعي ، ونعثر عليه شاخصاً كالفطريات المتناميـة عـلى أكـوام الدمن رغم شطب الكلمة المتذاكي الذي يدل على خبثٍ دفين معهود عند أمثالـه ، ومـا كـان الشطب سوى عملية مفضوحة للهروب أو التهرب من عدم صـوابها وعـدم لياقتهـا ، ولكنـه يعود مجدداً إلى اِقتفاء أثر ذات الأسلوب الـذي أفرزهـا ، لكـي يؤكـد أنَّ الشـتائم والسـباب والشائعات الصفراء مصدرها شخص محدد ومروجها كائن واحد ، إذ يقول الدكتور في مقاله الأول :«إنَّ الحاج محمد الذرب هو مسؤول مقام الكفل . . .

وفي مقاله الثاني تراجع عن تسجيله لتلك المقولة حيث يقول «حول اِحتمـال أنْ يكـون الحاج محمد الذرب مكلفاً . . إلخ : أقرَ وإعترفَ بأنَّ الشقيق الأكبر للحاج محمد الذرب [الحاج محي الذرب] كان مسؤولاً عن مقام ذي الكفل وراعيه ثم خلفه رجلٌ آخر مـن آل الذرب هو السيد مهدي الذرب ! ! ! كيف لم تأخذه العزة بالإثم ؟» .

شائعات الدكتور السراراتي أطال الله في عمره تكلمت عن أموال وأراضٍ لليهود في عُهدة الحاج محمد الذرب وأثمرت بقدرة أكاديمية بحتة لتصيب آخرين «بتهمة السدانة» ، وللشائعات رجال لها خلقوا وبها اِقترنوا ولأجلها وجدوا . سنأتي على أمر السدانة لاحقاً .

يقول الدكتور السراراتي كما عرفناه : «فكان متوقعاً أنْ يزورني في مدرستي الحاج محمد الذرب وأنْ يدعوني على الغداء في بيته في مدينة الكفل ، قبلت الدعوة بعد تردد» ، الدكتور يتكلم عن موضوع مهم يتعلق بطبيعة العلاقات الاِجتماعية في مرحلة الخمسينات من القرن المنصرم ، وفي إطار تلك المرحلة الزمنية تلك ينبغي علينا التساؤل التالي : من أين يؤتى بالتواضع غير المعروف آنذاك للحاج محمد الذرب لكي يذهب للترحيب بمقدم الأستاذ ـ الدكتور لاحقاً ـ عدنان السراراتي ويرجوه أنْ يقبل الدعوة ؟ !.

مثل هذه الأمور في الواقع الاِجتماعي القائم في تلك الفترة ، مغايرة لذلك الواقع الاِجتماعي ولعموم العلاقات الاِجتماعية التي تترتب عليه ، إذ أنه من غير الممكن أنْ يذهب الحاج محمد الذرب إلى المدرسة ويوجه إليه الدعوة على الغداء ، قد يرسل أحد خاصته إلى تلك المدرسة ويقوم بتبليغ تلك الدعوة «المزعومة » بدلاً منه أو أداء المهمة باِسمه من قبله ، والتي نعتقد بعدم صحتها وذلك للأسباب التالية :

1 – إنَّ المرحوم الحاج محمد الذرب قد لازم بيته بعد ثورة تموز 1958 بقليل ، وحتى فترة اِنتقاله إلى مدينة الحلة في العام 1960 ، والسكن فيها ، نظراً لاِعتقاده إنَّ اِنقلاباً بالقيم والمفاهيم قد حصل ، لذلك كان هذا الاِعتكاف والرحيل .

2 – لم يذكر الدكتور أي حوار قد جرى بينه وبين الحاج محمد الذرب أثناء الدعوة ، ومرافقته لزيارة مرقد النبي ذي الكفل ، وهو المسؤول عن مقام ذي الكفل ، حسب زعم «الشائعات الخجولة».

3 – يقول الدكتور «قادني الرجل بهيبته وقامته المديدة وعباءته السوداء خلال بعض الدرابين»، وفي الحقيقة المعروفة لدى كل أبناء مدينة الكفل الكرام أنه لا توجد أية درابين بين مقام ذي الكفل وبين بيت الحاج محمد الذرب ، خصوصاً وأنَّ المسافة بين البيت والمقام لا تتجاوز الأربعين متراً ويقطع بينهما سوق المدينة الرئيس .

ونتساءل في خاتمة تلك الملاحظات السريعة بالقول / التساؤل التالي :

هـل ما تـقـدَم تُعـدَّ مقومات مقبـلات للزوم الشائعات الرخيصـة يا دكتـور ؟ ! .

ولو اِفترضنا أنَّ هنالك دعوة ، فكيف تجحد قدر الفضل واِهتمام وتواضع من الرجـل الجليل من خلال وصفك له بالاِستناد إلى فبركة شائعات خجولة ، أهذه هـي الأصـول يـا اِبن الأصول ؟ ! . ولا عتبٌ :

فالأصول لا تـُكتسب ، حين يكتب بالاِستناد إلى شائعات خجولة عـن الحـاج محمـد الذي «تلاعب» بأملاك غيره ، إذا الشائعات تتحول على ذمة الدكتور عـدنان السـراراتي إلى «اِتهامات» بخصوص أملاك اليهود وتبعثرها في عُهدة الحاج محمد الذرب ، والذي تفضل لاحقاً وشطبها من نصه السابق بعد أنْ أدت فعلها وعياً في ذهن المتلقي من القرّاء الكرام ، هنا يتبدى جلياً اِتهام آل ذرب بسدانة مرقد النبي ذي الكفل وكأنها مثلبة أو رزيـة معلقـة في أعناقهم تلازمهم إلى يوم الدين .



هذه الغرفة العادية والعالية قليلاً كما يروي الدكتور !

أما قبر ذي الكفل فهو في تلك الغرفة ، كما يرى الكاتب !؟

يا سيدي الدكتور الفاضل : لهذه السدانة خصوصية مميزة ، فهي لم تـُعطَ ولم تـُمنحْ ولم تكن يوماً مصدر رزقٍ ، بل أخذِتْ عنوة من اليهود رداً على أطماعهم في ممتلكات إسلامية ، ونجاحهم : أي اليهود عبر قرارات اللجان العثمانية المساندة لهم ، وهذا الإِنتصار المؤقت لليهود لم يكن ليسجل في موسوعة أرقام جينس العالمية على أنه نقطة في نهاية سطر كفـّت مفاعيله عن الإِنجازات العمرانية أو الإنشائية اللاحقة ، بل كان من المفترض أنْ تتبعه عمليات الهدم والبناء وتنفيذ مشروعهم الإجرامي الهادف لبناء «كنيس يهودي» لجماعة من المتعصبين أيديولوجياً ودينياً ، وإنشاء خانات لسكن المجموعات اليهودية على أنقاض «جامع النخيلة» الذي شـُيد في عهد الإمام علي بن أبي طالب ، الخليفة الراشدي الرابع ، عليه السلام ، وجدده البويهيون ببناء المنارة تكريماً لهذا البناء وتمجيداً للباني .

عندها أقدم المجاهد الحاج ذرب على اِعتقال زعماء اليهود والقيام بإذلالهم وذلك لقطع دابر نزوعهم الشرير والخبيث من خلال الاِستحواذ على معالم إسلامية وأثرية ، وعِبرَ تلك الخطوة العملية الناجمة عن الوعي بالحاضر القائم آنذاك ومن خلال إدراك آفاق المستقبل اِستولى على مقاليد السدانة ، وخيرهم بين أمنهم ووجودهم ، من ناحية ، والكف عن الهدم والبناء ، من ناحية أخرى ، هذا هو سر بقاء المنارة شامخة عصية على الهدم ، وكان هذا البقاء ناجماً وبالتأكيد بجهد واِقتدار السادن الأول الحاج ذرب .

وكما يعرف جميع أبناء هذه المنطقة العربية أنَّ اليهود يسعون جاهدين وبشكل متواصل ودائم للاِستقلال بإدارة شؤونهم الاِجتماعية والدينية القائمة على طقوسهم التقليدية ، وكان لهم ذلك قبل إثارة الفتنة ، ولكن السدانة حالت دون ذلك بشكل بات وحاسم ، وتوُجت تالياً بـ«فرمان» عثماني بعد هذه الأحداث تم وضع حد لأطماع اليهود .

فالسدانة ـ يا سيدي الدكتور ـ هبة من الله ومنّة ، وهي مبعث فخر واِعتزاز لنا ، ولولا ذلك العمل الجبار الذي اِجترحه الحاج ذرب في فترة زمنية عزَّ فيه الوعي التاريخي الشمولي ، وفي مرحلة تاريخية اِتسمت بقلة الوعي وندرة الإدراك حول معرفة غايات اليهود النهائية واِختبار أساليبهم الشيطانية الخبيثة ، لكانت معالم هذا الأثر الإسلامي قد غابت عن الأنظار .

إنَّ الأسماء تبقى شامخة بأفعالها ، فالحاج ذرب الذي نقف عنده ونتنسب إليه من دون التسمي بالاِنتماء القبلي أو الاِنتساب للعشيرة ، يؤشر ـ فيما يؤشر ـ إلى تلك الظاهرة المضيئة في تأسيس الحمائل والألقاب والتجمعات الكبيرة القائمة على أساس أحداث تاريخية ومفصلية ، من تاريخ مدينة وكرامة تستلزم نوع خاص من الرجال العظام.

ننتهي من حكاية سدانة مرقد ذي الكفل والتي أصبحت سُبّة عند الرجل الذي سكنته الشائعات وصيرته الصغائر : كبير قتلته الصغائر فوجب النعي وحان وقت الرثاء ! ! ! .

يشتموننا بحسناتنا ، قالها مدوية الشاعر الكبير السيد شاكر السماوي عندما نشب خلاف بينه وبين أحد الأحزاب العراقية في دمشق ، وفي هذا الإيحاء الذي يستولده المعنى الشعري لإبداع السيد الشاعر شاكر ما يكفي من المعاني التي تنطوي عليه الحسجة العراقية الجميلة ، وفي أية حال جاء في الأثر التراثي الطيب ما يلي :

«وقد كانوا يقولون : إذا أردت أنْ ترى العيوب جمة ، فتأمل عيّاباً فإنه يعيب الناس بفضل ما فيه من العيب . ومن أعيب العيب أنْ تعيب ما ليس بعيب» .

وعودٌ على بدء ، لتناول صُلب الموضوع المثار في السجال ، يقول الدكتور «لقد أخطأ كاتب مقالة صحيفة المؤتمر» حين قال «لم يدر بخلد الملك البابلي نبوخذ نصر أنَّ مع المسبيين سيأتيه الوحي بعد بضعة سنوات من السبي . . . إلخ» ، ثم يقول «وذو الكفل هو النبي حزقيال . . .» ، لو رجع هذا الكاتب الأكاديمي الحريص على إيراد المعلومات اليقينية إلى الكتاب المسمى بالعهد القديم ، وفي القسم الذي تناول موضوع «سِفر دانيال» ، وقرأه جيداً لثبتت له أمور أخرى ، فلقد كان دانيال وهو من بني يهوذا المتنبئين وعرّاف الملك البابلي ومفسِّر رؤاه التي عجز «كل الملوك والسحرَّة والعرافون والكلدانيون» عن تفسيرها ، فيما يأتي الدكتور على ذكر بهلوانيات دانيال الذي لم تتعرض له الأسود عندما طرحه الملك المادي داريوس في مفاضلة تنطوي على مغالطة مكشوفة بين دانيال وحسقيل ، ومقارنة غير موفقة في ظل وقائع عنيدة أكدت أنَّ عزرا ودانيال ونحميا هم صدى لأفكار حسقيل المتعصبة لكنها كُتبت بشكلها التوراتي الجديد والتي تشكلت صياغتها بروحية المعلم الأول للنهج اليهودي الجديد : حسقيل .

أما بخصوص النصيحة الثمينة حول ضرورة قراءة سِفر دانيال قراءة جيدة التي تقدم بها الدكتور مشكوراً فإنني أقول له أنَّ الإعتماد على قراءة يهودية أو أيديولوجية للأحداث ، ومن مصدر فريد وواحد ، لا تغني وجهة نظر القاريء الباحث والمواطن العربي المخلص في أي مجال هادف ، وستبقى مجرد بهلوانيات لا يتبين معها ساقي تتكرر التوراة بدءاً من قصة يوسف إلى الروايات المكتوبة عن نحميا ، بل نزيد القول عن ذات الموضوع ولكن بشمولٍ أكبر أنَّ رواية التوراة لا يثق بها أهل العلم متى خرجت عن المعقول عند أي إنسان يتفكر ويتدبر ويتبصر .

يقول الأستاذ عجاج نويهض في كتابه المعنون بـ«بروتوكلات حكماء صهيون» وهو من الباحثين الجادين في شؤون التطورات العالمية والمفكرين المتدبرين في الرؤية التاريخية ، وعلى الصفحة 376 من كتابه ذي الأربعة أجزاء {الجزء الثاني} ما نصه أنَّ «حزقيال هو منظم الجالية اليهودية في السبي ، المهيء للجيل الجديد للعودة إلى أورشليم وسنرى كيف أنَّ الخيوط اليهودية التي غزلها هو وأنداده من الأنبياء في أثناء السبي أثمرت التلمود» ، مثلما يؤكد على ذلك التصور السيد مير بصري في بحثٍ له حول تاريخ يهود العراق في القرن العشرين من خلال قوله : « وفي سنة 586 [ق . م] سقطت مملكة يهوذا أمام جيوش نبوخذ نصر وأجليَّ اليهود إلى بابل وظهر النبي حزقيال المعروف بذي الكفل بجوار نهر الفرات فشد عزم قومه المنفيين ، ولا يزال ضريحه في قرية الكفل من أعمال الحلة مزاراً لليهود والمسلمين على السواء» .

وفي مسألة أخرى يتطرق الدكتور إلى مسائل لغوية بحتة في حضرة المفاهيم التاريخية ومعانيها الأساسية ، وليعرف الكهانة بقوله «والكاهن هو المتكهن [من الكهانة] والكهانة ليست كالنبوة» ، وهذا التعريف للكهانة في الزمن المقصود والحالة المحددة وفي سياق الموضوع المثار للنقاش تعريفٌ مبتور وقاصر ومجتزأ أيضاً يعمل على تضليل الباحث الجاد والقاريء الجيد لمعاني التاريخ ودلائله ، إذ أنَّ الكهانة كانت في ذلك الوقت تقتصر على ممارسة اللاويين قبل حزقيال فقط ، والذي إقتصرها على الصدوقيين فحسب ، إذ يقول الأستاذ يوسف رزق الله غنيمة في كتابه المعنون بـ «نزهة العشاق في تاريخ يهود العراق» ، وعلى الصفحة 107 ما نصه : «فإنَّ حزقيال في بيئته الجديدة والغريبة أتاه الوحي وكتب في القسم الثالث من كتابه منهجاً لشعب إسرائيل الجديد تضاءلت أمامه مناهج سِفر الإشتراع . وقد لاحظ دارسو التوراة في هذه السنين الأخيرة أنَّ سِفر الإشتراع يلزم كل لاوٍ بأنْ يكون كاهناً أما حزقيال الكاهن فقد خالف تواً نص سِفر الإشتراع ، وإكتفى بالصدوقيين فقط من اللاويين أنْ يكونوا كهنة».

وقد أكد على تلك المعلومة الكاتب موريس بوكاي في كتابه المعنون بـ«دراسة الكتب المقدسة» وفي الصفحة 44 من خلال قوله أو إستخلاصه «إنَّ رواية الخـَلق المدروسة هنا تأتي من النص الذي يسمى بـالكهنوتي كتبه الكهنة أو الكتبة وهم الوريثون الروحيون لحزقيال نبي النفى ببابل في القرن السادس قبل الميلاد» ، وهكذا نخلص على ضوء تلك المعطيات التاريخية إلى أنَّ الدكتور الظاهر عالج قضايا تاريخية ومفاهيم محددة تكونت في بيئتها معالجة اِتسمت بالتسرع والاِرتجال في أمور تاريخية هامة تتطلب الدقة العلمية والدعم الذي يشكل دليلاً على صوابها والإسناد المستمد من المراجع المتخصصة في ميدانها ، بغية إغناء البحث التاريخي بالمفيد من الإستخلاصات الموجهة للقارئ الكريم المهتم أو العابر ، ويضيف إليه على صعيد ترسيخ المفاهيم الحقيقية في وعيه .

وفي مسألة تاريخية أخرى ، ولكنها تتعلق في الوقائع الجغرافية في هذه المرة ، يستمر الدكتور الظاهر في بعثرته للوقائع التاريخية والمواقع الجغرافية محاولاً تصوير نفسه بأنه المرجعية الوحيدة للتاريخ الذي عاشته المنطقة في الماضي ، لذا فهو يقول في تساؤل اِستنكاري غاضب ولكنه قاطع «ما علاقة نهر الخابور ببابل ؟ الخابور في شمال العراق وبابل الكلدانية في وسطه» ، وإذا غضضنا النظر عن تسمية فرع نهر الفرات الذي يقطع الأراضي السورية بالخابور وليس له علاقة بشمال العراق الراهن والمسمى بكردستان العراق . . . إذا غضضنا النظر عن كل ذلك ، وذهبنا إلى النص الذي أورده سِفر حزقيال الذي أورد فيه هذه التسمية : الخابور عندما قال : «فجئت عند المسبيين الساكنين عند نهر الخابور» إذ جاء هذا التعبير هنا والذي أثار موضوع النقاش بين الدكتور الذي أطلق سؤاله المستنكر ، من جهة ، والكاتب في صحيفة المؤتمر / الجلبية ، بمثابة اِتهام للخصم بعدم الدقة وقلة الاِنتباه ، فيما تقول المعلومات المتوفرة أشياء أخرى ، وهو الأمر الذي يستحق معه النقاش وتسليط الأضواء على هذا التعبير وأصوله الجغرافية والتاريخية .

جاءت كلمة «خابورَ» بفتح الراء {فيما جاءت في نصٍ آخر كلمة خابورة} في سياق الإشارة إلى نهير يعد فرعاً من فروع نهر الفرات العظيم والواسع ، وبهذا الصدد يقول السيد يوسف رزق الله غنيمة في كتاب نزهة العشاق في تاريخ يهود العراق ،

وعلى الصفحة الثالثة والخمسين على وجه التحديد ، إنّ «نهر حزقيال» أي الذي ذكره حزقيال ، «هو كبار من أنهار بابل ، وقد جاء في كتاب الزبور ، ص 137 : على أنهار بابل هناك جلسنا . وأول مَنْ أشار إلي ذلك العلامة نلدكة وأيد بحثه هلبرخت ، إذ عثر مرتين على ذكر «ثاروكبارو» في الرُقم الطينية وعلى ضفته دُفن حزقيال» !.

والخطأ الآخر الذي وقع فيه الدكتور عدنان في هذه المرة ، رغم أنه خطأ أكثر فداحة وأكبر من السابق ، هو تساؤله المشوب بالمرارة عن أرقام الأسرى وعددهم ، من دون أن ينتبه لرحلة الصراع بين العراقيين واليهود في التاريخ القديم ، يقول الدكتور الظاهر في ذلك التساؤل :«من أين جاء بنيامين الأندلسي هذا بالرقم 25000 يهودي الذين شيدوا مدفن حزقيال . . . وسبي كل أورشليم وكل الرؤساء وجميع جبابرة اليأس عشرة آلاف مسبي وجميع الصنّاع والأقيان» ؟ ! ، وليس دفاعاً عن رؤية بنيامين الأندلسي والأخبار التي نقلها ، فالكل يعرف المعلومات التاريخية المتوفرة عن المنطقة الجغرافية الممتدة بين فلسطين والعراق قد تعرضت لعمليات الغزو العسكري العديدة إنْ صح القول ، أكثر من تسع مرات جرى وصف بعضها بدقة ، كان السبي الأول قد حدث في سنة 721 [ق . م] ، وهي ناجمة عن الحملة العسكرية المعروفة بحملة شلمناصر على هوشع ملك اليهود وأجلى الجيش البابلي إلى بلاده 27800 يهودياً . وفي سنة 702 [ق . م] حمل الملك سنحاريب على مملكة يهوذا واستولى على ست وأربعين مدينة يهودية وأسر من سكانها 200150 يهودياً . وإستاق سرجون ، كما تقول {موسوعة تاريخ العالم} 27290 يهودياً إلى العراق القديم . وفي العام 672 [ق . م] وإبان مرحلة حكم أسرحدون أقدم الجيش البابليين على أسر الملك اليهودي منسي وأرسلوه إلى بابل مكبلاً بالقيود ولم تذكر المصادر التاريخية أعداد الأسرى الذين جلبوا معه مخفورين .

أما في عصر الجبار ملك الملوك نبوخذ نصر ـ وهذا الوصف الذي دأبت بعض المصادر القديمة على نعتها به ـ فقد تكررت عمليات الأسر أربع مرات ، وكان السبي الأول منها قد جرى سنة 606 [ق . م] ، والسبي الثاني قد نُفِّذ في عام 597 [ق . م] ، والسبي الثالث كان تاريخه في عام 586 [ق . م] ، والسبي الرابع قد جرى في عام 581 [ق . م] ، إذاً حريٌ بالدكتور الظاهر أنْ يعترض على عدد اليهود الذين عادوا مع زربايل إلى أورشليم الذي يشكل ضعف العدد الذي اِعترض عليه الدكتور ، في العام 536 [ق . م] عاد زربايل إلى أورشليم ومعه {42360} يهودياً و{7337} خادماً و{200} من المغنين . . . إلخ ، وإذا كانت هذه الأعداد من الأسرى لا تثني من عزم الدكتور علينا من الذهاب إلى هذا الإقتباس ، فسوف نلجأ بالضرورة إلى سِفر الأستاذ يوسف رزق غنيمة في الكتاب المشار إليه فيما سلف من صفحات ونقتطف منه هذه الباقة الجميلة من المعلومات لتسليط الأضواء على ما نريد تثبيته هنا ، إذ ورد في الصفحة ثمانٍ وثمانين من ذلك الكتاب النص التالي :

«وصلت قوافل الأسرى بابل فشاهد اليهود من أبناء جلدتهم جالية ضخمة من أعقاب أسرى شلمناصر وسنحاريب وأسرحدون » . . . .

لكل ما تقدم من معلومات ذكرَها المؤرخون وما بني عليها من اِستنتاجات فإنَّ ما هو مطلوب من الدكتور تفسير القول الذي ذهب إليه عندما تطرق إلى بنيامين الأندلسي حينما قال « والمفروض في بنيامين الأندلسي أنْ يفهم التوراة أفضل مني» بغية اِكتشافه مدى التسرع الذي أصابه من جراء العدد الكبير الذي ذكره الأندلسي ؟ ! ! ! ، وأترك التعليق للقاريء النبيه الكريم كي يكتشف الفروقات بين الرأيين ، ويصدر حكمه المقنع .

والآن نتطرق إلى بيت القصيد لكي نحدد التخوم بين الرؤيتين والأسباب الحقيقية للاِختلاف بيننا ، فالدكتور الظاهر يقول أنَّه : «لم يرد في التوراة أي ذكر لنبي باِسم ذي الكفل أبداً» ، إنَّ الدكتور في هذه الفكرة التي يعتقد أنها من إبداعاته والتي ستعتبر خاتمة القول عن ماهية الحقيقة ، يعد في الحقيقة كالذاهب إلى «مدينة شثاثة ليطلب منها العافية» ، كما يذهب إلى ذلك المثَل المتداول عند العراقيين عندما يحاولون تشبيه الاِستحالة في الأمور من خلال ضرب ذلك المثل ،

فكيف يُذكر اِسم ذي الكفل في التوراة وهو نبي عربي إسماعيلي ومفاهيم الدين الإسلامي معينه الأساسي ، وأرومته تنتسب لشعوب من طسم وعماليق وأميم وجاسم وثمود وجديس ، وهم يشكلون أقواماً عربية يتكلمون باللسان المضري وبينهم قوم إسماعيل ولهم رسُل وأنبياء ، لاسيما وأنَّ الدين الإسلامي دينٌ منفتح على ثقافة ومفاهيم عدة أديان من حيث مفهوم التوحيد الإلهي في مسيرة التراث البشري .

ومعلوم أنَّ الخلاف قد تجسد كما هو معروف بين سارة وهاجر ، واِنعكس ذلك الخلاف بين إسماعيل وإسحاق في عملية سلب البكورة ، وهو في أية حال معلومة أولية عند قرّاء التراث ، فكيف يتساءل الباحث عن عدم وجود لأي اِسم لذي الكفل في التوراة ، قلتُ ذلك للدكتور عدنان تلفونياً: «أنت يا دكتور كالذاهب إلى بلاد الصين كي ينقب عن آثار بابلية» ، طبعاً قبلها بلغةٍ وشيتها بعتبٍ واِعتراض على جعله الشائعات الخجولة معياراً لإصدار أحكامه ، خاصة وأني تساءلت في سياقها : هل من الجائز أكاديمياً وعلمياً اللجوء إلى الشائعات كونها اِستشهادات ترقى إلى المعلومة ؟ وكذلك أثرت موضوع الغرفة العالية قليلاً ، وهي بعلو ثمانية طوابق ، ومسألة الدكة المجصصة والخراب الذي لم يحصل ، أجابني الدكتور على تلك النقاط المثارة في تلك المكالمة الهاتفية بالقول المتسائل :

لماذا لا تكتب ؟ .

أجبته نعم بدأت الكتابة وشجعني على ذلك ، وكان لموضوع دولته العبرية النصيب الأكبر في الخلاف !.

ولكن الدكتور عدنان يبدو أنه قد ندم على دعوته لي بالكتابة ، من دون إشرافه المباشر وتحكمه في رؤية وآراء البعض ، كما اِعتاد عليه كما يبدو ، فاِتصل بي ليلة اليوم نفسه ، ليقترح عليَّ ، أو بالأحرى ليفترض في نفسه هيبة مزعومة تستطيع إجبار أي واحد على الاِستجابة لتعليماته ، من خلال القول : أنت تكتب فيما يخص الموضوع ، ثم أرسل ما تكتبه لي ، وأنا سوف أكتب بذات الموضوع ، وننشر سوية ما نكتبه ، وألغي بذلك المادة القديمة من جهاز الحاسوب : أي ألغي المادة المنشورة سابقاً من الإنترنيت ،

أجبته على الفور وفي تلك المكالمة : والله يا دكتور خلصتني من إحراج كبير ، وإنتهت المكالمة الهاتفية على ذلك الإتفاق ، في اليوم التالي سألت : أهل الذكر الذين يعلمون شجون وشؤون علم الحاسوب ومكوناته الصناعية عن الإمكانية المحتملة حول رفع مادة منشورة من شريط الإنترنيت بعد مرور عدة سنوات على نشرها ؟.

وكان الجواب على تساؤلي ذاك سلبياً ، فإتصلت بالدكتور عدنان بعد عشرة أيام تقريباً وأخبرته بأنَّ الرد على رأيه ورؤيته سيكون تفصيلياً ومنفصلاً أيضاً ، وبالتالي من حقه الرد على كتابتي . . .

ولكن الدكتور الظاهر صال وجال منفعلاً كما هي كتابته «النقدية» لاحقاً ، وأطلق وابلاً من التهديدات المصحوبة بـ«الرعد» و«الزبد» ، عند تلك اللحظة إكتشفتُ حقيقة المفكِّر ، عندها أدركت طبيعته المذعورة وكم هو صغير ووجل ، ودفعني للتساؤل عن مِمَنْ يخشى هذا «الطنطل الموهوم» المخدوع بقدراته والمغرور بإمكاناته ؟. . .ألم يكن مسؤولاً عما يكتب ويستخلص من إستنتاجات . عند العودة إلى بحثه التاريخي الديني فنكتشف فيه درجات المطلق التي يتمتع بها ، إذ هو يقول «لقد أخطأ كاتب صحيفة المؤتمر» وفي مكان آخر من «بحثه» يأتي قوله «والمفروض في بنيامين الأندلسي أنْ يفهم توراته أفضل مني» وفي محل ثالث من بحثه يزعم أن إبن بطوطة «أخطأ الرحالة الشهير إبن بطوطة ثلاث مرات ، الخطأ الأول في تسمية برس بكسر حرفي الباء والراء ، فقد أسماه الرحالة الشهير «برص» . . . إلخ .

وعسى أنْ يعلم الدكتور بقليل من الإدراك حول مجمل الإحتمالات والنباهة الجديرة بأي «مفكِّر» أن يفترض بأي نصٍ مطبوع إحتمال ورود الخطأ المطبعي ، وبالتالي أنْ يعزو الخطأ الوارد بإسم «برص» في كتاب الرحالة الشهير إلى مشاكل الطباعة التي غالباً ما ينفذها عمال بسطاء من غير المتخصصين لغوياً أو مَنْ غير ذوي الباع الثقافي الطويل ، خاصة وأنَّ كتاب ذلك الرحالة الشهير قد طُبع منذ كتابته الأولى عشرات المرات ـ إنْ لم تكن المئات ـ في مطابع مراكش وطرابلس والقاهرة وبيروت ، لذا فإنَّ إمكانية ورود الخطأ وارد لاسيما وأنَّ المؤلف قد رحل عن الحياة الأمر الذي حرمه من مبادرة تصحيح كتابه . إنَّ الرجل المبدع إبن بطوطة قد نقل مشاهداته الناجمة عن رحلاته المديدة بأمانة رسمت معالمها وحددت محتواها القيمُ الإسلامية التي كان ملتزماً فيها على كل الصعد ، ولم يكن ـ في أية حال ـ واسع الذمة كغيره من الناس الذي لم تلزمهم أية معايير أخلاقية وأدبية ومعنوية نشأت في حومة الإسلام .

لقد سأل أحدهم الإمام سفيان الثوري : «ما هو رأيكم بالأحاديث المروية عن أبي هريرة» ، فأجاب الفقيه الكبير والإمام العظيم سفيان الثوري : «لا تأخذ عنه إلا ما يخص الصلاة والصوم». وأخيراً أقول لمن يستمع للقول فيتبع أحسنه : يا دكتورنا العزيز ، الكلام المنمق والجميل والقدرات الفنية العالية نوقظها لكي تفيد القاريء والمستمع ، لا أن يجري إيقاظها من أجل التصيد للأخطاء الصغيرة وغير المقصودة {برص مثلاً} ، والتوسل بالشائعات الخجولة لجعلها معياراً للتقويم واختلاق الخراب الذي لم يحصل . . . وختاماً أسألك بالله الذي ربما أنك لا تعتقد بوجوده : هل أنت عرفتَ محتوى كتاب التوراة فعلاً أفضل من المفكر اليهودي بنيامين الأندلسي ؟ ، أم أنَّ أباطرة الكلام المتربعين على عروش وهمية وحدهم يمتلكون الحقيقة ؟ !.

ولا تفوتني قبل مغادرة هذه الجولة من النقاش ذي الكلمة المرهفة والقول المؤدب . . . لا تفوتني الإشارة إلى «مكرمة» الدكتور عدنان و«هديته المجزية» إلى الشعب الفلسطيني المجاهد من خلال قوله البات الحاسم الذي ينطوي على دلالات كبيرة وكثيرة حين يقول :«إذاً قد آل مصير الكفل إلى خراب بعد هجرة اليهود العراقيين إلى دولتهم العبرية» . . . نعم إلى دولتـ«هم» العبرية ، أي أنّ الفلسطينيين هم مَنْ غزو فلسطين ودمروا الدولة العبرية وهجروا سكانها ، وما عملية رجوع اليهود إلى فلسطين لم تكن سوى الإستحقاق المنتظر على يد اليهود العراقيين وأشقائهم في العالم بالرغم من المكان والزمان التاريخيين وليس الميتافيزيقيين ، وعليه لابد من رمي الوثائق التاريخية التي تحدثت عن المشروع الصهيوني واقترانه بالصعود الإمبريالي العالمي والتطور الرأسمالي وطرق التواصل الجغرافي لحماية القواعد العسكرية : قناة السويس ، مثلاً ، بصدد ذلك الموضوع إلى سلة المهملات ، وليغادر وزير الخارجية البريطاني بلفور التاريخَ الحي والمعاش والمؤثر في حياة العرب كلهم إلى مستقر الجحيم ، وليشطب من الوقائع التاريخية «وعده بوطن لليهود» الذي ترتبت عليه أمور عملية واسعة وفظيعة ما زال أبناء الوطن العربي يعانون منها ، ولا عتب على النقاد السياسين ووجهات النظر عند الأدباء والكتاب السياسيين الغربيين أو مَنْ حذا حذوهم واقتفى أثرهم و«ترجم إستخلاصاتهم إلى اللغة العربية» ، طالما يلوكون أقوالهم ومعزوفاتهم الفكرية ، فالحركة الصهيونية العالمية وفق هذا الفهم والاقتناع كانت وما تزال «تناضل» من أجل ترسيخ هذا المفهوم أو المصطلح : أي الدولة العبرية .

في أية حال ينبغي علينا إيراد ما يلي من اِستخلاص تاريخي محدد والذي ورد في دراسة للسيد الدكتور فايز رشيد المعنونة : «وصف إسرائيل بـ«العبرية» اعتراف ضمني بـ«يهوديتها» نشرها في إحدى الصحف الأردنية حيث يقول لقد «تمسك الباحثون والمؤرخون اليهود وما زالوا بالنظرية القائلة : أن العبرية بمعنى اليهودية ، والتي أطلقوا عليها اسم (العبرانية التوراتية) هي أقدم لغة سامية معروفة ، متجاهلين وجود الكنعانية القديمة ، محاولين الربط القسري بين العبرية والتاريخ اليهودي واليهود . لقد قاتلت اليهودية مريراً على صعيد المصطلحات وأبرزها مصطلح (العبرية) باعتبارها الاحتمال الوحيد لإيجاد الرابطة (المفقودة أصلاً) بين اليهود وعمقت من شعار آحاد هاعام (آخر يهودي وأول عبري) ، وأكدت على مقولة مناحيم ريبالو (لم تكن العبرية لغة الماضي فحسب ، بل لغة المستقبل ، لغة البعث ، التي تمكن اليهود من البقاء كشعب واحد) ، ويورد الكاتبان الراحلان : غسان كنفاني وجودت السعد في دراستيهما عن الأدب الصهيوني ، الحرص الأدبي الإسرائيلي على استعمال مصطلح(العبرية)للدلالة على وجود (الثقافة اليهودية الواحدة). لذلك ، حرصت الحركة الصهيونية منذ نشأتها على محاولة إيجاد القواسم المشتركة لليهود ، بمحاولة ربط اللغة العبرية بالأهداف السياسية والقومية التي طرحتها ، وفي مقالة سابقة كتبنا أيضاً عن الربط بين (العبرية) كمدخل إلى (اليهودية) من قبل قادة وحاخامات دولة إسرائيل ، وباعتبار أنَّ المصطلح الأول قد استنفد أغراضه ، لذلك في المستقبل يتوجب التركيز على (يهودية) دولة إسرائيل ، ولذلك تصر أطراف الائتلاف السياسي اليميني المتطرف ، الفاشي على ضرورة أن يعترف الفلسطينيون والعرب بـ(يهودية) دولة إسرائيل».

خلاصة القول أنني أجزم وبشهادة كل مَنْ رأى وشاهد مقام النبي ذي الكفل ، أنَّ الدكتور السراراتي لم يزْر أو يشاهد المرقد على الإطلاق وذلك بالإِستناد إلى اِدعاءاته {مشاهداته وفق تعبيره} ، إذ لم تكن في حقيقة الأمر أية زيارة أو دعوة ولا خراب ولا دكة مجصصة ، وأما الغرفة العادية العالية قليلاً ، فالدكتور لم يعرف أنَّ هذه الغرفة هي القبة المخروطة التي تعلو 22 متراً وتداني المنارة في علوها . هذه المشاهدات والشائعات ما هي إلا فبركة مفضوحة من الدكتور وذلك للربط بين مزامير يكتور ودولة اليهود العبرية ، والسؤال هنا بحق :

مَنْ هو كبير المفترين ؟ ومَنْ هو الذي أهواؤه مشكوكٌ فيها ، يا دكتورنا العزيز ؟ وأترك الحكم والتعليق للسادة القراء .

وبهذه المناسبة يدق على جدران ذهني «القوماني» ويدفع ذاكرتي العراقية العربية بشدة للتفجر نحو ضفاف الذكريات الغامرة لقول شاعرنا الكبير السيد شاكر السماوي عندما خاطب أحدهم بكلمات ذات مغزى بيِّنْ وواضح ، في ذات يوم من الأيام الخوالي «كفيت وياك العتب من اِعرفتْ هرشك خس . . .» ، الأمر الذي يجعلني أقرر إنهاء أي نقاش بصدد قضايا تاريخية حيّة أو إجراء أي حوار معه ، كنت آمل منه الاِستفادة المعرفية وتمتين قناعاتي الفكرية وإثراء معارفي من خلال الاِستئناس بالحديث المكتوب مع الدكتور الظاهر ، كونه : ومع شديد الأسف يعتمد المخاتلة والتدليس والشائعات ، متسائلاً عن أسلوبه في التعاطي مع الآخرين ، وذلك في نهاية المطاف ، وأقول له هامساً في أذنه : لا تجعل حملة شهادات سوق إمريدي يشمتون فيك ، ولا تجعل رواد مقهى السنِّية «يطمعون بمكانتك» ، مثلما لا تجعل ربات الحجال تغار منك .

هوامش
على ردٍ ركيك ومتدنٍ

في مقالة مركزة كتبها الدكتور عدنان الظاهر يوم 21/ 7/ 2009 ، ومعنونة «رد على رد السيد عامر الذرب» نشرها في موقع «كتابات» المحترم ، أراد الدكتور أنْ يعبِّر فيها عن وجهة نظره ، رأينا التعقيب عليها بالسطور التالية :

لقد تعلق الدكتور الظاهر ((السريراتي)) بأساطيره الذرية وأوهامه الكارثية في اِنقلاب معرفي على الذات ، واِنتقلت قواه التدميرية من مختبره إلى قلمه في حياكة الظنون والشبهات ، واِنبرى في الخروج عن وقاره بسيلٍ جديد من السُباب والشتائم الخارجة عن اللياقة وأدب الحوار ، وأعتقد أنه تمكن بهذا الأسلوبً من جعل الحوار شتيمة مقززة مما يدفعنا للرد عليها ، على أنه من الواضح لكل ذي عينين أنه يستعين بهذا الأسلوب الرخيص ، للتملص والهروب من نصوص وأفكار قال بها في كتاباته ، واِعترضنا عليها . وهذه الشتائم تصدر عن تربوي فاضل عمل في دوائرها الرسمية منذ أواخر خمسينات القرن الماضي ، ويلقب نفسه بالبروفيسور والأديب حالياً ، ولكنْ والأكثر غرابة من كل ذلك ، أنَّ الدكتور الفاضل في العقد الثامن من العمر أطال الله في عمره ، فهل لنا من حاجة أنْ نذكّر الدكتور أنَّ مَنْ يخرج عن الوقار لا وقار له ، وعليه ينبغي علينا الإيضاح بأنَّ هذا الرد على الدكتور الفاضل سيكون موجزاً حول طبيعة أسلوبه ، ولا نعفيه عن الرد بطريقته وأسلوبه يقتضيه طبيعة الرد على التحامل .

أولاً : قال الدكتور «إنَّ اِسمي موجود في سجلات المدرسة» ، قلنا له إنَّ اِسمك في القلوب وليس في السجلات ، ولم نحصل منه على ذلك التقدير غير الشتيمة ، لقد أنصفناه ولكنه تجبر ، واِحترمناه فتكبر ، وعاتبناه على شائعاته الخبيثة ومشاهداته الملفقة ، وذلك ديدن الصغير ، ولكننا لم نتلقَ منه ، وللمرة الثانية ، غير الشتائم الملونة وكأنه القدر . . . القدر الذي لا يمكن الرد عليه ، وهنا قلنا له يا دكتور : ماذا تركت لأصحاب شهادات مريدي« وذلك في اِعتراض منا على الأسلوب الهابط والمتدني ، ومع ذلك فهمها الدكتور على أنها مقارنة بين الجامعة التي درس فيها ، من ناحية ، وسوق مريدي الذي يبيع فيها البعض «الشهادات العلمية» على كل مَنْ هبَّ ودب ، من ناحية أخرى ، إنَّ ما هو جدير بالتفكير هي الظاهرة التالية التي أفرزهاً الأسلوب والصيغ «الأدبية» التي أفاض بها فم وقلم«البروفيسور الأديب» والتي نقول عنها أنَّ هناك مَنْ يحمل الشهادات العلمية العالية أو الأدبية المميزة ، ويعلو بها في نظر أبناء المجتمع لما تسبغ عليه من الرفعة والوقار . وهنالك مَنْ تحمله الشهادات العالية حتى يهبط إلى مستنقع الاِبتذال السفيه ، وإليكم هذه العينة من ما أفرزته ذهنية هذا الدكتور الأديب : «مهما لوص» وغيرها من المفردات اللغوية للأديب التي تعد من بين العلامات الدالة على طبيعة الضحالة الذي اِختار مكانته من خلال ألفاظه وخياراته التعبيرية بالذات .

ملاحظة نسجلها تالياً ، وبمناسبة صدور الطبعة الحالية من الكتاب :

قبل أن أذهب إلى المدرسة المعنية توجهت إلى الطلاب الذين صادف وأنْ درسّهم السيد عدنان السريراتي في مادة الكيمياء ، فأكدوا أنه لم يكن المدير في أي فترة زمنية معينة ، وذهبت إلى المدرسة واِطلعت على السجلات التي يدعّي أنها توثق مركزه الإداري في المتوسطة ، فوجدت إدعاءه عاريًا من الصحة تماماً ، وقد كان السيد عبد الرزاق منسي الذرب هو مدير المدرسة المتوسطة بالوكالة في تلك المرحلة . ومبارك للأمانة العلمية في نقل المعلومات من قبل البروفيسور الكبير .

ثانياً : أما قنبلة «هيروشيما» التي إستهوته وتفضل بالرد عليها بإستفاضة وكأنه وجدها : على طريقة العالِم «أرخميدس» ، نعم وجدها الدكتور وهذا الموضوع أثـيَرَ بيني وبين الدكتور هاتفياً ، وهو يبحث عن إسم ذي الكفل في التوراة ، قلت له ما نصُّه ، يا دكتور أنك كمن يذهب إلى الصين لكي يبحث عن آثار بابلية ، قال كيف ؟ قلت له: إنّ ذا الكفل نبي إسماعيلي عربي لا يمكن أنْ تجده في التوراة ، وهذه التسمية «ذي الكفل» إستعارة يهودية في فترة لاحقة من الفتح الإسلامي استعملت لمقتضيات أمنية ، وهذه دراسة كمشروع بحث ودراسة لي لم تكتمل بعدُ ، وليعلم القاريء الكريم ، كيف أنَّ الدكتور المتعالي عن الرد يتصيد في الأخطاء البسيطة ليجعل منها هيروشيما . وفي المقابل وضمن مقاله الأول المعنون : ذو الكفل نبي أم ولي صالح« وقع الدكتور عدنان في خطأ فادح حيث نصحَ كاتب مقال المتحاور معه»: فلتقرأ العهد الجديد جيداً ، وسألتُ الدكتور : يا دكتور ، ما علاقة العهد الجديد بدراسة عن ذي الكفل ، أجاب الدكتور الفاضل : هل أنا كتبت ذلك ؟ ! متعجباً ، وعندما تعرضت إلى مقالته بالنقد لم أشر لهذا الخطأ مطلقاً .

ثالثاً : في عملية تحريض ساذجة يتكلم الدكتور عن الأرومة وذلك لأني كتبت السرياني ـ والسريراتي هم أهلنا من العوائل الفاضلة في الحلة نكنُّ لها كل الإحترام ـ كما نعرفه وفي بدعة فيزيائية جديدة يخرج بها الدكتور بأنَّ أرومة الحلة أفضل من أرومة الأقضية والقصبات التابعة لها بحكم التبعية الإدارية ، وبهذا المعنى فإنَّ أرومة بغداد أفضل من الجميع لأنها العاصمة . يا سيدي الكريم أنَّ من أفضال ثورة 14 تموز سنة 1958 أنْ خف وتلاشى التنابز العرقي بالأرومات ، وإنْ عادت اليوم الأرومات فهي مشوهة ومشوشة بغير أهلها وغير ناسها ، ثم ما أنت والأرومة ؟ وهل هذا الهروب الغبي يشكل لك ملاذاً آمناً ؟ .

رابعا : يلاحظ القارئ الكريم : أنا أرد على الدكتور بنصوص من خلال كتاباته الشخصية ، وبالضرورة أنْ يكون مسؤولاً عنها : «كالشائعات الخجولة والخراب والدكة المجصصة وأخيراً دولة اليهود العبرية» ، ولكن الدكتور الأديب يرد عليَّ بشائعاته وشتائمه وإتهاماته ، وأخيراً يبرز شهاداته التي يتمترس بها والتي لا تقيه حتى من النزول لهذا الدرك والإسفاف ، وتخلي صاحبنا تماماً عن الكياسة المفترضة بحملة شهادة الدكتوراه ورفعة الأديب .

خامسا : في عنوان فرعي عنونه : «عامر وابن بطوطة» يصرُّ الدكتور على أنَّ الرحالة الكبير قد أخطأ مرتين . يا سيدي الدكتور : الخطأ غير التشويه والخراب الذي لم يحصل ودكتكم المجصصة التي دخلت معْلماً جديداً من معالم الدكتور الظاهر ، فإذا أخطأ اِبن بطوطة ، هل نقول إنَّ : اِبن بشوشة الجديد والمعاصر قد أصاب عندما أمعن في إيراد الأوهام والفبركات وروج لأكاذيب الخراب ، ولغايات مشبوهة حتماً .

سادسا : أما قوله : يا صغيراً في آل ذرب ، لا يشنأني هذا القول ، نعم أنا صغيرهم وخادمهم ، ولي الفخر ، والسؤال الموجه لكل أريب : ما قوله في مَنْ غير لقبه وبدله بلا خجل ولا وجل ؟ !.

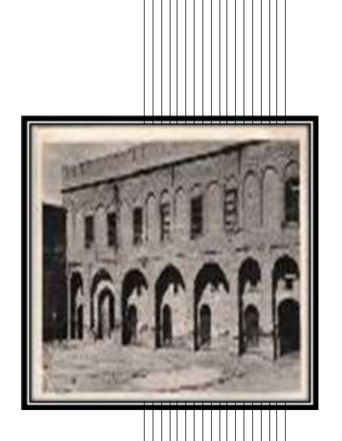
سابعاً : يقول الدكتور السريراتي « لم نكن يوماً ، أنا وعائلتي سدنة مرقد ذي الكفل » ، أقول للدكتور أنت خيرَ مَنْ يعرف ، هذا شرف وتاريخ مثلكَ لا يدانيه .

ثامناً : يقول الدكتور الظاهر «إنَّ شخصاً مثلك ليس من الوزن لتثمين وتقويم شخصاً مثلي . . . إلخ » ، عن أي وزن يتكلم دكتور البذاءة والشائعات الرخيصة خصوصاً بعد جملة «دولة اليهود العبرية» . . . إنه كالعادة يحاول الهروب والزوغان ، فهو يهرب عندما يتكلم عن خراب الكفل بعد ذهاب اليهود إلى دولتهم ، إنَّ هذا النص يعبِّر عن ذهنية مؤمنة بثقافة غير عربية وغير إسلامية ، سواء أكانت عبرية أو يهودية ، لذا نراه يقول هروباً : «نشرتُ مقالي حول ذي الكفل عام 2000 وهذا التعبير ليس من اِختراعي» ، والدكتور يقصد العبرية ، وهو منْفَذ للهروب كما قلنا . أكرر النص الخاص بالدكتور حرفياً «إذن قد آل مصير الكفل إلى خراب بعد هجرة اليهود العراقيين إلى دولتهم العبرية» ، وهذا إقرار بأنَّ فلسطين دولة اليهود : أي دولة اليهودي البولوني واليهودي الحبشي واليهودي الخزري واليهودي العراقي .

ماذا يـُفهم من هذا النص الواضح ؟ أوجه سؤالي لأهلنا في الحلة الفيحاء ولكل العرب والعراقيين منهم خاصة . كيف التعامل مع هذا النص الواضح والصريح إذن ؟ هل هو اِستشهاد أو إقرار ؟ وهل بالإمكان الاِلتفاف على النص بأنه كـُتبَ في سنة 2000 ؟ وهو يتحدث عن اليهود في العام 1948 ، وهنا يمكن إثارة العديد من الأسئلة التي يأتي في مقدمتها ، هل الدكتور مسؤول عما يكتب ؟ وهل هو يدرك ماذا يكتب ؟ والسؤال الأخير:لمن يكتب الدكتور ؟ .

وختاماً وعطفاً على الاِستشهاد الذي ختم فيه مقالته المشار إليها من خلال الأبيات الشعرية للشاعر العظيم أبو الطيب المتنبي ، المعروف بحكمه وإبداعاته الكثيرة ، نقول رحم الله الشاعر أبو العلاء المعري : شاعر الحكماء وحكيم الشعراء عندما أشار إلى إحدى قصائد المتنبي العظيم بالبيت الشعري التالي بمناسبة اِنتقاص أحد الخطباء منه :

لكِ يا منازل في القلوب منازل . . . أقفرتِ أنتِ وهنَّ منكِ أواهل



القسم
ما بعد الأخير

الملحق



اليهودي العراقي نسيم رجوان:
بغداد: مدينة يهودية لنصف القرن الماضي

منذر عبد الكريم

عن موقع التحالف الوطني العرقي

2009/5/16

((لأن مجاري المياه القذرة يرتبط الواحد منها بالآخر ، والاِحتلال الأمريكي للعراق قد وفر الفرص المواتية لشذاذ الآفاق لكي يزيدوا من إدعاءاتهم الكاذبة وأعمالهم الدنيئة ، فإننا اِرتأينا ضم هذا الرصد المهم الذي أورده الكاتب الفاضل الأستاذ منذر عبد الكريم إلى كتابنا ، عسى مَنْ يقرأه يتفكر بمحتويات نظرته ، لعله يعلم ويتعلم ويتبصر ، والواحد القهّار من وراء القصد)).

اعتاد الأوربيون والأمريكيون على دور «العرّاب»، وهم لأسباب كثيرة ومعروفة ، يمارسون دور «الخادم الممهّد» للإسرائيليين . وغالباً ما يمرُق السهم من كوّة «حوار الأديان» أو «حوار الثقافات» أو «حوار الحضارات». وكلها حوارات لا ننكرها ، إذا كانت لمنطق الدين ، والثقافة ، والحضارة ، لا لمنطق «السياسة» . وعندما تقول وزارة السياحة والآثار إنها مهتمة بإصلاح وترميم جميع «المواقع اليهودية» في العراق، فإنّ ذلك لا يزعج أحداً ، لكنْ أنْ يقال ذلك لمراسل صحيفة أو وكالة غربية أو أميركية ، بدافع إظهار «الرغبة» في انتزاع «الرضا» من دون موقف واضح وصريح ومسجّل أيضا ، فإنّ مناخ الكلام يصبح «خانقاً» لأنّه يلوذ بالأكاذيب لا بالحقائق .

ويوم هجر اليهود العراق ، كان البلد تحت الاحتلال البريطاني ، وكان عملاء الاحتلال متواطئين في الاِنفجارات التي شهدتها معابد اليهود ومحالهم ، بهدف إرعابهم وتهجيرهم في إطار تجميع الشتات عند نقطة ما قبل أو ما بعد إعلان دولة إسرائيل تحت شعار من الفرات إلى النيل . إنّ قانون إسقاط الجنسية ، والتشجيع على ما سُمّي بـ«الفرهود» لم يكن بإرادة عراقية شعبية أو «قومية راديكالية»، أو «دينية مفرّقة» إنما بموجب حسابات بين الإنكليز وبين وكالة المنظمة اليهودية العالمية «الصهيونية»، وعبر عملاء الإنكليز الذين كانوا يحكمون العراق . إن «مشروعاً صهيونياً» في فلسطين التي عدّوها «أرض المعاد» بعد أنْ ناقش المؤتمر اليهودي العالمي الذي ترأسه «ثيودور هرتزل» اختيار دولة في أفريقيا ، وفي أميركا اللاتينية ، وفي كندا ، أو في الأرجنتين ، وعدلوا عنها الى ما تسطّره توراتهم «المكتوبة» من أساطير كان الكاتب الفرنسي «روجيه غارودي» قد فضحها في كتاب قيم صدر في السبعينات. ذلك الكتاب الذي منع يهود فرنسا طباعته ، واضطر الكاتب نسخه على آلة كاتبة ، وتوزيعه باليد ، ثم طبعه محمد حسنين هيكل في مصر على نفقته ، وترجم إلى العربية ونشر .

إنَّ تماهي الرؤية عند المراسلين الصحفيين الأجانب بين «حزقيال» و«عزرا» و«دانيال» وبين من نسميهم في موروثنا وكتبنا وتاريخنا «ذو الكفل» و«العزير» أو النبي المبارك الذي تعلو قبّته في قلعة كركوك ، ينبغي أن لا تكون «إغراء» لفتح الطريق نحو «فكرة التطبيع» لأنها أكبر وأهم أهداف الغزو . وما لم يستطيعوا الوصول إليه بالقتل وبالاحتلال وبحفنات من «العملاء» المبثوثين في كل مكان ، يجب أن «يمرُق سهمه» من كوة أو نافذة الحوارات و«التسامحات» التي لا نرفضها ونراها مطلوبة حتى مع الذين لا دين لهم ، شرط أن تكون بلا «نيات مبيّتة» تشبه كثيراً تلك القنابل التي تسمى «مصائد المغفلين» . إن يهودياً عراقي المولد يعيش في القدس المحتلة يجرؤ على أن يقول «إن بغداد مدينة يهودية ، للنصف الأول من القرن الماضي» ، وإن مراسلاً غربياً ، يجرؤ أيضا على القول «إن يهود بغداد كانوا في ذلك القرن، نحو ثلث السكان» وإنّ «أضرحتهم تنتشر في البلاد» وإنّ وزارة السياحة العراقية –

التي لم تجد الفرصة حتى الآن لاستعادة الكثير من مسروقاتنا من كنوز الآثار- تملك الخطط للعناية بكل ما هو يهودي في العراق حتى المعابد.. إنّ هذه الجرأة التي «تهتز» لها قلوب بعض «البسطاء» القائمين على خدمة الأضرحة ، وراءها ما وراءها ، وهي ليست «بريئة» ولا في إطار حبنا نحن العراقيين لكل من يعيش في العراق مهما كان دينه أو كانت قوميته ، أو طائفته . وبوضوح : إنّ إسرائيل تبحث عن «طريق» إلى بغداد ، لأنّ الدخول إليها عبر التطبيع الممرحَل لن يكون «محض زيارة» كما يصف ذلك رجل بسيط يقوم على خدمة ضريح «ذو الكفل» . نحن في عالم - كما يصفه أحد المحللين السياسيين- تصوغ أبجدياته الجديدة «مخابرات الدول الكبيرة» ولهذا فكل شيء فيه يوحي بالريبة، ويدعو الى الشك، وإلى «تفتيح العقول» قبل العيون ، لكي لا تعيش ملايين جديدة منّا في الشتات ، ولكي لا نتحوّل إلى «لاجئين» حتى ونحن في أرضنا !.

يقول (جوزيف كروس) مراسل وكالة فرانس برس : تقريباً، كل شخص يستطيع قراءة «الكلمات العبرية» التي نقشت على جدران ضريح (حزقيال) قبل نحو 60 سنة، لكن ذاكرتهم مازالت تحتفظ بما يعد اليوم «ضريح مسلم موقّر». وبين سنتي 1948 و1951 هربت معظم الجالية اليهودية التي يرجع عمر وجودها في العراق إلى 2500 سنة وسط تفشّي ما يسمّيه المراسل «العنف القومي»، لكن مسلمي العراق اليوم ومسيحييه، مازالوا يزورون أماكنه المقدسة.

ويتابع (كروس) حديثه قائلاً : في المدينة الصغيرة (الكفل) جنوب بغداد ، بقي ضريح (حزقيال) - النبي الذي تبع اليهود الى المنفى البابلي في القرن السادس قبل الميلاد - جزءاً من الفسيفساء الدينية عبر حقب التاريخ السحيقة . ثمة مئذنة من طابوق القرن الرابع عشر الميلادي، تبدو مائلة خارج المدخل المؤدي إلى الضريح ، لكنّ المسجد من الداخل مصمم على طريقة «الكنيس اليهودي» بالخزانات الخشبية التي تستعمل لحمل لفائف التوراة القديمة ، و«الدرابزينات» أو الأسوار الصغيرة التي كانت ذات يوم تفصل الرجال عن النساء .

وداخل الضريح ـ يقول مراسل وكالة فرانس برس ـ تظهر «مخطوطة عبرية» تشبه الكتلة على امتداد الجدران الصخرية ، تحت قبة بطراز تركي ، مزيّنة بتصاميم زهرية إسلامية . ويؤكد (كروس) أن الحكومة شرعت بتنفيذ مشروع لترميم الضريح من الداخل ، ووزارة السياحة والآثار تقول إنها تأمل في النهاية أن تصلح وترمم المواقع اليهودية الأخرى في العراق . ونقلت الوكالة عن (عبد الزهرة الطالقاني) الناطق الرسمي باسم الوزارة قوله : ((الوزارة مهتمة بجميع التراث العراقي ، سواء أكان مسيحياً ، أم يهودياً أو من أي دين آخر)). وأضاف : ((إنّ الخطط الحالية لا تتضمن الكنيسات أو المعابد اليهودية في بغداد ، والبصرة ، والموصل ، والفلوجة ، وفي الأماكن الأخرى بسبب قلة التمويل ، لكنني أعتقد أنها ستكون ضمن الخطط المستقبلية)) .

وكتب (جوزيف كروس) يقول إن (فلاح عبد الهادي) الذي يشرف على ترميم ضريح حزقيال ، يأمل أنه سيجتذب مرة أخرى الزائرين من جميع الديانات في أنحاء مختلفة من العالم . وأضاف قوله : ((لم يكن هنالك أي نزاع ديني في بابل)) مشيراً إلى البقايا التاريخية للمدينة القديمة التي تبعد كيلومترات قليلة عن الحلة مركز محافظة بابل . وأكد قوله : ((كل شخص يعرف اليهود العراقيين يحبهم ، وهؤلاء الناس كانوا عراقيين بكل شيء)) . ويشير (عبد الهادي) إلى أن المسلمين في العراق يوقّرون جميعاً تقريباً الشخصيات الدينية المعروفة من الديانتين المسيحية واليهودية ، بضمنها (حزقيال)، مشيراً بذلك إلى (ذو الكفل) الذي ذكر في آيتين قرآنيتين . وقيل أنه كان يُنهِض الموتى . ويؤكد مراسل فرانس برس أن الحجاج المسيحيين ، والمسلمين ، واليهود في الشرق الأوسط، كانوا لقرون يقطعون مسافات طويلة ، ليزوروا أضرحة بعضهم بعضاً ، وليَصُلُّوا طلباً للعافية ، أو من أجل تنمية الرزق ، أو طلباً للنسل ، وهي العادات التي ترجع إلى الوثنية القديمة ، طبقاً لقول المراسل.

وفي مدينة (العزير) الجنوبية ـ يتابع كروس حديثه– يقوم (بشير زعلان) المسلم الشيعي على خدمة ضريح (عزرا) العالِم البارز للقانون اليهودي، والذي قاد عدة مئات من اليهود وعاد بهم إلى القدس في القرن الخامس قبل الميلاد. وتنقل فرانس برس عن (بشير) قوله : ((نحن لا نفرق بين أي من الأنبياء، سواء أكان يهودياً أم مسيحياً)) . وأضاف: ((إن النبي عزرا كان من بني إسرائيل لكن المسلمين يزورون هذا الضريح ، تماماً كما يزورون الأضرحة الأخرى)).

وفي المدينة الشمالية كركوك ـ يقول مراسل فرانس برس– يود اليهود لو يطوفون فوق حصن المدينة الذي يعود تاريخه إلى 4600 سنة ، طلباً لـ«البركة» على الرغم من أنه موقع مشكوك بأمره لضريح النبي (دانيال) ، ويعد الآن ضريحاً إسلامياً مزيّناً برايات خُضر . ويقول (أياد طارق حسين) المسلم التركماني مدير المواقع القديمة في المدينة : ((المسلمون، والمسيحيون، واليهود، اعتادوا زيارة هذا المكان . إنهم دائما يأتون يوم السبت ، حتى المسلمون منهم يفعلون ذلك ، لأنّ الضريح لنبي يهودي)).

ومن جانب آخر ، يزعم الصيدلاني (غازي محمد صالح) 66 سنة ، أنّ عائلته ظلت مسؤولة عن مفاتيح القلعة لأكثر من 1400 سنة . ويقول: ((لقد افتقدنا اليهود عندما تركناهم)) . وأضاف : ((اعتاد والدي أن يحدثنا عن مختار اليهودي رئيس عائلة شلومي الذي كان يجيء كل سبت مع جماعته ليقدم تبرّعاً للضريح . ونحن جميعاً نحب بعضنا كأخوة)).

وتحت عنوانه المثير جداً «بغداد كمدينة «يهودية».. ينقل (جوزيف كروس) مراسل فرانس برس عن اليهودي العراقي (نيسان رجوان) الذي هرب من بغداد سنة 1948 عندما كان يومها بعمر 26 سنة : ((دائما يقال: إن نيويورك مدينة يهودية . أعتقد أن المرء يمكن أن يقول الشيء ذاته عن بغداد وهو مطمئن . وأنا أتحدث عن النصف الأول من القرن العشرين)) . واعتماداً على ذاكرته ـ يعيش الآن في القدس – يصف (نيسان)كيف أن أسواق بغداد كانت تغلق أبوابها كل يوم سبت ، وهو يوم عطلة «الراحة» بالنسبة لليهود . وكتب (نيسان) يقول أيضاً: ((إن الاختلاف بين نوعية العالم الذي ولدت فيه ببغداد منتصف عشرينات القرن الماضي، وبين الذي أكملت فيه نضجي في الأربعينات ـ من دون الحاجة لذكر العالم الذي نعيش فيه الآن – كان عظيماً جداً، والى درجة يكاد فيها خيالي أن يقتنص الصور من الذكريات)).

ويتابع المراسل قائلاً : قبل النزوح الجماعي سنة 1948، كان اليهود يشكلون نحو ثلث سكان بغداد ، وقد لعبوا دوراً كبيراً في العاصمة ، اقتصادياً ، على مستوى الحياة الثقافية للبلد . واليوم تناقص السكان اليهود إلى أقل من أصابع اليد الواحدة . و«مأزقهم» بدأ في أوائل سنة 1930 مع الارتفاع التدريجي للفكر القومي الراديكالي، والذي تزامن مع وصول الصهيونية إلى العراق ، وحث المبعوثين الشبّان المبشرين بالهجرة إلى فلسطين.

وتوّجت العملية بإعلان نشوء «إسرائيل» سنة 1948 ، وأيضاً بإعلان الحرب العربية – الإسرائيلية الأولى ، وأيضا عملية (عزرا ونعيميا) التي رحّلت 120000يهودي ـ أي نحو 96 بالمائة من يهود العراق ـ إلى إسرائيل سنة 1951 . ويقول (موشيه غات) أستاذ التاريخ المولود في العراق ، والذي يعيش الآن في تل أبيب : ((إذا سألت الجالية اليهودية سنة 1948 ، كم منهم يريد الانتقال إلى إسرائيل ، أقول لك إن فقط 20 إلى 30 ألفا منهم كان سيقول لك : «نعم»)). ويضيف قوله: ((لكنْ بسبب الحرب في فلسطين، فإن الاضطهاد العراقي، والنشاطات التبشيرية الإسرائيلية ، دفعت جميعها اليهود إلى ترك العراق . إنك لا تستطيع أن تقول إن هناك سبباً واحداً)).

وبالنسبة للقليل من اليهود الذين مكثوا في العراق ـ يقول مراسل فرانس برس ـ فإن الظروف أخذت تسوء ، على مدى العقود التالية ، وعلى إيقاع تصاعد النزاعات العربية ـ الإسرائيلية المتقيّحة ، ثم تأزمت الحال في العراق بعد الثورات السياسية ، لتصل إلى العقوبات الدولية . وفي العنف الذي اندلع بعد الغزو الذي قادته الولايات المتحدة سنة 2003 ، اختفى اليهود القليلون الباقون في وقت كانت فيه «الميليشيات الطائفية» تجوب أنحاء البلاد ، وصار المسلمون يذبحون بعضهم المنافس لهم ، وتعرّض المسيحيون وغيرهم من الأقليات الدينية للشيء ذاته . ولكنْ بعد انخفاض مستويات العنف خلال السنتين الماضيتين ، بدأت الحكومة ، تعيد النظر في «الكنوز الثقافية» الكثيرة في البلد ، والعناية بقضية لجعلها «مادة مغرية» للسياح.

ويتابع المراسل حديثه قائلاً : إن القليلين في العراق اليوم ، كبار السن بما فيه الكفاية ، ليتذكروا الجالية اليهودية ، ولاسيما أن نزاعات الشرق الأوسط تثقل كثيراً على العرب ومنهم العراقيون . لكنّ «المخلصين» من الأديان الثلاثة «ربما يتلمّسون الطريق ثانية وبشكل سريع إلى ضريح» «ذو الكفل» بالقرب من المكان الذي يقال أنَّ (حزقيال) مشى خلال وادي العظام العارية من كل شيء، ورأى الله يرفعها، ويكسوها باللحم.

وفي ختام تقريره يؤكد (جوزيف كروس) مراسل فرانس برس أن (فلاح عبد الهادي) أكد قائلاً: ((إنّ العراق يجب أن يكون ذا اتجاه سياحي . وإذا جاء أي وفد بترخيص حكومي ، فأهلاً وسهلاً)) . وأضاف مبتسماً : ((طالما يأتون فقط للزيارة)) ! . وهو يعني طبعاً «اليهود في العالم» أو «يهود إسرائيل»!.

هيمنة اليهود التجارية
أثناء الاحتلال والانتداب

بعد أنْ تغلغل يهود الدونما في أوصال الإدارة العثمانية، وشغل العديد منهم الوظائف المهمة في مفاصل الدولة العثمانية والتأثير على قرارات الباب العالي، وجعلها في خدمة اليهود في آفاق الدولة العثمانية، وشملت تلك القرارات تلك القرارات يهود العراق، بمنحهم حقوقًا متساوية مع بقية رعايا الدول الأخرى، إضافة إلى إلغاء ضريبة الجزية التي كانت مفروضة عليهم، فضلاً عن إعفاء اليهود من الخدمة العسكرية، ودفع الضرائب الجماعية.

وذلك في نطاق ما يسمى بشكل الإصلاحات الذي تضمنها صدور المرسوم الثاني المعنون [بخط همايون] في 18 شباط 1856، الذي تكرر فيه التأكيد على حقوق المواطنة والمساواة في مجال الالتحاق بالوظائف العامة، وحرية العبادة، وإنشاء المحاكم الخاصة.

تلك هي البداية الأولى لمرحلة التحكم المطلق باقتصاد العراق ، تعينهم على تنفيذ خبراتهم التاريخية في التجارة ، ومستوياتهم الدراسية المتقدمة ، والاحتكار والغش والربا الذي تبيحه لهم شريعتهم ضد (الأغيار) ، ويؤكد الدكتور صباح عبد الرحمن كتابه المعنون بالنشاط الاقتصادي ليهود العراق ، وعلى الصفحة 30 ، على ما يلي : (وهذه الإصلاحات أعطت اليهود في العراق امتيازات واسعة في مختلف المجالات ولاسيما في المجال الاقتصادي ، إذ استطاعوا السيطرة على مجريات الحياة الاقتصادية بمختلف مجالاتها .

ففي الجانب التجاري كانت لهم سيطرة شبه مطلقة على السوق المحلية في العراق) ، وبتدبير محكم مع أبناء جلدتهم من اليهود في مانشيستر البريطانية وكرمنشاة الفارسية، وغيرهما من المدن والبلدان ، مكنتهم من الاتباط بالخارج ، ووفرت لهم سُبْل الاتصال بالوكلاء والبنوك المصرفية بسهولة ويسر ، وهو الأمر الذي فسح لهم المجال في تأسيس البنوك والشركات ، خاصة بعد فتح قناة السويس وذلك في عام 1869 .

لقد زاد عدد التجار اليهود في العاصمة العراقية : بغداد زيادة كبيرة ، وازداد نشاطهم وانتشارهم في المدن العراقية الأخرى ، وتمكن قسم منهم في فتح شركات ومصارف في العاصمة البريطانية : لندن ، وفي غيرها من العواصم ، وكانت بريطانية من المهيمنين على أوضاع العراق السياسية آنذاك ، ويؤكد الدكتور صباح عبد الرحمن في كتابه الذي يبحث عن النشاط الاقتصادي ليهود العراق ، وعلى الصفحة 33 ، على وجود الظاهرة التالية : (وكان يهود البصرة يحتكرون 95٪ من الأعمال التجارية في البلاد منذ العام 1914 ولغاية العام 1933) ، وهذه الهيمنة الاقتصادية شبه المطلقة على اقتصاد العراق التي دامت قرابة المائة عام تبين الفارق الكبير في توزيع القوة الاقتصادية مبين أبناء المجتمع العراقي ، إذ أنَّ نسبة اليهود تشكل الرقم (2) إلى الرقم (2.5) بالمائة من إجمالي سكان العراق .

ومن الجدير ذكره ، أنه كلما ازدادت الإمبراطورية العثمانية ضعفًا انعكس ذلك الضعف قوة على أوضاع يهود العراق ، ذلك على شكل من الضغوط الأوربية على الإمبراطورية العثمانية التي كانت أوروبا تسميه (الرجل العجوز المريض ، وتمنح اليهود العراقيين حقوقًا متساوية) بالحقوق التي تمنح لرعاية الأجانب.

إنَّ هذه السيطرة اليهودية على الاقتصاد العراقي أدت إلى ظهور أسماء وأسر يهودية لها شأن ومكانة في داخل العراق وخارجه في عالم التجارة والاستيراد ، مثل عائلة شعشوع وقصرهم في الأعظمية الذي أصبح مكان البلاط والذي اتخذه الملك سكنًا له . وكذلك ، عائلة دانيال ، وعائلة ساسون ، التي منها ساسون حسقيل أول وزير مالية للعراق في العشرينيات من القرن الماضي .

وعند العودة إلى الهيمنة اليهودية على الاقتصاد العراقي قرابة قرن من الزمان نتيجة كون التجارة حرفة اليهود ولهم الباع الأطول في معرفة أسرار السوق والاحتكار والعرض والطلب .

كما يعتقد البعض ، ونحن لا ننكر عليهم الأصالة التاريخية في الحرفة ومعرفة أسرار السوق ، وخصوصًا إنَّ المقولة اليهودية المعروفة والقائلة : (الربح القليل من أجل توفير الكثير) ، ولكن لابد من عوامل وأسباب داخلية وخارجية ، سياسية واجتماعية ، أدت إلى هيمنة ما نسبته (2 إلى 2.5) من السكان على كامل اقتصاد البلد ، ومثل هذه القدرات والإمكانيات لا تحصل حتى بقدرة قادر !!

لكنها تحصل عند اليهود لما لهم من طُرق وأساليب ملتوية وخدمات لدولة القرار ، وضغوط دولية تمارس على إمبراطورية الرجل المريض ، لغايات وأهداف سياسية تستهدف وجود الإمبراطورية ذاتها .

يؤكد الأستاذ حنا بطاطو في كتابه الطبقات والحركات الثورية ، الجزء الأول ، ص284 ، على ما يلي : (كتب المفوض المدني البريطاني في بغداد عام 1918 ، لقد وجهتُ عنايتي دومًا ، إلى القيام بدعم نشاط للجماعة اليهودية بإمكانية ثمينة ، ذات قيمة سياسية كبيرة ، وفعلتُ ما باستطاعتي لكي أظهر لهم أنَّ ثمرة نوايانا في هذه البلاد ستكون لذيذة المذاق ومفيدة لهم .

ولا تعدوا هذه الهيمنة اليهودية والسيطرة على الغرف التجارية في المحافظات الأخرى ، وذلك في سنة 1926 حيث تم انتخاب أول غرفة تجارية في بغداد في عهد لانتداب ، تم فيها انتخاب 14 عضوًا ، تسعة أعضاء منهم من اليهود ، وزاد العبث والخراب اليهودي في اقتصاد العراق إبان الانتداب والاحتلال البريطاني ، وفي هذا النطاق يشير الدكتور صباح عبد الرحمن في كتابه : (النشاط الاقتصادي ليهود العراق ، وعلى الصفحة 84 ، لقد كان الميزان التجاري العراقي من عجز كبير في المرحلة المحصورة بين أعوام 1920 إلى سنة 1952 بسبب سيطرة التجار اليهود واهتمامهم بالاستيراد ، وكانت أغلب المواد المستوردة هي مواد كمالية واستهلاكية) .

ويؤكد مذلك أيضًا ، الدكتور محمد سلمان حسن في كتابه الموسوم بالتطورات الاقتصادية في العراق ، وعلى الصفحة 354 ، بعدم وجود تناسب بين الصادرات والواردات، والسبب في ذلك يعود إلى الأعضاء اليهود في الهيئة الإدارية للغرف التجارية الذين شجعوا الاستيراد على حساب التصدير ، وأغرقوا الأسواق العراقية بالمواد الكمالية ، والمصنعة الجاهزة ، التي لا تخدم تطور الصناعة العراقية ، ويبين الجدول التالي نسب الواردات والصادرات قبل الحرب العالمية الثانية :

- 95٪ من واردات العراق بيد اليهود .
- 90٪ من عقود العراق بيد اليهود .
- 10٪ من صادرات العراق بيد اليهود .

وبهذا التباين الحاد في النسب المئوية بخصوص تجارة العراق ، ومن خلال اليهود ، جعلهم (أي اليهود) أكثر تبعية لبريطانيا العظمى ، وتجسيدًا لهذا الدور الهام الذي يلعبوه ، فقد تمادوا في خياراتهم ، وطلبوا من المندوب السامي البريطاني في بغداد بالسماح لهم أن يكونوا رعايا بريطانيين .

وبعد العبث والخرق في الاقتصاد العراقي ، فقد تعززت الشكوك في طبيعة المواطنة العراقية عند اليهود ، والأدهى من ذلك أن تساهم أموال العراق من خلال اليهود في دعم المنظمات الصهيونية .

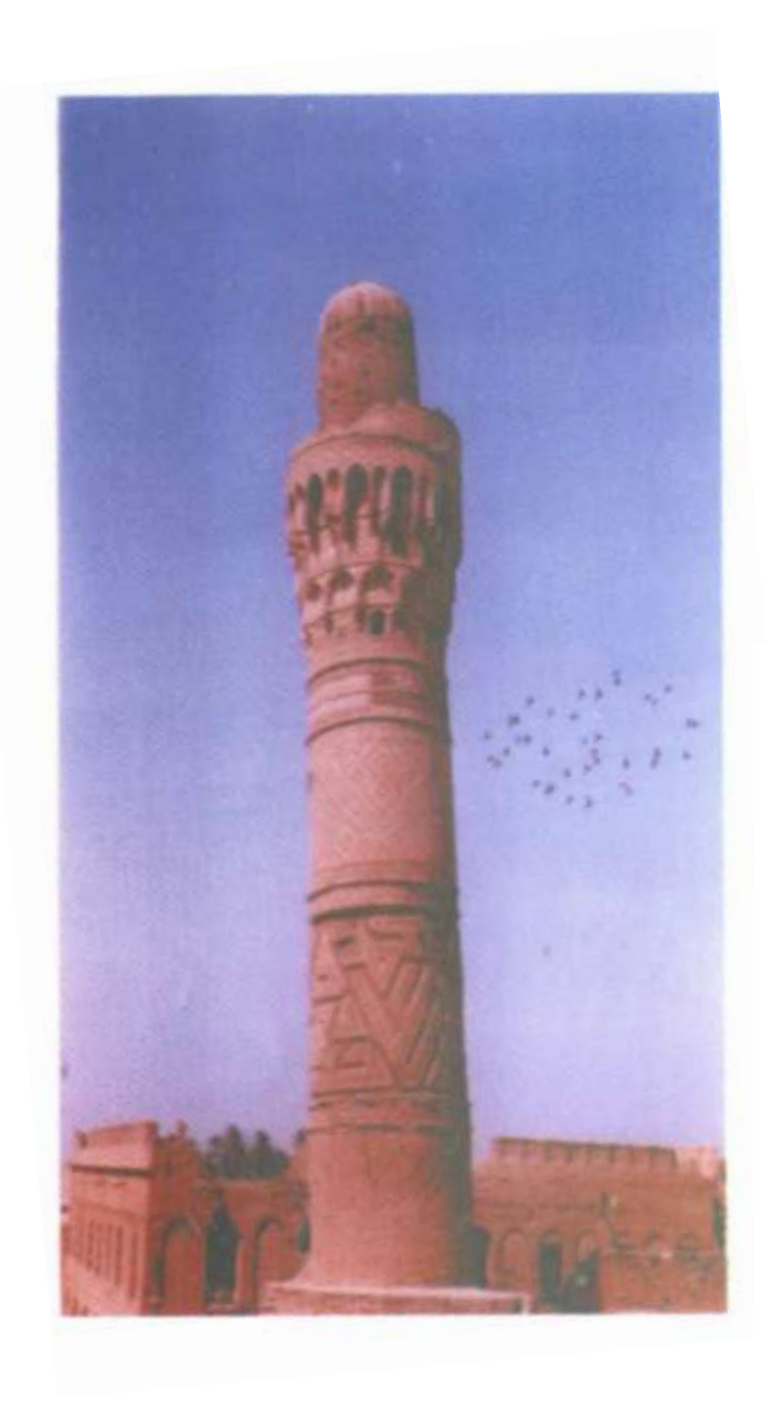
لقد جاء العراق من حيث الترتيب ، في الدرجة الرابعة من حيث نسبة المتبرعين لتلك المنظمات في العام 1921 ، وذلك بعد كل من الولايات المتحدة الأمريكية ، وبريطانية ، والصين ، وفقًا لما ورد في كتاب النشاط الاقتصادي لليهود العراقيين في الصفحة 215.

ملف صور خاص بمدينة الكفل

الصــــور بعدســـة المصـــور
الفوتـوغرافي الفنـان الموهـوب
المهنـدس عبـد الـرزاق نعمـة
الحائز على عدة جـوائز تقديريـة
محلية وعالمية



















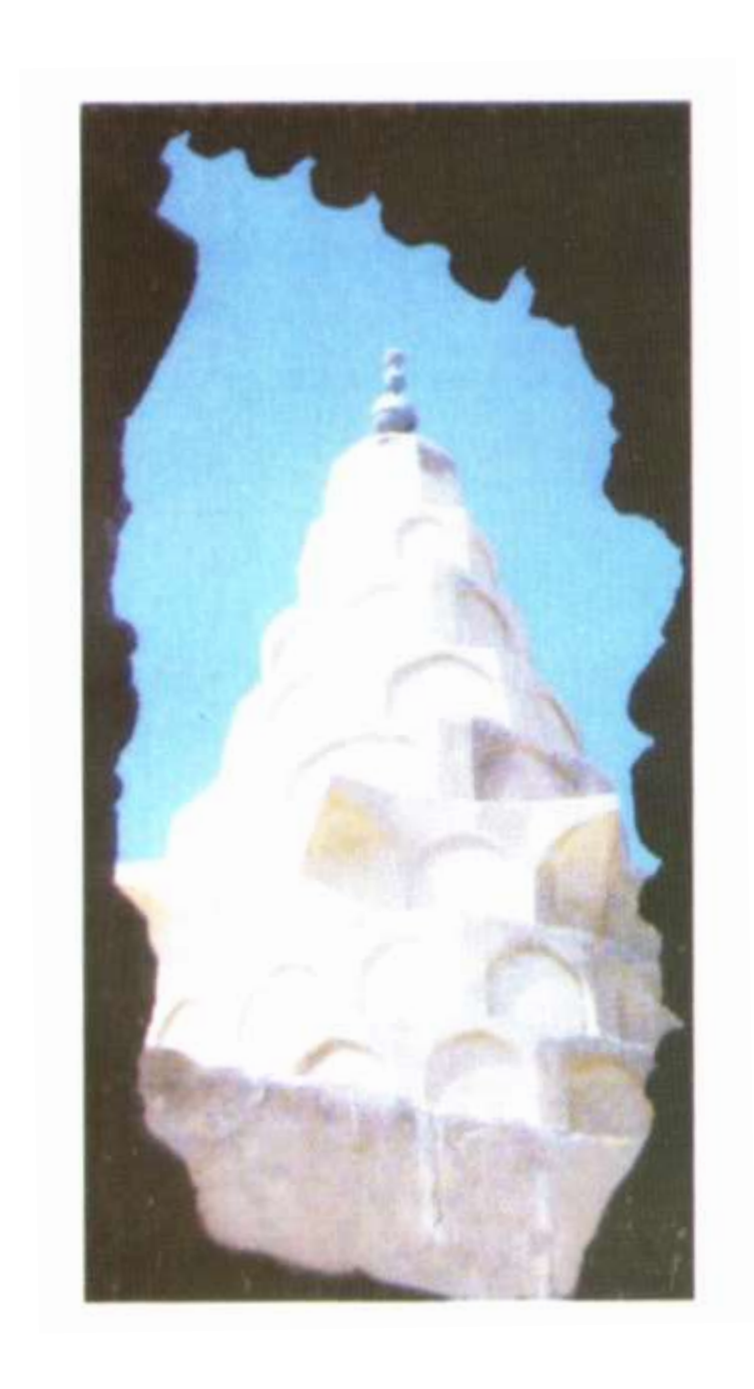


المنارة الأثرية والقبة المقرنصة


مقام نبي الله ذي الكفل









مخطط المسجد والقبور الوهمية المجاوره له









المراجع والمصادر

1 ـ القرآن الكريم :

أ ـ سورة ص ، الآية 48 . ب ـ سورة الأنبياء ، الآية 85 .

ج ـ سورة البقرة ، الآية 62 . د ـ سورة البقرة ، الآية 67 .

هـ ـ سورة المائدة ، الآية 69 . و ـ سورة المائدة ، الآية 58 .

2 ـ نهج البلاغة ـ شرح إبن أبي الحديد ،الجزء الرابع ، ص 98 .

3 ـ نهج البلاغة ـ شرح إبن أبي الحديد ، الجزء الثالث ، ص 195 .

4 ـ الإنجيل .

5 ـ التوراة :

أ ـ سِفر حزقيال ، الإصحاح 9 ، الآية 6 .

ب ـ سِفر حزقيال ، الإصحاح 1 ، الآية 1 .

ج ـ ===،==12 ، =13 . د ـ ===،= =24،=7 .

هـ ـ === ، == 2،=18 . و ـ ===،==18،=19 .

ز ـ ===،==18 ،=20 . ح ـ=== ،==18،=22 .

ط ـ=== ،==11 ،=12 . ي ـ===، = = 3 ،=15 .

ك ـ=== ،== 10،= 16 ـ 17 . ل ـ===، == 10 ، = 20 .

م ـ== =، == 3،= 4 ـ 9 . ن ـ == = ، == 5،= 5 ـ 6 .

س ـ ===، = = 6،= 11 ـ 12 . ع ـ ===، == 36، =28 .

ف ـ ===، == 25، = 16 ـ 17 .   ص ـ ===، = = 25،= 13ـ 14 .

ق ـ ===، == 13،= 1 ـ 5.   ر ـ === ، == 16، 6 ـ 15.

6 ـ التوراة:

أ ـ سِفر العدد، الإصحاح 14،الآية 18 .

ب ـ سِفر التثنية ، الإصحاح 5،الآية9.

ج ـ= = ،==34،= 5 : 12 .

د ـسِفر التكوين ،الإصحاح11،=1.

هـ ـ== ،= = 10،=10 ـ 11 ـ 14 .

و ـ= = ،==7،=20.

ز ـ== ،==1 ، =2.

ح ـ سِفر الخروج،الإصحاح5،الآية30.

ط ـ== ،== 7، =34.

ي ـ سِفر التثنية،الإصحاح2 ،الآية23.

ك ـ سِفر دانيال ، الإصحاح 2 ،الآية16 .

ل ـ سِفر المزامير ،الإصحاح 8،الآية9.

م ـ سِفر دانيال ،الإصحاح4،الآية30.

ن ـ سِفر أرميا ،الإصحاح7 ،الآية58.

س ـ ==، ==32 ،الآية16.

ع ـ ==،==45،=1 .

ف ـ= =، ==34،=5 : 12.

ص ـ ==،==29،=4 ـ 16.

ق ـ= =،==9،=13 ـ 14 .

ر ـ سِفر الخروج،الإصحاح 7،الآية 3.

7 ـ نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق :

ص245،ص44،ص66،ص46،ص102،ص 67،ص65، ص 186،ص118 ، ص122، ص ـ 245 ،ص107، ص ـ 53 .

8 ـ موريس بكاي :

ص18،ص26،ص 24،ص 34 ، ص3، ص44، ص 25 ،ص 44، ص19 ،ص19 ، ص57 ،ص25، ص28.

9 ـ بروتوكولات حكماء صهيون ـ عجاج نويهض :

ص367، ص379، ص396، ص389، ص329، ص375، ص370، ص371، ص331 ، ص294، ص 482، ص375،ص372،ص389،ص.371

10 ـ الملل والنحل ـ الشهرستاني ـ أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر الشهرستاني .

11 ـ تاريخ الطبري .

12 ـ الطبقات الكبرى ـ إبن سعد ـ دار الفكر ـ بيروت .

13 ـ الواقدي ـ فتوح الشام .

14 ـ الكامل ـ إبن الأثير .

15 ـ البداية والنهاية ـ لإبن كثير ـ إبن كثير ـ قصص الأنبياء .

16 ـ كتاب الإشارات في معرفة الزيارات ـ أبو الحسن علي بن أبي بكر الهرري .

17 ـ ياقوت الحموي ـ معجم البلدان .

18 ـ العرب واليهود في التاريخ ـ د . أحمد سوسة .

19 ـ تحفة العروس ونزهة النفوس ، محمد بن أحمد التيجاني .

20 ـ خفايا التلمود في أخلاق اليهود ـ إبراهيم الدسوقي .

21 ـ الله أم يهوا ـ عبد المجيد همو .

22 ـ الجنس والزنا في بني إسرائيل ـ إبراهيم الدسوقي .

23 ـ الثورة العراقية الكبرى ـ عبد الرزاق الحسني .

24 ـ البابليات ـ محمد علي اليعقوبي .

25 ـ أعلام اليهود في العراق ـ مير بصري .

26 ـ إسرائيل وعقيدة الأرض الموعودة .

27 ـ الكفل : أنبياء ومدينة ـ كريم برهان الجنابي .

28 ـ اليهودية بعد عزرا .

29 ـ بروتوكلات حكماء صهيون ـ عجاج ويهض .

30 ـ الأسر الحاكمة ، د . عماد عبد السلام رؤوف .

31 ـ تاريخ الحلة ـ جزءان ـ يوسف الكركوشي .

32 ـ تاريخ الوزارات العراقية ـ عبد الرزاق الحسني .

33 ـ حياتي قي نصف قرن ـ د . أحمد سوسة .

34ـ اليهودية في العقيدة والتاريخ ـ عصام الدين جفني ناصح .

35 ـ نوادر الأصول للترمذي .

36 ـ الثعالبي ـ العرائس .

37 ـ المجلسي ـ بحار الأنوار .

38 ـ دراسات في التاريخ ـ الأستاذ فريحة .

39 ـ الرحلات ـ رحلة بنيامين الأندلسي ـ رحلة بنيامين الثني ـ رحلة بنهير الدانماري.

40 ـ جورج قرم : المسألة .

41 ـ صدام حسين بطل في زمن الهوان ـ محمود بكري .

42 ـ صفحات بابلية ـ عبد الرضا عوضي .

43 ـ لمحات إجتماعية من تاريخ العراق الحديث ـ د . علي الوردي .

44 ـ مراقد المعارف ، محمد حرز الدين

45 ـ نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق ـ يوسف غنيمة .

46 ـ يهود العراق في القرن العشرين ـ مير بصري .

47 ـ جريدة المؤتمر ، العدد (93) السنة : 2000 م .

48 ـ النشاط الإقتصادي ليهود العراق لسنة 1917 ـ 1952 ـ د صباح عبد الرحمن .

49 ـ بحث للسيد محمد محمود هنيدي .

50 ـ بحث للسيد حسن الهنداوي .

51 ـ عبد العظيم الحسيني ـ النبوة .

52 ـ جريدة المقتطف .

53 ـ بحث للسيد حصين شهيد المالكي .

54 ـ توصيات المجمع المسكوني الثاني للفاتيكان عام 1962 ـ 1965 . والتـي تشـير إلى بعض الشوائب وبطلان بعض النصوص في التوراة .

55 ـ الطوفان والتعميد ـ للكاردينال دانيلو .

56 ـ ما هي حقيقة التوراة ـ أ . لورتز .

57 ـ التاريخ النقدي للعهد القديم ـ ريتشارد سيمون .

58 ـ جوش كرونكل ـ التاريخ اليهودي .

59 ـ س . شختر ـ دراسات في اليهودية .

60 ـ موسوعة تاريخ العالم ـ سنة 1858 أزيلت آخر القيود عن اليهود في بلاد الإنكليـز ، وذلك في الزمن الذي كان دزرائيلي رئيساً للوزراء البريطاني .

61 ـ جوناثان كيرتش ـ حكاية محرمة في التوراة .

62 ـ موريس بكاي ـ القرآن الكريم والإنجيل والعلم .

63 ـ وول ديورانت ـ قصة الحضارة .

64 ـ غوستاف لوبون ـ ناريخ الحضارات الأولى .

65 ـ الأب ديفو ـ بكاي ، ص 30 .

66 ـ الكاردنال باوريجين ـ بكاي ص 56 .

67 ـ الرحالة كلٌ من : بنيامين الأندلسي ـ بنيامين الثاني ـ نيبر الدانيماركي إلى العراق .

68 ـ جان إستورك في 1753 ـ دراسة بعنوان (قرائن لـ : سِفر التكوين ـ عـن بكـاي ، ص 28).

69 ـ زلمان شازار ـ في كتابة تاريخ العهد القديم .

70 ـ سيكل سيل ـ المرشد إلى الكتاب المقدس .

71 ـ موجز تاريخ العالم ـ هربرت جورج ويلز .

72 ـ الشعب اليهودي قديماً وحديثاً ـ أولبرايت .

73 ـ البرتو دانزل ـ اليهودية والغيرية .

74 ـ المؤرخ الفرنسي الشهير ـ جان بو تيرو .

فهرس الكتاب